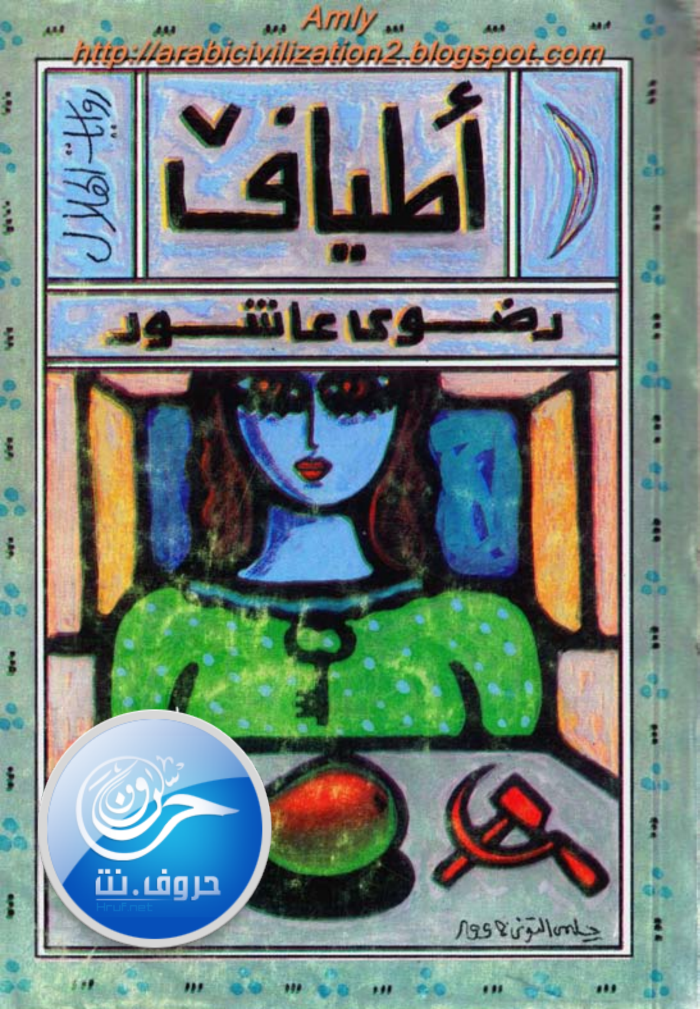


Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com
روايات الهلال
أطياف
رضوى عاشور
حروف.نت
Hruf.net

روايات الهلال
Rewayat Al Hilal

سلسلة شهرية لنشر القصص العالمي

تصدر عن:
مؤسسة دار الهلال

الإصدار الأول: يناير ١٩٤٩

ثمن النسخة

سوريا ٢٥٠ ليره / لبنان ٧٥٠٠ ليره/ الأردن ٣ دينار/ الكويت ٢ دينار/ السعودية ٢٠ ريالا/ البحرين ٢ دينار/ قطر ٢٠ ريالا / دبى / أبو ظبى ٢٠ درهما / سلطنة عمان ٢ ريال

العدد ٦٠٢
فبراير ١٩٩٩ ● شوال ١٤١٩ هـ
No - 602 - FEB - 1999-

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية ـ البلاد العربية ٣٥ دولارا ـ امريكا واوربا واسيا وافريقيا ٥٠ دولارا ـ باقى دول العالم ٦٠ دولار .
القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ـ ويرجى عدم ارسال عملات نقدية بالبريد .

للاشتراك فى الكويت : السيد عبدالعال بسيونى زغلول الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت ٤٧٤١١٦٤
الادارة : القاهرة ـ ١٦ شارع محمد عز العرب بك (المبتديان سابقا) ت : ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط) المكاتبات : ص . ب ٦١ العتبة ـ القاهرة ـ الرقم البريدى ١١٥١١ ـ تلغرافيا المصور ـ القاهرة ج . م . ع
تلكس : TELEX 92703 hilal u n
فاكس : FAX 3625469

أطياف

بقلم
رضوى عاشور
●
دار الهلال

الغلاف للفنان:
حلمى التونى

الفصل الأول

كان الوادى يفيض بالأطياف، أطياف صامتة تميل مع الغروب لتهبط تباعا إلى باطن الأرض حيث النهر المستتر يحملها فى المراكب مع مجراه المتدفق إلى الشرق. صمتٌ ثم صوت، خافتٌ ثم يعلو، سوف يتردد فى الوادى بعد سنين.

لم تكن تسمع إلا الثلاثة الذين يخصّونها، زوجها وأخويها. ذهبوا ولم يعودوا. أغلقت على أصواتهم الباب، أحكمت إغلاقه بقفل أودعت مفتاحه صدرها. واصلت. كانت فى الخامسة والعشرين، لها طفلان، والثالث ما زال بعد فى بطنها. وضعته بعد ستة أشهر فكان بنتا.

- سأرعى الصغار والقراريط، ولا دخل لأحد فى شأنى.

كره أولاد العمومة استغناءها، كرهوا رفضها الزواج من أى منهم، ثم كرهوا قدرتها على إدارة شأنها اليومى كأنها ليست من الولايا. وحين انحسر الغيظ المُعلن والكظيم ظلوا يراقبونها وينتظرون أن تثبت لها الأيام، وتثبت لهم أيضا.

بطلان الخروج على ما استنه الآباء والأجداد. خذلتهم: كبرت الصغار وكفت حاجتهم. ظلت عيونهم تتابعها. كانت جميلة تزيدها مناعتها حسنا، لايفوتها المشاركة فى الفرح ولا الأحزان؛ تغنى فى الأعراس، وفى المأتم تفوق النادبات بما ترتجله من عديد.

- شجر عنيدة وتكابر!
- شجر أصيلة وعداها العيب.

هدأوا، عادوا يفسحون لها مكانا بينهم وهى تصاحب نساءهم، يحملن جرار الماء من النهر أو يذهبن اليه بالأوانى والملابس المتسخة. ومن كان يريدها من الرجال أو يعشقها غض الطرف عنها، كتم رغبته وتناساها حتى بدا أنه نسى.

- امرأة بعشرة رجال!

قالوها يوم شاع فى القرية النبأ، لم تكن أذاعته ولا حكت تفاصيل ماجرى. قالت لابنها البكر: "أبلغ أعمامك أن البنت ماتت". أتوا، رأوا الصبية القتيلة، سألوا: كيف و متى ومن؟ بقيت صامتة. لم تنبس ببنت شفة أربعين يوما حتى ظنوا بها الخرس. ولما عاد إليها الكلام لم تتحدث فى الأمر كأن شهور حملها التسعة والسنوات الأربع عشرة التى كبرت فيها ابنتها سقطت أو لم تكن. واصلت زراعة الأرض مع الولدين، كانا مثلها قويين، نشيطين، مدبرين. أنتج كدهم فاشتروا قيراطين

جديدين من الأرض ثم عادوا وباعوا واحدا منها لدفع مهر العروسين.

رقصت شجر ليلة العرس ثم رقصت لطهور كل حفيد من أحفادها العشرة. ولما ذهب أصغرهم الى الكتّاب كانت الدار، ما شاء الله، تفيض بالشباب، يقلّبون الأرض ويبذرونها ويرعون نبتها ويحصدونها ثم يقلّبونها من جديد. وتفرّغت شجر لشيخوختها فجاءتها الأطياف.

أول الأمر كانت اللقاءات صامتة. تدخل عليها الأطياف، تجلس فى استحياء. هى أيضا لم تكن تأتيها الكلمات، تسترق النظرات إليهم ثم تعود تحدّق فى كفّيها حائرة لا تعرف إن كان عليها أن ترحّب بهم وتضيّفهم لأنهم أغراب أم تفسح لهم - لأن البيت بيتهم يسلكون فيه حسب هواهم، يتحدثون، إن أرادوا، أو يصمتون. ولما تكررت اللقاءات استعاد الأهل أهليّتهم فى الحديث يعوّضون به سنين الإنقطاع. تسأل أحيانا، وأحيانا تتحدث، وفى الغالب تنصت. كان لديهم كلام كثير عن ساحات الحفر و"عتبة الجسر" والعطش والصكوك. كل هذا عاشوه وخبروه فى شهور معدودة، كيف؟ تتساءل فى استغراب لأنها عاشت قدر ما عاشت، تزوّجت وأنجبت، ترمّلت وكبّرت الأولاد والأحفاد، ناطحت الأهل حين ناطحها الأهل، وما توفّر لها سوى النزر اليسير من حكاية كحكايتهم.

تنصت. لا ترفع عينيها عن وجوههم وأيديهم وهى تنقبض وتنبسط مع مجرى الكلام. وحين يجتمع كل أفراد الأسرة على العشاء، وأكواب الشاى بعد العشاء، تعيد عليهم بعض ما سمعته. لا تنتبه وهى مأخوذة بالحديث أن الصغار يتغامزون ويكتمون ضحكاتهم. واذا انفلت الضحك وانتبهت تقول: كفوا عن اللعب ياصغار، اسمعوا حكاية أجدادكم.

ثم أقعدها الوهن. لزمت الفراش، لا تأكل الا كسرة خبز مغموسة فى الشاى المحلى بالسكر بعد صلاة الظهر، تبقى عليها حتى نفس الموعد من اليوم التالى. شح ضوء عينيها. لم تعد تبصر الا خيالات ولديها وعيالهما. الأطياف بقيت، واضحة كالشمس، تدفئها بالمؤانسة. فاجأتها ذات يوم بما لم تكن تتوقعه قط: اصطحبت معها ابنتها ولم تكن رأتها منذ اليوم الذى ضربتها فيه ثم وجدتها ممددة على الأرض بلا حراك.

صرخت شجر صرخة مدوية أفزعت أهل الدار والجيران. جاءوا راكضين. لم ترهم، لم تسمع أسئلتهم. تعوى وتلطم خديها، لا ترى سوى ابنتها الواقفة أمامها لم ينتقص الزمان من تفاصيلها شيئا: عيناها، ضفيرتاها، ثوبها المنقوش بزهور دقيقة بيضاء، حتى ثدياها على حالهما لم تزدهما السنوات امتلاء كأن البنت لم تبلغ بعد. بعد الصخب والبكاء والاتهامات الغاضبة جاء العتب والحديث الهامس الحزين. توغلتا فى

شجون الكلام، وعلى غير انتباه امتدت يد شجر إلى يد ابنتها فتماسكت اليدان.

لم تذهب البنت وتأتى كالأطياف. لازمت أمها، صاحبتها ولم تفارقها حتى عندما اختلطت على شجر الأسماء وخبت النظرة فى عينيها. ثم ذهبت شجر. حملها ولداها على أكتافهما ملفلفة فى الأكفان، تبعهما الأحفاد والأهل والجيران. غادروا الدار الى المسجد. صلوا عليها. نقلوها الى المقبرة.

•••

"لماذا شجر؟!"

لم يكن سؤالا بل تعبيرا مباغتا عن الاستياء. إعتبروه سؤالا: "أسميناك على اسم جدتك الكبيرة".

- اسمك شجر؟!

- الشجر عال وكبير. وقد يكون شجر المانجة!!

بدا ذلك الشق الثانى من العبارة مفحما، فمن سوى البلداء لا يحب المانجة؟!

فى حديقة الجيران شجرة مانجة، شجرة سامقة يتفرع جذعها المعرق الخشن إلى ثلاثة فروع غليظة كجذوع سواها من الأشجار، تطلق بدورها أغصانا يصعب عدها وهى تبين وتختفى بين كثرة الأوراق. لم تكن مجرد مشهد أليف يطل عليه شباك الطفولة. تشتهى ثمارها، تلتقطها عيناها وهى حبات

صغيرة خضراء. تتابعها وهي تنمو وتمتلئ. وكأنها تكايدها فلا تنضج الا أيام العطلة الصيفية: تسمع ارتطام الثمرة الناضجة بالأرض فتركض الى الشبّاك، ترى أولاد الجيران وهم يتسابقون الى الثمرة الكبيرة بحجم كفين متلاصقين. وحين يأتي لها أبوها بالمانجة تأكل نصيبها منها بشهوة مزدوجة، تسطعم مذاقها الحلو اللاذع ورائحتها النفّاذة وتقضي شهوة معلّقة في فروع شجرة سامقة لا تملك ثمارها. قالت بزهو: "كشجرة المانجة!" تراجعت البنات. تقدمت أكثر:

– كشجرة المانجة: عالية وفاكهتها غالية!

في المدرسة، كسبت الجولة. في البيت لم تتصالح مع الإسم إلا بعد معرفة الحكاية التي وراءه.

كان موضع خلاف بين جناحي العائلة؛ بل تقتضي الدقة القول إنه وفّر ساحة للاشتباكات غير المُعلنة بين جدها لأبيها وجدتها لأمها. أطلعها جدها عبد الغفار على المناوشات الأولى، قال: "اقترحتُ أن نسميك عزيزة فلم توافق جُلْسُن هانم فقلت: نسمّيها شجر، ما رأيكم في شجر؟ بدت أكثر انزعاجا. قالت إن كان لابد من إسم يبدأ بحرف الشين فليكن شويكار أو شُكرية. لو لم ترفع صوتها وتشرئب بعنقها وتهزّه كالديك الرومي، لو قالت بلطف: ما رأيكم في إسم آخر؟ لطاوعتها، ولكنها مطّت شفتيها وعوجت رأسها كأنني قلت سمّوا البنت خنفسة. إغتظت. قلت سنسميها شجر وهذا آخر كلام! وقال أبوك: على بركة

الله، مبروك عليكم "شجر".

في ضوء هذه الواقعة تسهل قراءة تلك الصورة الأولى: شجر ملفلفة في الأقمطة البيضاء لا يبدو منها سوى وجه يميّزه شعر أسود كثيف وعينان مفتوحتان. تحملها ست جُلْسُن على ساقيها، تحيطها بذراعيها، تكاد تغمرها بجسدها الممتلئ. الوجه مقطّب، لا يتطلع الى الوليدة، ينظر الى الأمام بنظرة لا تخلو من الغلّ. هل كان جدها عبد الغفار هو الذي يقف أمامها فيضطرها وهي تتطلع الى آلة التصوير أن تتطلّع اليه أم كانت متأثرة بجراحها إثر هزيمتها في معركة الإسم؟

لم تتقبل جُلْسُن هانم الإسم ولم تمتنع عن استخدامه. إنقضت عليه كما ينقض العدو على سلاح غريمه فينزعه منه ويصوّبه عليه. تشدّد على حرف الشين وهي تنطق بكلمة "شجر" بمزيج من السخرية والاستخفاف والتشفّي. متى نزلت شجر الميدان؟ لم تعد تذكر سوى انحيازها التلقائي إلى معسكر جدها لأبيها. تشبثت بالاسم. تمترست وراءه. أصبح البيرق الدال على الجيش الذي تنتمي إليه.

لم تكن الأرض الحرام بين المعسكرين سوى منضدة خشبية مستطيلة تفصل بين مقعد إلى يمين الداخل يجلس عليه جدها عبد الغفار وآخر يقابله، إلى يسار الداخل، تجلس عليه ست جُلْسُن. تقول شجر وهي بعد نصف نائمة، "صباح الخير يا جدي. صباح الخير يا تيتة"، تدخل الحمام، تفرك أسنانها، تغسل

وجهها، ترتدى زيّها المدرسى وتغادر البيت- يصحبها والدها إلى المدرسة قبل أن يتوجها كل إلى عمله- يرفع جدها رأسه عن الجريدة: "مع السلامة"، تتبعه جدتها وهى تواصل التطريز. فى الرابعة بعد الظهر يعودون، تدير أمها المفتاح فى الباب، ينفتح على ست جُلْسُن منهمكة ما زالت فى تطريزها وجدها غافيا على المقعد المقابل. يتنبه لدخولهم، يفتح عينيه، يبتسم.

كان قوى الذاكرة عفيّ البدن لا ينّم عن شيخوخته سوى تجاعيد الوجه والبقع البنية الداكنة على ظاهر اليدين. طويل القامة، يعزز هيبته قفطان من الشاهى المقلم تضيئ لمعته رصانة لون الجبّة الداكنة، يرتديه للخروج. فى البيت، الجلباب الأبيض وفوقه، فى الشتاء، عباءة بنّية من وبر الجمال.

لا تنفد حصيلته من الحكايات عن المشايخ والأفندية، والوفد والملك والانجليز وسعد باشا، والوكالة والعاملين بها. أبوها لا يسمع هذه الحكايات. يذهب إلى عمله مرة أخرى فى المساء فلا تراه إلا صباح اليوم التالى. أمها أيضا لاتسمعها. هل تسمعها جدتها لأمها؟ لا بد أنها تسمع وهى جالسة فى المقعد المقابل تشتغل فى تطريزها ولكنها لا تضحك عندما يضحكان، لا يبدو عليها التأثر عندما تصيب الرصاصة صدر الولد فتقتله ويحمله رفاقه وهم يهتفون "تحيا مصر".

فى الأول أنجزت ست جُلْسُن ثلاث قطع شُدّت على عوارض خشبية: مشاهد رعوية: رجال ونساء يرتدون ملابس

أمراء أوروبيين قدامى يسوقون أغناما فى حقول مزينة بالزهور. علّقت اللوحات فى الصالون فى أطر مذهبة ثم أصرت على تغيير قماش المقاعد لتستبدل به الجديد الذى طرزته: مرة أخرى الأمراء -الرعيان. تتوتر ست جُلْسُن لفتح باب الصالون حتى لو كان الغرض تنظيفه. يفيض توترها عندما يأتى الضيوف ويستخدمون المقاعد ويحتسون ما يقدم لهم من مشروب. لا ترفع عينيها عن يد الضيف الممسكة بقدح الشاى إلا لتثبتها على زوجته "الرعناء" (هكذا ستصفها ما إن تنصرف): "كان قلبى سيقف وهى تضحك، قلت لن تمر الليلة على خير، سينسكب الشاى على طقم الأبيسون!" أما إن جاء الضيوف بأطفالهم فتلك تكون محنة حقيقية. ثم تأتى زائرة جهمة لا تضحك وبلا أطفال فيبدو أنها عين المراد. تذهب الضيفة وتقول ست جُلْسُن: "كان وجهها أصفر مثل الليمونة، من الحسد، والله أنا رأيى لا ندخل أحدا من الضيوف الصالون، نستقبلهم فى الصالة!". تعد البخور، ترقى طقم الأبيسون واللوحات الثلاث سبع مرات. ثم تأتى بورقة، تقصها على شكل امرأة، تشكشكها بدبوس ثم تحرقها وهى تتمتم بالدعوات. تخرج وتغلق الباب بحرص.

الباب المغلق لا يثير خيال شجر أورغبتها فىاجتيازه. وراء الباب معلوم: طقم الجلوس مذهب الحواف يحتل الغرفة، يجعل من الفراغات الفاصلة بين مقاعده الغليظة مجرد ممرات ضيقة

تزيدها ضيقاً منضدة لها مسطح رخامي أسود لا تتطلع إليه دون أن تتذكر يوم اصطدم رأسها بحافته. سال دمها واقتضى الأمر المستشفى وبعض الغرز. بعدها التأم الجرح وبقيت منه ندبة دقيقة تحت حاجبها الأيمن وسخرية طفل من زملاء المدرسة من الضمادات البيضاء حول رأسها. اللوحات الثلاث والأبيسون زادتها نفوراً من الغرفة. شيء واحد فيها تمنّت لو نقلته منها: صورة أمها وأبيها، صورة الزفاف.

أبوها يضحك، يبدو أنه يريد -احتراماً للصورة- أن يقيّد فرحه ويبدو عريساً رصيناً. تغلبه الضحكة فيظهر معلقاً بين الحالتين: حيوية شاب حصل على الفتاة التي يريدها، وطقس العرس الرسمي والصورة التي تثبّته في عيون الأهل والأولاد وأولاد الأولاد. بجواره أمها في ثوب أبيض طويل لاتستقيم أبّهته مع طفولة وُجهها - في الوجه عذوبة وبراءة وشيء من قلق- هي أيضاً معلّقة، بين الطفلة والأنثى: الطفلة وجلة تتساءل، والأنثى مقبلة على استحياء. أبوها في السابعة والعشرين وأمها تصغره بسبعة أعوام، تتأملهما شجر الآن بعد سنوات من رحيلهما، تعي، وقد تجاوزت الخمسين أنها تكبرهما بسنوات كثيرة. في ثبات الصورة كان أبويها مجرد لقلين وكانت، لأن الحياة تمضي، أماً لأبويها.

•••

ماذا حدث، لماذا قفزت فجأة من شجر الطفلة إلى شجر في كهولتها؟! أعيد قراءة ما كتبت، أتملاّه، أحدّق في الشاشة المضاءة، أتساءل هل أواصل حكاية شجر الصغيرة أم أعود إلى الجدة القديمة وأتتبع مسار ذرّيتها وصولاً، مرة أخرى، إلى الحفيدة؟ والأطياف، هل أبقيها مهمّشة مُبهمة تحوّم على أطراف النص أم أُدخلها فيه وأُفصّل بعض حكايتها؟ وهل أقتصر على أطياف الجدة أم أفسح المجال لسلالة الأطياف، وهل من نص يحتملها؟! قد تقتضي الحكمة أن أمحو ما كتبت وأبدأ في سرد حكايتي مباشرة. وشجر؟ هل أبقيها وأعلّق الحكاية بيننا أم أُسقطها وأكتفي بالكلام عن رضوى؟ ولكن لماذا جاءتني شجر وأنا أشرع في الكتابة عن نفسي؟ من هي شجر؟!

حركت المؤشرة إلى قائمة الملفّات وضغطت ثم حركتها إلى "إغلق" فاستبدلت بالمسوّدة الشاشة البيضاء. أغلقت الجهاز ودخلت لأنام. نمت نوماً مضطرباً تداخلت فيه أحلام لم أذكر منها سوى وقعها الثقيل. أصبحت مرهقة كأنني في نهاية يوم طويل. وأنا أحتسي قهوتي عدت أتأمل ماذا أفعل بشجر.

شغلت الجهاز وأشّرت على برنامج "كلمات" ثم فتحت ملف شجر. كتبت:

ما بك يا شجر، تجرّين عمرك كبغل هرم، هل تتناسخ

الخيول بغالا؟! وهذه العربة المكدسة الثقيلة كيف كانت تبدو في بداية المطاف؟ حوض فلّ وياسمين أم أن الذاكرة تضفي على الماضي ما لم يكن فيه؟ في الصباح يبدو كل شيء صعبا، ما الذي تخشينه، هل هزمك الخوف أم أخافتك الهزائم؟ أم أن الموت والحياة يتعريان بلا حياء ويتضاجعان على فراشك وأنت بلا حول ولا قوة تراقبين، وتصرخين بلا صوت؟ تقولين هذه كلها أوهام، تسقطينها، تقومين إلى صنبور الماء وفرشاة الأسنان وصباح الخير والقهوة. غبار المعارك لم يتبدد بعد ولكنك إذ تقودين سيارتك فوق الجسر المعلّق تستدرجك التفاصيل: نخلة تحمل عودها باعتداد، غيمة سارحة، مجرى النهر، سائق سيارة يتجاوزك بجلافة فتلعنين والده بصوت مسموع ثم تكتشفين أن صوتك لم يصله لأن نوافذ السيارة محكمة الإغلاق.

(كان المقاتل مات/ جاءه رجل وقال: "لا تمت فأنا أحبك كثيرا!"/ ولكن الجثمان، يا للحسرة، واصل الموت./
جاءه اثنان آخران، قالا له:/ "لا تتركنا! تشجّع! إرجع إلى الحياة!"/ ولكن الجثمان، ياللخسارة، واصل الموت./
ثم جاءه... (كل أحبابه)/ أحاطوا به؛ رآهم الجثمان الحزين، هزّه التأثر / نهض ببطء/ احتضن أول شخص؛ وبدأ يسير.)*

•••

وقّعت شجر واستلمت المظروف البني الذي سبق أن أغلقته وسلمته إلى الكونترول قبل أسبوعين. حملت المظروف. سارت باتجاه اللجنة. نظرت في الساعة: تمام التاسعة إلا سبع دقائق. انتظرت دقيقتين. سلّمت المظروف للمراقب. فضّه. أعطى رزما من ورق الأسئلة للملاحظين. توزعوا مهرولين بين الحجرات والممرات لتسليم الطلاب أوراق الأسئلة. في تمام التاسعة بدأ الامتحان.

منذ تعيّن عليها الاستعانة بالعصا في السير تقبّلت الأمر بهدوء أدهشها، تصالحت مع المشكلة؟ ماالمشكلة في أن تصاب في ساقها فتضطر وهي في الخمسين إلى السير على عصا؟! ركضت طويلا وكثيرا فما الضرر في أن تدخل عقدها السادس تلازمها العصا لتذكّرها أن الطفلة والصبية، وبهاء المرأة في الثلاثين، وفي الأربعين، تغادر جميعها الآن وتترك لها مهمة مواصلة الطريق باتجاه الشيخوخة؟! تنسى وجود العصا. في الامتحان تذكره. تكره دقّاتها على الأرض، تزعج الطلاب، تشتت انتباههم، لا تسمح لها بالاقتراب في هدوء من أحدهم لتلقي نظرة سريعة على كراسة الإجابة وتطمئن خلسة أنه لا ينقل من ورقة خارجية حملها ليغش منها. تصبح العصا جرسا صغيرا منبّها؛ يرفع الطالب رأسه ويتطلع أولا يفعل حياء أو خبثا. تزعج العصا الجالس في أمان الله منهمكا في التفكير في

الإجابة، وتتنبه السـارق الصغير بجهاز إنذارها المبكر.

لم تعد تمشي في اللجان. تدخل اللجنة، تختار لنفسها موقعا يتيح لها مراقبة الطلاب. جندي حراسة يشرف على مباني السجن من أعلى البرج، لا ينقصها سوى بندقية تشرعها في وجه المساجين، يا إلهي، أي دور؟!

انتهى الامتحان. جمع الملاحظون أوراق الاجابة. عادت إلى مكتبها. طلبت القهوة. احتستها. وقّعت بعض الأوراق. ناقشت دارسا في مشروع بحثه. نزلت إلى "الكونترول" لاستلام أوراق الإجابة. أحصت الأوراق واستلمتها: خمسمائة ست وخمسين كراسة إجابة على امتحان مادة التاريخ الحديث للفرقة الرابعة. قام أحد المعيدين بربطها بخيط من الدوبار. حملها الساعي إلى سيارتها. في البيت وضعتها في غرفة المكتب. أغلقت الباب بالمفتاح. غدا تبدأ الطقس السنوي.

في سريرها أغمضت عينيها لتنام ولكنها رأت الأوراق التي صححتها طوال ثلاثين عاما. عشرات الآلاف من كراريس الإجابة ترتفع من حولها أعمدة تسد الفضاء، تترك لها حيّزا صغيرا تجلس فيه. القلم الأحمر في يدها. نظارتها على أرنبة أنفها. الكراسة مفتوحة أمامها تفيض سطور الإجابة عن صفحاتها. فتحت عينيها. فزّت قائمة بجذعها. تربّعت على السرير. ليس صحيحا! هناك دائما طاقة، ضوء، هواء عصفور. لا تُنكري ياشجر، ولم يكن أبدا عصفورا واحدا. دائما تأتيك، دائما تفاجئك تلك الطيور المدهشة، تخرج من بين الأوراق، تحملك معها إلى رحب الفضاء. من يتصل في هذه الساعة المتأخرة

من الليل؟ رفعت سماعة التليفون. "امرأة ناجحة؟... ما شأني بذلك؟... مقوّمات النجاح؟ سيدتي نحن في منتصف الليل!". وضعت السماعة. سحبت سلك التليفون من الفيش.

هل كـــان المكـــان موحشـــا بـــالقدر الـــذى شـــعرت بـــه؟ هـــل كـــانت الوحشـــة تســـرح فـــى ممراتـــه مـــع خطـــى الراهبـــات. لا وقـــع لخطواتـــهن، لاصـــوت. أتطلـــع، أتـــابع حركـــة أجســـادهن وقبّعاتـــــهن: غطـــاء رأس قماشـــى أبيـــض منشّـــى تمتـــد حوافـــه فـــى شـــكل غـــير مفـــهوم، متصلّـــب، هـــو حـــواف القبعـــة. المســـبحة والصليـــب يتدليـــان من نطاق الخصـــر علـــى طيّـــات ثـــوب أبيـــض أو بنـــىّ يســـتر الجســـد كلّـــه ويـــترك لـــزوج مـــن الجـــوارب الســـميكة وحـــذاء جلـــدى واطـــئ مشدود بالأربطة مهمـــة ســـتر القدميـــن.

اصطحبنـــى أبـــى الـــى المدرســـة، أذكـــر ذلـــك، وأيضـــا ملابـــس الراهبات، وخوفى، وذلـــك البلـــل وأنـــا منكمشـــة فـــى مقعـــد خلفـــى فـــى ســـيارة المدرســـة. تتوقـــف لتُـــنزل تلميـــذة أمـــام بيتـــها ثـــم تســـتأنف طريقـــها لتتوقـــف مـــرة أخـــرى لتُـــنزل تلميـــذة أخـــرى، وأنـــا موزعـــة بيـــن رغبـــة فـــى الوصـــول الـــى البيـــت والاســـتكانة الـــــى المقعـــد المشمس بديلا عن القيـــام بثـــوب مبلّـــل أقطـــع بـــه الطريـــق إلـــى بـــاب

السيارة أمام باقى التلميذات والمشرفة والسائق.

قالت الراهبة: "لابد أن تأكلى!" "لا أريد". حدجتنى بنظرة صارمة وكررت الأمر. مددت يدى إلى الطعام. البنات يجلسن على دكّتين خشبيتين متقابلتين على جانبى مائدة مستطيلة تتجاور عليها الصحون، لكل طفلة صحنها. رفعت المعلقة الى فمى. مضغت. ابتلعت. مرة أخرى أعدت الكرّة. فى المرة الثالثة إندفع الطعام من جوفى على المائدة وملابسى والأرض.

حين عدت الى البيت قلت إننى لن أعود الى المدرسة.

فى العام الدراسى التالى اصطحبنى أبى الى مدرسة أخرى. لم تكن مدرسة راهبات. مدرسة فرنسية إسمها مكتوب بحروف لاتينية كبيرة على جانبى السيارة، تحملنى من البيت فى صباحات الشتاء نصف المعتمة وتعيدنى وشمس العصر تنفذ من زجاج النوافذ المغلقة. المشرفة ذات الشعر الأبيض القصير جدا، طويلة ونحيفة وصارمة ولها إسم غريب. مدموازيل ريه لا تسمح بالكلام فيؤجل الصغار صخبهم ويستكينون لإنهاك يومهم المدرسى الطويل ولدفء شمس الشتاء وهزهزة السيارة. تتوقف فيقوم الطفل من خدره كأنه كان نائما ويقول وهو ينزل من السيارة جملتين بلغتين، الأولى بالفرنسية: "أو رفوار مدموازيل" تتلوها بالعربية: "مع السلامة يا أسطى".

صورة الأول الإبتدائى: أربعة صفوف، أولاد وبنات بين الخامسة والسادسة فى الزى المدرسى الموحد. رضوى فى

أقصى يسار الصف الأخير، شعرها قصير، وجهها شاحب، يبدو شاحبا، تتطلع. لا ملاحة الوجه وذكاء العينين يظهران هنا بل نظرة مبعثرة ومسحة من الخوف.

لم يطل الأمر على ما يبدو فالصغار يكيّفون عالمهم، غالبا، ويتكيفون أيضا. فى الثامنة، فى التاسعة، وفى الحادية عشرة تجلس رضوى متربّعة على الأرض فى الصف الأول أو تجلس على الدكّة الخشبية فى الصف الثانى. تضحك حتى وهى لاتضحك. التماع العينين، ميل طفيف فى الرأس أو الجذع، إنحراف يكاد لا يُرى فى طريقة الجلوس تفضح الهدوء المدّعى للصغيرة التى ربّعت ذراعيها على صدرها واكتفت بابتسامة رزينة مناسبة للمقام. فى الفصل، خارج الصورة، تثرثر، تضحك بصوت عال، تشاكس زميلة لها، تعاقبها المدرّسة بصفر سوف تسجّله فى تقريرها الشهرى وتؤكده بحلقة حمراء.

أهم ما فى المدرسة ملعبها الشاسع. تضيع فيه ضحكاتنا مهما علت. نركض بلا رادع فلا نصطدم بمكتب المدرّسة أو اللوح الأسود أو حقيبة زميلة من الزميلات. نغادر الملعب للدخول إلى الفصل فيبدو هذا مؤسفا ثم نغادره مرة أخرى لركوب سيارات المدرسة للعودة إلى منازلنا فلا يكون هذا مؤسفا بنفس القدر لأن هناك ما ينتظرنا وننتظره. نحصى ما معنا من قروش ونستعد.

نركب الأتوبيس ونستقر على مقاعدنا فتقف المشرفة وتشرع

سبابتها وتحصى الطالبات وحين تتأكد من عدم تخلف أى منهن تغلق الباب وتقول للسائق بلكنة واضحة: "يلاّ يا أسطى". تخرج الأتوبيسات متتابعة وفى بطء يمليه عددها وازدحام الشارع الجانبى الذى يفتح عليه الباب الخلفى للمدرسة. هنا يقف بائع التفاح المغلّف بطبقة من السكر الأحمر المعقود، ينادى على بضاعته بالفرنسية: "لى بوم، لى بوم". من نافذة الأتوبيس نمد أيدينا بالقروش ويمد البائع لنا يده بالحلوى. التفاحة مثبّتة فى عود خشبى تمسكه كل منا كما تمسك المصاصة وتروح تلعقها ببطء قبل ان تقضم.

لايوازى متعة تفاح الثالثة ظهرا إلا الكهف المستقر بطول سنوات الدراسة فى أقصى الجانب الأيسر من الملعب. يقع فى الطابق الأرضى. له باب خلفى من داخل المبنى ومنفذ يطل على الملعب. أمام الباب الخلفى يصطف أولياء الأمر بعد دفع المصروفات فى أول العام الدراسى. أقف بجوار أبى، ننتظر. أخيرا نصل الى عارضة خشبية تفصل بيننا والعاملات فى الداخل. يقدم أبى وصل المصروفات فتأتى السيدة بصفّة كتب وكراسات جديدة. تعيد لنا الوصل مختوما بخاتم المكتبة. يحمل أبى الكتب وأحمل الحقيبة- الفارغة حتى الآن، وما إن نصعد إلى الطابق الأول حتى ننتحى جانبا لنحشوها بالكتب. أحمل الحقيبة على ظهرى فلا يحول ثقلها دون أن أمشى متقافزة. فى البيت أتصفح الكتب. أدسّ أنفى بين صفحاتها. أستنشق رائحة

ورقها. أمر بكفى على سطحه المصقول. اتأمل الصور والكتابة.

فى سنوات لاحقة سوف أقف أمام الشباك ذى القضبان الحديدية الذى يطل على الملعب، انتظر أن تلبّى البائعة طلبى: كتاب أو كراسة. أتملّى المتاح لعينىّ من المكان الذى لا أرى منه سوى جانب واحد من الكتب المصففة بعناية فوق بعضها. لم يتح لى أبدا ولا سمعت أن غيرى من طلاب وطالبات المدرسة أتيح له أن يتجاوز القضبان الحديدية لمنفذه من ناحية الملعب ولا العارضة الخشبية لبابه المفضى على الطابق الأرضى للمبنى. لم يكن سوى مستودع لبيع الكتب المدرسية ولكنه كان محاطًا بسحر ما، وبغموض وجاذبية الأماكن نصف المعتمة، نمد يدنا لأننا لا نملك سوى أن نفعل رغم معرفتنا أن اليد لن تصل وأن الملامسة مستحيلة.

عام ١٩٥٦ تغيرت الإدارة. أُمّمت المدرسة. أصبح لها إسم عربى إستبدل بالإسم الفرنسى على الكراريس والشهادات وباب المدرسة وسياراتها، يُكتب بخط بارز وتحته بين قوسين وبخط أصغر الإسم الفرنسى القديم. لم نعد ندرس تاريخ فرنسا ولاجغرافيتها، جاء أساتذة مصريون لتعليمنا هاتين المادتين، مضافا إليهما مادة جديدة إسمها التربية الوطنية، باللغة العربية. رحل بعض الأساتذة الأجانب. لم يرحل أستاذ الرياضيات. بقى ليواصل ازدراءه لنا بمناسبة ومن غير مناسبة. يوبّخنا فيكتسى

وجهه بعلامات القرف كأننا ذبابة سقطت في حسائه فملأته تقززا، وغيظا أيضا، لأنها أفسدت عليه طعامه. تبلغنا رسالته عبر كلماته أو نظراته أو إشارات اليدين، دائما نفس الرسالة: لا نفع، لا رجاء، الأفق مغلق تماما سوى فك الخط، وقراءة الطالع في الزاوية المهملة من الجريدة لقطع الوقت حتى يعود الزوج من عمله اليومي.

مدام ميشيل أيضا، لم ترحل. علّمتنا اللغة الفرنسية طوال أربع سنوات إنتقلنا فيها معها من فرقة إلى فرقة حتى بدا لنا أنها كالقدر في التراجيديات الكلاسيكية التي ندرسها، لا راد له ولا فكاك منه. كانت أقرب لشخصية في مسرحية كوميدية: خمسينية، كبيرة الأنف، صغيرة العينين، يغطي الثلث الأعلى من جبينها قصّة ملفوفة كالأنبوب، تحرص على لمسها من حين لآخر للتأكد من تماسك قوامها. ترتفع اليد إلى الشعر حينا وفي الفضاء حينا- في الحالة الثانية تقترن بحركة مفاجئة من الرأس- مبالغ فيها دائما- نترجمها أنها غاضبة أو مخذولة أو ستسقط مغشيا عليها من هول إجابة خاطئة. يدق الجرس معلنا انتهاء الحصة، تتجه مدام ميشيل إلى مرآتها- تعلّقها في جانب من الفصل- تلقي نظرة سريعة على وجهها، تتحسس غرّتها الأنبوبية، تخرج علبة بودرة من حقيبتها وبحركة عصبية خاطفة تحرك البدارة في خبطات متقطعة على بشرة الوجه وعلى الأنف تحديدا. تغلق العلبة، تعيدها إلى حقيبتها، تجمع

أوراقها من على المكتب وتغادرعلى عجل فيتحرك كتفاها يمينا ويسارا بتكرار إلى سريع. نتابع حركة كتفيها. لا نضحك. نتنفّس.

طلبت منا مدام ميشيل كتابة موضوع إنشائي يصور فيه كل منا نفسه قالت: "أوتو بورتريه". كتبت: عن النيل وبيتنا وأمي وأبي وإخوتي. قلت: أحب الشيكولاتة والمانجة ورائحة الكتب الجديدة وركوب الدرّاجة والقصص. ختمت موضوع الإنشاء بالحديث عن أدائي المدرسي. قلت إنني متفوقة في دراستي وذكية بما يكفي، وإن الدكتور بابازيان الطبيب الأرمني الذي يعالج لي أسناني يقول: "أنت يا رضوى طفلة نابهة وسيكون لك مستقبل في العمل الذي تختارينه".

جمعت مدام ميشيل الكراريس. بعد أسبوع أعادتها. فتحت كراستي فإذا بالدرجة إثنين على عشرة. قبل أن أستجمع شجاعتي للاستفسارعن سبب الدرجة، نادت مدام ميشيل: "مدموازيل عاشور" وقفت. قالت: "إقرأي الفقرة الأخيرة من الموضوع الذي كتبتِه!" قرأت بشيء من التلعثم. ما الذي حدث؟ ما الذي أغضبها إلى هذا الحد؟ لماذا السخرية والاستهزاء من عبارة: "أعتقد أنني ذكية بما يكفي"؟ قالت: "طبعا ذكية بما يكفي لكتابة إنشاء رديء ينّم عن الغرور والغباء، ويكتمل سوءه بخمسة أخطاء هجائية. في الموضوع خمسة أخطاء هجائية!" هل من اللائق أن أقول شيئا، بدا لي أن التهذيب يقتضي ذلك،

إجتهدت: "أنا آسفة على أخطاء الهجاء. تصورت أنني أعرف هجاء الكلمات التي كتبتها خطأ، لو كان عندي شك لرجعت إلى القاموس، لم أتعمد الإهمال. ولأن الفرنسية ليست لغتي..." قاطعتني: " سنقرأ في مسرحية "السيد" لكورناي. إفتحوا الكتاب." نسى خمس من الطالبات إحضار الكتاب، ولسوء الحظ، كنت من بينهن. جاء التوبيخ الجماعي في الأول: "إن شاء الله... إن شاء الله! هكذا كانت الحياة بالنسبة لكُنّ وهكذا تستمر، إهمال وبلادة وفوضى!" لم يكن في العبارات ولا في نبرة الأزدراء الساخر جديد. الجديد جاء فيما خصتني به من تقريع: "مدموازيل عاشور لا رجاء منك. سأسقطك من حسابي كأنك غير موجودة!". أشاحت بوجهها بحركة تمثيلية.

لم تسقطني من حسابها: في الأسبوع التالي طلبت من مدرسة اللغة العربية أن أذهب إلى دورة المياه، سمحت لي. ذهبت. عدت. مدام ميشيل تقف بالقرب من الباب في انتظار الجرس الذي ينهي حصة العربي ويبدأ حصة الفرنسي. سألتني، قلت: "كنت أشرب!" لم تعلّق. دق الجرس. انصرفت مدرسة اللغة العربية. دخلت مدام ميشيل. بدأت الدرس بمحاضرة عن استخفافنا بمدرّسي اللغة العربية والتسيب الذي يسود الفصل في حضورهم. بدد التوبيخ الجماعي توجسي، "مرّت بسلام" سيقتصر كلام مدام ميشيل على تلك المحاضرة المكررة التي نعرف أنها بلا معنى. بدأت شرح الدرس ثم فجأة نظرت في

اتجاهي: "مدموازيل عاشور إذهبي لتشربي!" بوغت. غادرت مقعدي. ذهبت إلى دورة المياه. فتحت صنبور الماء وشربت. عدت الى الفصل. بعد دقائق نادتني مرة ثانية. أشّرت بيدها في اتجاه الباب وعززت الإشارة بتحريك رأسها في نفس الإتجاه: "قومي اشربي" لم أقم مباشرة ة هذه المرة، غلبني الارتباك. كررت الأمر بلهجة شرسة فقصدت صنبور الماء. وقفت بجواره أبكي. مسحت دموعي. غسلت وجهي. عدت إلى الفصل. جلست منكمشة لا أتمنى سوى أن تنسى مدام ميشيل أنني موجودة في الفصل أو في هذه الدنيا. ولكن عينيها عادتا تحدقان في وتأمران للمرة الثالثة أن أقوم لأشرب. هل هدأت المربية الفرنسية وارتاحت أخيرا حين انسالت دموعي أم تأكدت من إنجاز مهمتها حين رأت بوضوح أثر انتصارها الساحق في وجه الطفلة المفزوع والفاقد لكل اتجاه؟! واصلت الدرس.

مدام ميشيل لا تحبني ربما لأنني أيضا لاأحبها، أقول لنفسي. لا تحب فاطمة ولا نبيلة ولا سهام ولا سهى ولا زينب. لماذا؟ تحب مدام ميشيل فرنسواز، وتصبح عذبة وهادئة حين تتعامل مع جانين وميراى وجوسلين. مع إنغريد زيغل تكون متوترة أحيانا وأحيانا لا تكون. حين تغيبْ إنجريد تسبّ مدام ميشيل الألمان وتسخر منهم ولكنها لا تفعل ذلك في وجودها. وهي أكثر صبرا وأقل حدة مع ميراى كوهين ورنيه ليشع ومادلين أبو العافيه ومادلين مزراحي وفرتونيه صالح. أستاذ الرسم

يحبهم أكثر منا. اختار رنيه لتلعب دور الاميرة الشرقية في حفل عيد الميلاد. انهمكنا في تزيين شجرة العيد وصنع نموذج صغير للمذود الذي ولد فيه المسيح. أحطناه بالقش ووضعنا فيه تماثيل صغيرة. تحلقنا حول أستاذ الرسم وهو يعد رنيه لدورها. يضع مسحوقا ورديا على البشرة، لمسة من الأحمر على الوجنتين، أسود للعينين وأحمر لتحديد الشفتين، صفف شعرها. تراجع خطوتين، تطلّع إلى وجهها متفحّصا وابتسم.

قالت إنجريد: "ثوبي غير مناسب. هل يمكن أن استعير ثوب رضوى؟" كانت تتوجه بالكلام إلى الأستاذ. نظر إلي، قال: "ثوبك جميل، هل يمكن أن تعيريه لإنجريد لنصف ساعة لتؤدي رقصتها؟" لم ترقني الفكرة. قلت: "طبعا لا أمانع".

استبدلت بثوبي ملابس إنجريد وجلست أتابع المشهد التمثيلي. أعقبته إنجريد برقصة صرت أتعرف عليها لاحقا حين يعرض التلفزيون رقصات شعبية من شرق أوربا. تقرفص على الأرض، تحرك ساقيها بالتبادل في مهارة وسرعة، تقدم ساقا ثم تؤخرها وهي تقدم الأخرى وتعيد الأمر مرات عديدة. تتوقف. تلف على قدم واحدة وهي مقرفصة. تقفز واقفة. تقفز وتنكب وتقرفص من جديد وتبدأ في تحريك ساقيها. تابعت الرقصة موزّعة بين إعجابي بمهارة إنجريد وانتباهي الشديد لذيل الثوب المزين بشريط من الفراء الأبيض وهو يمسح الأرض مسحا كلما قرفصت إنجريد ودارت وحركت ساقيها.

لم تفسد واقعة الثوب علاقتي بإنجريد التي بدأت واستمرت في سياق من الود يختلف عن سياق العلاقة برنيه وأختها

ومادلين وايرين، ربما بسبب التعالي الذي أستشعره في سلوكهن، وربما للسخرية المبطنة والاستخفاف والتغامز حين يتحدث أستاذ التربية الوطنية أو أستاذ اللغة العربية عن العدوان الثلاثي أو ثورة الجزائر أو عبد الناصر. جابي تختلف، لا شيء يستفز في سلوكها، طيبة وعذبة في تعاملها. والبنت الأخرى أيضا، لم أعد أذكر اسمها، كانت وديعة. دقيقة الملامح، صغيرة الحجم، همست في أذني: "رضوى هل تقبلين وضع إسمك على بيان يستنكر إعدام جميلة بوحريد؟" قرأت المكتوب. أعدته إليها. قالت: "توافقين على ما جاء فيه؟" "أوافق طبعا لكن ما جدوى رسالة من هذا النوع؟ سوف يعدمها الفرنسيون على أي حال!" قالت: "أهلي يقولون إن بالإمكان وقف إعدامها". وقّعت. كنت مندهشة إلى حد عدم التصديق: معنى البيان، قيمة توقيعه، وسلوك هذه البنت اليهودية الصغيرة المختلف عن سلوك معظم الطالبات اليهوديات.

ذات صباح جاءنا ثلاثة موظفين من وزارة التربية مروا على كل طالبات الفصل في يد كُل منهم قلم أحمر ومقص. (كانت المدرسة أكدت علينا في اليوم السابق أن نحضر مسرحية "البخيل" لموليير وكتاب "الحضارات القديمة" المقررين علينا). ما الذي يفعلونه؟ كان علي أن أنتظر حتى أجد الرد. مال رجل منهم علي، سوّد عبارة وردت في المسرحية، سوّدها تماما؛ ثم أمسك بالملزمة الخاصة بفصل الحضارة العبرانية

وقصّها. ولا أعرف حتى الآن إن كان مؤلف ذلك الكتاب الفرنسى ربط بين الحضارة العبرانية القديمة ودولة إسرائيل المعاصرة أم لم يربط. ظلت الإجابة غائبة كالصفحات المنزوعة من الكتاب.

فى الثالثة عشرة أبدو وسط بنات الصف متسائلة مرتبكة، كأنى خائفة أو على مفترق طريق يتفرع أمامى ولا أدرى أيها يقود إلى أين. فى الحكايات هناك دائما سكتان، واحدة للسلامة والأخرى للندامة، والغولة التى يتوجب على الشطّار تجاوزها بالحيلة والمراوغة. لا أدرى ما الذى أريده أصلا لكى أختار سكة من بين السكك. تعددت المراجع وتشابكت الخيوط وبدا أنها تزداد كل يوم تعقّدا وأنا بعد لا أعى محتوى للسلامة ولا للندامة.

وقف وراء المكتب وابتسم قبل أن ينطق بأى كلام، ولعله كسب الجولة منذ تلك اللحظة. بدت الابتسامة مدهشة لجميع بنات الفرقة السادسة، جَلَسْن بلا حراك يكدن يحبسن أنفاسهن فى انتظار ما يقوله ذلك الشاب الذى تكذّب ابتسامته وسامته وصغر سنه أنه أستاذ سيأمر وينهى ويوبّخ على إجابة خاطئة، ويعطى صفرا يُسَجل فى الشهادة، ويتسبب فى تقريع الأهل وتلقى صنوفا من العقاب. باستثناء أستاذين كانت المدرسات يقمن بالتعليم. الأستاذ يونان أستاذ الرياضيات خمسينىّ صارم السحنة. الأستاذ محمود أستاذ اللغة العربية، يسخرن من بدلته "الشارك سكين" البيضاء اللامعة وحمالات بنطاله حمراء اللون، حتى شعره الأسود الأملس كالحرير لم يثر إعجابهن إذ كان ما يثبته به من دهون يجعله زيتيا لامعا يثير التهكّم.

لم يكن نصيب البنات من الدهشة فى ذلك اليوم من أيام أكتوبر عام ١٩٥٨ نفد بعد. القاعدة المستتبة تقول أن التلميذة تسأل فيجيب الأستاذ، أو يسأل الأستاذ فتقدم التلميذة إجابة يحكم

الأستاذ عليها: يهز رأسه لأسفل مرة أو مرتين، حركة قد يعززها بكلمة صح أو يرتد رأسه مقطّبا كأنه أصيب برصاصة غادرة فتندفع يده بسبابة تشير إلى التلميذة المتهمة بالإجابة الخاطئة.

كسر الأستاذ القاعدة.استغربن وربما توجسن في انتظار أن يتضح لهن كيف تكون القاعدة البديلة أوكيف يسلكن، وعلى أي اساس، إن سقطت القواعد.

سأل الأستاذ عن معنى كلمة تاريخ واستمع إليهن جميعا، كان عددهن ثلاثين تتراوح أعمارهن بين الحادية عشرة والثالثة عشرة. لم يتحدث إلا في الدقائق الخمس الأخيرة من الحصة. قال: سمعتن إجابات بعضكن البعض والواجب الذي أطلبه منكن للدرس القادم أن تفكرن في السؤال، وتستعن بما سمعتن من إجابات. يمكن الاستفادة مما قيل اليوم، يمكن سؤال الأهل، يمكن البحث في كتاب أو قاموس. في الدرس القادم سأسمع من كل واحدة منكن الإجابة القديمة والإجابة الجديدة ، قد تكون نفس الإجابة وقد تكون، بعد السؤال والبحث، تعدلت. إلى اللقاء. ابتسم، قال: بالمناسبة إسمي فوزي.

لا حيّز للغناء، لا حيّز للضحك، لا حيّز للركض أو للتقافز كحبات الذرة المعرّضة للنار. بدت الحصص التالية عبئا لا يحتمل. دق الجرس معلنا نهاية الدروس والأسر فانطلقن ركضا على السلالم. تتعجل شجر الوصول إلى البيت لتحكي لأهلها عن

الأستاذ، ولتسألهم عن معنى كلمة تاريخ ولتفكر - كيف يكون الواجب تفكيرا؟ الواجب المألوف حل مسائل حساب تسبب وجع الرأس أو نص طويل ومُمّل تطلب المدرسة نسخه مرتين وأحيانا ثلاثا، كتابة مضنية تترك على أعلى الإصبع الوسطى من اليد اليمنى ذلك الانتفاخ الملتهب المُلوّث بشيء من الحبر غالبا ويتحول مع مرور الوقت إلى نتوء متحجر يشهد على كم الواجبات التي حملت الأصابع عبء كتابتها. كسر الأستاذ القاعدة، قال: إسألوا وفكروا. لعبة جديدة مدهشة ومثيرة ولكن كيف يكون التفكير القائم بذاته، المنفصل عن حل مسألة حساب تحدق في أرقامها وهي تمسك بالقلم وتسارع إلى تسجيل ما هداها عقلها إليه قبل ضياعه؟

بنات الصف السادس وقعن في حب أستاذ التاريخ ببراءة تليق بصبايا يغادرن طفولتهن دون وعي، ويدخلن دون وعي أيضا إلى عالم المراهقة. منهن من انشغلت بعينيه الخضراوين، ومنهن من كتبت قصيدة عن عينيه الزرقاوين (تسبب الخلاف على لون العينين إلى انقسام الفصل إلى فريقين يؤكد كل فريق منهما ما ينكره الآخر بحسم ويقين)، ومنهن من تراه.في أحلام اليقظة أو المنام. أحاطته شجر بهالة من القداسة، لا تشير إليه أو تتحدث عنه إلا وظننت أن موضوع الحديث ملاك أو مخلوق نوراني توفّر بمعجزة تفوق السابق من المعجزات فنزل من السماء، ليس إلى البرّية أو قمة جبل أو سفح وادي، ولكن

مباشرة إلى قاعة درس بنات الفرقة السادسة فجمدهن على مقاعدهن كتماثيل حجرية لها قلوب تضخ الدماء فيها بنشاط استثنائي فتضطرم كأجساد حية وتشف وتتورد وهي ساكنة كالرخام.

درّس لها فوزى كامل شهرين ونصف ثم تغيب أسبوعا. جاءت عطلة نصف السنة ولما استؤنفت الدراسة في الأسبوع الثالث من يناير ١٩٥٩ جاء أستاذ آخر لتدريس مادة التاريخ.

أين ذهب الأستاذ فوزى؟ لا أحد من المدرسين أو المشرفين أو السعاة أجاب على السؤال؟ أين يسكن؟ هل لديه تليفون؟ صمت مطبق استجابت له شجر بغضب وتوتر وتمرد على الأساتذة والدروس وأهلها كأنهم جميعا يتواطأون ضدها. مات؟ عندما مات زوج مدرسة العلوم أخبرهم مدرّس اللغة العربية بذلك وقال: "عليكن مراعاتها بالهدوء وحسن السلوك". بعدها جاءت المدرّسة في ملابس سوداء. كان الموت واضحا، مُعلنا. اختفاء الأستاذ فوزى يلفه الغموض كأنه حدث في قصة بوليسية، ولكنها لا تستطيع القفز إلى الصفحات الأخيرة لتعرف كيف اختفى ومن المسئول، وما الأسباب فتستعيده حيا أو ميتا. هل ترك المدرسة؟ هل طردوه منها؟ لماذا؟ ولما لم يقل لهم أحد ذلك؟

عند نهاية العام الدراسى بدا لشجر أن الأستاذ فوزى ضاع كما يضيع خاتم ثمين من الانسان دون أن يعرف إن كان سقط منه أوسُرق فلا يبقى له سوى

التسليم بضياعه والاحتفاظ بمرارة جماله وفقده معا. في العام الدراسى التالى وكانت تثرثر مع زميلة لها في جانب من الفناء. همست زميلتها:

- أعرف أين ذهب الأستاذ فوزى!

- مات؟

- لا، اعتقل! أخى أخبرنى أنهم أول العام الماضى اعتقلوا عددا كبيرا من الناس، منهم رجال ومنهم نساء.

- يعنى مسجون؟

- مسجونين.

- لماذا؟

- لأنهم شيوعيون؟

- يعنى إيه؟

- لهم نشاط في السياسة ضد الحكومة.

- ومن قال لك إن الأستاذ فوزى معهم؟

- لأن أخى ذكر اسمه وقال: "أظن أنه أعتقل"

- يظن أم متأكد؟

- قال إنه يعرفه ويظن أنه أعتقل

- اسأليه لنتأكد. ولكن ما معنى شيوعى؟

- قلت لك: سياسة ضد الحكومة؟

- ضد جمال عبد الناصر؟

أومأت برأسها.

- متأكدة إنهم ضد جمال عبد الناصر؟

- هل كان يضعهم فى السجن لو كانوا معه؟!

فى البيت سألت شجر عن معنى كلمة شيوعى. أمها لم تعرف. جدها عبد الغفار قال: إنهم أتباع سيدنا على. حرك أبوها رأسه لأعلى وهو يشيح بيده وانتقل إلى الحديث فى موضوع آخر كأنه قدم لها الإجابة الوافية. عادت لسؤال زميلتها، لم يكن لديها سوى ما قالته فى السابق.

- إسألى؟

- سألت وما فهمته من أختى نقلته لك!

- هل بإمكانك الحصول على عنوان الأستاذ فوزى؟

- صعب!

- حاولى!

بعد أسبوعين دست زميلتها فى يدها ورقة وهمست فى أذنها: "العنوان" . لم تركب شجر، ساعة العودة، سيارة المدرسة. خرجت خلسة مع البنات اللائى يذهبن إلى بيوتهن وحدهن. ركبت سيارة أجرة، أعطته العنوان. العبّاسية. أنزلها السائق أمام بناية من خمسة أدوار. صعدت. تأكدت من رقم الشقة. ضغطت على الجرس. فتحت لها سيدة متوسطة العمر.

- إسمى شجر محمد عبد الغفار وأنا تلميذة الأستاذ فوزى وجئت لأسأل عنه.

ترددت المرأة لدقيقة ثم قادتها إلى حجرة جلوس فسيحة مؤثثة بشكل لطيف.

- للأسف فوزى ليس هنا.

- أعرف.

- ماذا تعرفين؟

- أعرف أنه فى السجن.

- هل قالوا لكم ذلك فى المدرسة؟

- لم يقل لنا أحد شيئا.

قامت ثم عادت تحمل كوبا من العصير.

- صحيح الأستاذ فوزى شيوعى؟

تطلعت المرأة إليها، لم تقل شيئا ثم بعد لحظات من الصمت قالت:

- لا أعرف.

بدت منزعجة. سألت شجر كيف عرفت العنوان. أجابتها.

- حضرتك والدة الأستاذ فوزى؟

- نعم

- ما معنى شيوعى؟

قامت السيدة ومدت يدها:

- شكرا على السؤال. مع السلامة.

ضربها أبوها. سبّها: "بنت شوارع؟! لم تجدى من يربيك ويهذبك؟! تدورين على بيوت الخلق تسأليهم عن ابنهم الشاب!!" لم تغفر له أعتبار الأستاذ فوزى مجرد شاب وسؤالها عنه تجاوز أخلاقى. ألقى بمحبرة على ملاكها النورانى، ووقفت

أمها وست جلشن وجدها عبد الغفار يراقبون الأمر دون أن ينطق أى منهم بكلمة.

الصغار لأنهم صغار يرون الأشياء كبيرة، تتخذ فى عيونهم أحجاما وأبعادا تناسب سنهم وذلك الحيز الذى تحتله أجسامهم بين أجسام تفوقهم ثقلا وطولا وعرضا. الشخص الأطول هو الأكبر، والعم أو الخال الذى بلغ الثلاثين تقدم العمر به حتى يصعب استيعاب معنى هذه "الثلاثين" فى سياق الأصابع الخمسة أو حتى العشرة التى سيشرعها الطفل منقصا منها ما ينقص لتحديد سنوات عمره. أما الجد أو الجدة فتلك حكاية أخرى يختلط فيها الواقع بالخيال، والملموس بالمبهم لأن ما يقولونه من حكايات الماضى يضعهم بين عالمين، قدم هنا وأخرى هناك، وهذه الهناك المعتمة تمتد إلى ماض يعلم الله وحده أين يبدأ أو ينتهى.

بدا أننى أمهد نفسى لرؤية المدرسة. المدرسة المترامية فى الخيال سوف تصطدم الآن بحجارة مبنى فعلى، يعلو بقدر، ويمتد بقدر، فى شارع بعينه من شوارع القاهرة. لم أجد مكانا أترك فيه سيارتى. درت حول المنطقة مرتين ثم سألت شخصا

عابرا فقال بإمكانك ترك السيارة فى موقف البستان، ودلّنى على الطريق.

كان بإمكانى قطع شارع التحرير ثم السير إلى شارع محمد محمود ولكنى فضلت أن أتجه إلى المدرسة من ميدان التحرير. لم يكن ذلك منطقيا تماما وإن لم يخل من منطق. أردت أن أرى أولا الباب الصغير المخصص لأطفال الحضانة. هناك منطق أن نبدأ من البداية!

لا بد أن أبى اصطحبنى عبر هذا الباب فى أول أيام الدراسة. أذكر أننى بعد انتهاء اليوم الدراسى وقفت أنتظر أن ينادوا اسمى فأتوجه إلى صف مُعيّن يقف فيه من يركبون نفس الأتوبيس. على صدرى، فوق المريلة، مستطيل قماشى وردى اللون، ثبتته لى المدرّسة بأربعة مشابك، مشبك فى كل زاوية. اللوحة القماشية تحمل إسمى وعنوان البيت ورقم التليفون. ساعتها بدا لى الأمر غريبا وتحدد إحساسى عندما غادرنا الفصل فوجدت كل الصغار المستجدين فى الحضانة يعلقون على صدورهم تلك الرقع الوردية الكبيرة. أتطلع إليها ولا أضحك لأننى أعى أن على صدرى رقعة مماثلة. الأطفال الذين يصاحبهم أهاليهم إلى المدرسة يدخلون من هذا الباب الصغير وأيضا يخرجون منه. أما نحن ركاب سيارات المدرسة فلا نستخدمه لأن السيارات تنزلنا فى الصباح فى جانب من الفناء، وبعد الظهر تنتظر فى نفس المكان الذى نزلنا فيه

فنركبها فتخرج من الباب الخلفى المفضى إلى شارع الشيخ ريحان.

شارع محمد محمود. السيارات كلها تدرج فى اتجاه واحد، إلى ميدان التحرير. المشاة يأتون منه أو يذهبون إليه. لم يكن الشارع مزدحما إلى هذا الحد. الجامعة الأمريكية كانت قائمة ولكنى لا أجد فى الذاكرة أى موقع لها. أمامها كان مقهى أسترا. جلست فيه فى مطلع السبعينيات، بعد تخرجى من الجامعة بخمس سنين، مع شخص أراد تجنيدى للانضمام إلى إحدى التنظيمات اليسارية المستجدة. بدأ حديثه بالسخرية والاستهزاء من كل اليساريين القدامى. لم ينفّرنى النقد (كنت أشاركه فى البعض منه)، نفّرتنى نبرة الاستعلاء. توجّست من الثقة المطلقة فى الذات . قلت لنفسى لو أن الرجل مشروع لينين سأندم على رفضى عرضه.

أزيل مقهى أسترا، متى؟ لا أدرى، حلت محله مفردات ثقافة الكوكاكولا: "مكدونالد" و"بيتسا هت"، و"كنتاكى فرايد تشيكن". الواجهات ملونة بالأحمر الصارخ، والأصفر اللامع، وتقليمة خطوط مائلة بالأحمر والأبيض: العلامة المسجلة للكابتن الأمريكى صاحب الدجاج الذى لا يُعلى عليه.

أعبر الشارع فأجد نفسى أمام الباب الخشبى الصغير "للبتيه ليسيه": المدرسة الصغيرة. لا أتوقف لتأمل خشب الباب والقبة الصغيرة ذات العقود ومشاعرى. أواصل المشى. بعد خطوات،

الباب الأخر المخصص لبنات المدرسة من الصف الأول الابتدائي حتى الثالث الثانوي. خرجنا خلسة من هذا الباب مرتين أو ثلاثا لنشترى حلية للشعر أو دفترا جميلا من محل بدا ساعتها في مجاهل ما بعيدة. يذهلني الآن أن المحل يقع على بعد ناصية واحدة من باب المدرسة! أواصل بلا توقف حتى تقاطع شارع محمد محمود بشارع يوسف الجندى فانحرف يمينا مع سور المدرسة.

لم يكن خيال الطفلة ولا تلاعب الذاكرة: المدرسة كبيرة، كبيرة جدا، تحتل مساحة شاسعة وتطل مبانيها على ثلاث شوارع. فناؤها صحن مكشوف تحوطه جدران المباني. البوابة المفضية إلى الإدارة تقع على شارع يوسف الجندى، في منتصف الحائط الشرقي . أواصل حتى التقاطع وأدخل يمينا إلى شارع الشيخ ريحان. باب "الليسيه دو غارسون": مدرسة الأولاد. باب خشبي ضخم، أكبر من باب مدرسة البنات. نفس نوع الخشب ونفس الطراز. ثم باب المسرح. (كان المسرح الخاص بالمدرسة تقام فيه الحفلات السنوية فتبهرني رقصات الباليه: الوقوف على أطراف الأصابع وليونة الجسد يتمايل أو يتقافز أو يطير، والأثواب الوردية والأضواء والموسيقى). الآن تحول المسرح إلى مسرح تجاري. بوابة كبيرة مشرعة، بوابة الجراج . أعرف أنه يفضي إلى فناء المدرسة. دخلت. استوقفني أحد العاملين. قلت: "كنت أدرس في هذه المدرسة،

فقط أريد أن أطل على الفناء" لم يقبل، قال أن على أن أستأذن الإدارة. خرجت، بعد خطوات وجدت نفسي أمام مدخل قاعة إيوارت بالجامعة الأمريكية. لم أعد إلى شارع يوسف الجندى لأستأذن الإدارة في الدخول إلى المدرسة وتأمل تفاصيلها بعد ما يقرب من أربعين سنة على تركها (درست فيها من أكتوبر ١٩٥١ حتى يونية ١٩٦٠) ثم انتقلت إلى مدرسة أخرى.

لم تدرس شجر في هذه المدرسة. ما الذى أفعله في ذلك الأستاذ الذى اخترعته؟ هل أجعلها تقع في حبه وتنتظر خروجه من المعتقل وأبني العلاقة بينهما وأقدم شخصية دالة على نموذج من نماذج الشيوعيين المصريين؟ سيقول إبنتي، وأنا أتأثر بما يقول، "هذا متوقع، ترسمين أستاذا فتقع البطلة في حبه. ماما جيلكم لا يخلو من الرومانسية، وقدر من الميلو دراما- لا تغضبي- ولأنك يسارية ستجعلين هذا الشاب الجميل يساريا فتحبه البنت وتصبح بدورها يسارية!". (لا أعرف إن كان الحس الساخر والنفور من كل تحليق يؤلمني أم يطمئنني على هذا الجيل الصاعد دون الاتكاء على أوهام). هل أسقط فوزي كامل وأجعل من حضوره في النص مجرد صوت يساعد الصغيرة على الانتباه إلى إمكانية الخروج من الصيغة المهيمنة؟ هل أحتفظ به وأجعل شجر تلتقي به بعد سنين؟ وإن فعلت فكيف يكون فوزي؟! من عرفت من اليساريين الذين قضوا الفترة من ٥٩ إلى ٦٤ في السجن عديدين، يختلفون في

التكوين والقدرات وصفاء العقل؛ منهم الجميل ومنهم المشوّه.

هل أجعله رومانسيا قديما يتطلع إلى شبابه بعين العطف والاستخفاف؟ قديسا احتفظ بنورانيته فبدا خارج الزمان والمكان، قديسا بلا أجنحة له حذاء معفّر وقدمين متعبتين؟ أم يكون شيخا ضائعا فى الزحام أو قائدا حزبيا مبهرا فى قدرته على التكتيك، يناور فيختلط عليه خطاب المعارضة بخطاب الاستئناس أم حالة مأساوية موزّعة بين الصدق والالتباس، ونبل المسعى وارتباك الساعى، وومضات مضيئة وانكفاءات موجعة؟ لما لا أبسّط فأجعل منه مقاتلا بهيّا حتى النهاية أو العكس، أجعله دلّالا حديث النعمة فخورا بالجرس و"ألا أونا وألا دويه وألا تريه"؟!

لن تجعليه على هذا الشكل أوذاك ستفاجأين به يُشكّل نفسه ويفرض عليك مصيره ومساره، أو تكتشفين أنه ذهب، سار مبتعدا وانت منهمكة فى الكتابة، وفجأة إذ تتذكرينه تلتفتين، تبحثين عنه فلا تجدينه. لا قرارات مسبقة فى الكتابة. فى الفصل القادم أعود لشجر وليكن ما يكون. الآن أنا فى شارع الشيخ ريحان على بعد خطوات من المدرسة التى قضيت فيها تسع سنوات من عمرى. تركت هذه المدرسة إلى مدرسة أخرى فى يونية ١٩٦٠. فى ٢٢/٣/ ١٩٦٠ افتتح المبنى الحالى لجامعة الدول العربية، على بعد خطوات من المدرسة، فى ميدان التحرير. فى الذاكرة لاشىء عن ذلك. سيارات

المدرسة تحملنا من بيوتنا إلى المدرسة. تنزلنا داخل الفناء وتأخذنا من داخل الفناء إلى بيوتنا. لا أعرف ميدان التحرير. كيف، ألم أكن أمر عليه يوميا فى طريقى إلى المدرسة؟! كنت أسكن فى المنيل، هل كانت السيارة تأتى من طريق خلفى أو من شارع القصر العينى لتدخل يمينا إلى شارع الشيخ ريحان قبل أمتار معدودة من الميدان؟

على مدى تسع سنين سوف أمر بسيارة المدرسة بالقرب من الميدان أو أقطعه أو أدور حوله وأقضى على بعد خطوات معدودة منه النهار بطوله من الثامنة صباحا حتى الثانية والنصف ظهرا يوميا باستثناء أيام العطلات ولن أعرف شيئا فى الميدان أوعنه. بعد شهور من تخرجى من الجامعة سوف أقرأ رواية الباب المفتوح. مساء ٢١ فبراير ١٩٤٦ زمن المشهد الأول، كتبت لطيفة الزيات: "كانت دور السينما مُضربة وكذلك المحال العامة والأتوبيس والترام. وسيارات البوليس تمر فى الشوارع محملة بجنود مسلحين بالبنادق، والمارة قلائل... يتحدثون". تتعدد الأصوات، تعلق على ما جرى صباحا فى وسط المدينة، تُعلمنا بالتفاصيل: مظاهرة ضد الإنجليز من ٤٠٠٠٠ شخص سقط منهم ٢٣ قتيلا و١٢٢ جريحا. ميدان الاسماعيلية- لاحقا ميدان التحرير- مسرح تلك الأحداث. تكتسب الأماكن فجأة معنى جديدا حين تتعرف على حكاياتها، ربما ليست الحكاية الكاملة ولكن ومضة من الحكاية،

جانبا منها يضيء المكان فجأة فتراه ولم تكن تراه و تدركه، وحين تدركه وتعرفه يملّكك بحق الحيّز الذى يشغله فى عقلك ومخيلتك، باختصار، بحق إسهامه فى تكوينك واستقبالك لهذا الوجود. تماما كبيت الهلباوى وكوبرى عباس. ولكن هذا كلام مؤجل، أنا الآن فى ميدان التحرير. سوف أقرأ عن أحداث ١٩٤٦ وفى عام ١٩٧٢ سوف أنزل الميدان.

صباح ٢٤ يناير ١٩٧٢ سوف أذهب إلى جامعة القاهرة فأجد الجامعة مطوقة بقوات الأمن ولن أتمكن من الدخول إلى الطلاب المعتصمين فى قاعة الاحتفالات الكبرى. وسوف أعلم أن الطلاب تم القبض عليهم فجرا واقتيدوا إلى السجن.

فى المساء سوف أنزل أنا ومُريد إلى ميدان التحرير: الطلاب محتشدون حول النصب الحجرى فى وسط الميدان، مجموعات أخرى تُجرى مناقشات مع المارة حول الأوضاع الاقتصادية والسياسية فى البلد، تشرح أسباب الاعتصام. نتوجه إلى مقهى "إزافيتش". فى المقهى نجد عددا من زملائنا الكتاب ونسمع حديثا عن تشكيل لجنة وطنية للكتاب والفنانين، نطّلع على بيان باسم اللجنة يتضامن مع الطلاب ومطالبهم ويشجب الاعتقالات التى جرت فى الصباح. ننسخ البيان وينسخه سوانا من الزملاء. نتوزع مجموعات صغيرة تحمل كل منها نسخة من البيان لجمع توقيعات الكتاب والفنانين عليه. ننجز مهمتنا ونعود إلى الميدان. قوات الأمن تراقب الطلاب عن بعد وهم

جالسين وواقفين حول النصب التذكارى يهتفون وينشدون. ننتقل إلى نقابة الصحفيين، يجتمع فيها عدد من الكتاب والفنانين والصحفيين. نحصى التوقيعات: مائة وخمس توقيعا هى حصيلة حركتنا بين التاسعة والثانية عشرة ليلا. ما الذى سنفعله بالبيان؟ يستقر الرأى على إرساله إلى كل من رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ورئيس مجلس الشعب. يقع الاختيار على ثلاثة كنت من بينهم. نخرج من النقابة مشيا إلى مكتب البرقيات فى شارع عدلى. يسأل الموظف المسئول عن إسم المرسل نقول: هذه القائمة، نبرز الأسماء المائة وخمسة . يقول لا يجوز. نقول: إذن أسماء ثلاثتنا. يرفض. أبرز بطاقتى، يسجل الموظف البيانات المثبتة عليها ثم يستلم نص البرقيات والأسماء المرفقة. نعود إلى النقابة. أغادر مع مُريد. فى طريقنا إلى المنزل نشاهد الطلاب وقوات الأمن. قبل الفجر تهاجم القوات الطلاب تشتبك معهم وتعتقل العديد منهم وتتعقب من أفلت فى الشوارع المحيطة. فى الصباح يعزّز طلاب جدد الفالتين من الطلاب ويتظاهرون وتجرى مواجهات جديدة مع قوات الشرطة.

للحكاية بقية تخصّ نصيبى من المشهد وتخصّ الحدث فى ذاته لكنى أبتعد الآن عن ميدان التحرير الذى عشت تسع سنوات على بعد خطوات منه دون أن أعرف حكايته فى ٤٦، أما حكايته فى ٧٢ فشاهدتها وشاركت فيها. مظاهرات العمال

فى ٧٥ مرت من الميدان، وكذلك المظاهرات العارمة فى ٧٧ وجنازة أم كلثوم فيما بينهما عام ١٩٧٥. على بعد أمتار قليلة من قلب الميدان مسجد عمر مكرم. من المسجد سوف أمشى مع المشيعين المرة بعد المرة لأودع الأصدقاء والزملاء والأرجح أن أصدقائى وزملائى سوف يودعوننى من نفس هذا المكان. سيودع المشيعون أم كلثوم من مسجد عمر مكرم فأسمع عن ذلك وأراه على شاشة التلفزيون وأنا فى الولايات المتحدة أعد للدكتوراه. ومن هذا المسجد سوف أشيع صديقة العمر لطيفة الزيات. أشارك فى الغسل فى ذلك القبو الكئيب فى مستشفى مصر الدولى. أخرج مع الجثمان ثم نفترق: هى محمولة فى نعشها فى سيارة الراحلين وأنا فى سيارة لم أعد أذكر لونها. هل أتداعى بلا منطق؟ أين شجر من كل ذلك؟ على أن أعود لشجر، على أن أعرف ماالذى أفعله بها. لقد تخرجت من المدرسة الآن ودخلت قسم التاريخ بكلية الآداب جامعة القاهرة. ولو لم تكن شجر شخصية روائية لالتقيت بها أثناء فترة دراستى بجامعة القاهرة فقسم التاريخ الذى درست فيه يقع فى الطابق الثانى من نفس المبنى الذى يشغله قسم اللغة الإنجليزية الذى درست فيه. درسنا فى الفترة من ١٩٦٣ إلى ١٩٦٧. سوف تدخل شجر من بوابة جامعة القاهرة وتنحرف جهة اليمين والنخل العالى- لم يكن شاهخا كما هو الآن- تمر بين المبنى الأساسى لكلية الآداب والمبنى الأصغر الذى يشغله

قسم اللغة الإنجليزية فى الطابق الأول، تصعد إلى الطابق الثانى، تحضر محاضرات التاريخ. تتردد يوميا تقريبا على المكتبة العامة- المبنى المواجه للقسم- تمضى الساعات فى المكتبة، تجلس فى قاعة الاطلاع البحرية أحيانا وفى قاعة الاطلاع القبلية أحيانا، تقلب مطولا فى الفهارس. يألفها العاملون، لا يسأل أحد منهم عن بطاقتها، يعرفونها تمام المعرفة قبل أن تعين فى القسم بسنوات، وقبل أن تتحول من الآنسة شجر إلى الدكتورة شجر.

يقول شكلوفسكى فى مقال نقدى لعله أكثر مقالاته شيوعا، إن التعود يلتهم الأشياء، يتكرر ما نراه فنستجيب له بشكل تلقائى، كأننا لا نراه؛ نقوم بنفس الأعمال بآلية، كأننا لا نقوم بها. لاتستوقفنا التفاصيل المعتادة كما استوقفتنا فى المرة الأولى، نمضى وتمضى، فتمضى بنا الحياة كأنها لا شىء، تذهب سدى.

التعود، وهذا قانون من قوانين الإدراك يقول شكلوفسكى، يلتهم حياة الانسان، "أعماله، أثاث بيته، زوجه، وخوفه من الحرب"، فلماذا لم تتعود شجر على ذلك الشارع الذى ظلت تقطعه كل يوم طوال سنين؟

طالبة مستجدة فى طريقها إلى الجامعة. التمثال، وأشجار الأكاسيا على الجانبين، ثم النصب التذكارى، ومن ورائه مباشرة السور الحديدى وصفّ النخيل وبرج الساعة، والقبة فى الخلفية. المشهد فى البداية. هكذا رأته شجر: مكتف بذاته. تمر عليه لتذهب إلى كليتها، وهى صبية فى السابعة عشرة تمشى كأنها تطير، وهى أستاذة فى الخمسين بيمناها عصا تستعين بها

على السير، وفيما بينهما من مراحل العمر. تتطلع، دائما تتطلع. يزدحم الطريق أو يكاد يخلو من المارة. يكون صيفا أو شتاء، صبحا أومساء، أشجار الأكاسيا تعلن نوّارها البنفسجي والناري أو تتعرى منه، تمشي وحدها أو برفقة أخرين. الطريق هو الطريق: المرأة الحجرية على مداخله، والقبة في الختام. وعندما تغادر وتعبر إلى كوبري الجامعة تعي أن المشهد خلفها، تراه وراء ظهرها.

امتلأ المشهد، ربما كما تمتلئ المرأة بحملها أو بسنوات عمرها أو بمعرفة تصقل مرايا العين، وربما ليس كذلك. في الأسابيع الأولى، بدا المكان بطاقة أخّاذة، لوحة، أدهشها وأسرها أن تدخلها وتصبح من عناصرها. تلك طبعا براءة الصغار، أحلامهم البلهاء التي تحلّق بخفّة وتترك للأقدام أن تتلمس طريقها وهي تقطع الطرقات على مهل فتتعرف ثم تعرف. خذ مثلا ذلك العمود الحجري القائم أمام بوابة الجامعة. (تقتضي الدقة استخدام الجمع فهي أربع بوابات حديدية: اثنتان كبيرتان عاليتان واسعتان تمر السيارات دخولا من إحداها وخروجا من الثانية، أما البشر، طلابا وأساتذة وعاملين فيستخدمون فضلا عن هاتين البوابتين الاثنتين الأصغر الواقعتين على الجانبين. في أيام المظاهرات تغلق جميعا سوى واحدة، البوابة الصغيرة الواقعة على يمين الداخل، يصطف الطلاب أمامها اذ تكون حركة الدخول بطيئة لأن رجال الأمن

يفحصون بطاقات الداخلين، بطاقة بطاقة.) نعود إلى العمود الحجري، للعابر ولشجر أيضا، في أول الأمر، يبدو هذا العمود مجرد عنصر من عناصر المشهد: مسلة جرانيتية صغيرة تنتهي بزهرة أو شعلة: منحوتة تستحضر التاريخ المصري القديم وتكمل أوتحاور جرانيت مختار هناك على أول الطريق. تألفه وقد تحبه قبل أن تعرف، ثم تعرف وتظن أن معرفتك اكتملت لتكتشف بعد عشر سنين، عشرين سنة أو ثلاثين أن الجديد الذي خبرته كبّرك وكبّر المشهد. (لا ليس فقط محمد عزت البيومي، ومحمد عبد المجيد مرسي، وعبد الحكم الجرّاحي وخالد عبد العزيز الوقاد* وذلك الولد الذي لا تعرف إسمه- لابد أن أحدا يعرف إسمه- الولد الذي أطلق عليه النار بالقرب من سور كلية الهندسة وفي اليوم التالي نشرت جريدة الأهرام صورة لسور الكلية ملطخا بدمائه) لماذا نستبق الأحداث؟ لم تر شجر بعد قوات الأمن وهي تطوّق الجامعة، والهراوات، والقنابل المسيلة للدموع والدخان وتدافع الأقدام. لم تر بعد ذلك الريفي الأسمر الفقير صغير السن يقف خارج سور الجامعة في ردائه العسكري ويدخل ماسورة بندقيته من بين قضيبين من قضبان السور، يصوّب بأناة على المتظاهرين كأنه تعلم حرفته في رحلات صيد الوعول برفقة نبيل من نبلاء أوروبا القرون الوسطى. لم تصبها بعد هراوة تترك على أعلى ذراعها الأيمن علامتها الزرقاء. ليس بعد. تلك شجر لاحقا.

شجر الآن فى السابعة عشرة، طالبة مستجدة بقسم التاريخ.

هل صحيح أنها التحقت بالقسم تأثرا بذلك الأستاذ الذى درّسها شهورا ثلاثة؟ يصعب تحديد ذلك لأن أمورا كثيرة تحدث فى أيام قليلة فما بالك بسنوات خمس فى حياة صبية نامية يربطها بالفئران حب الورق، تقرضه على طريقتها. فى مكتبة المدرسة وقعت على كتاب عن الأساطير المصرية القديمة، ومنه انتقلت إلى صف الكتب المجاورة. ثم التحقت بقسم التاريخ.

أغسطس ٦٧. على مائدة الغداء أعلن أبوها الخبر وهو يضحك: "ليسانس بامتياز مع مرتبة الشرف الأولى". لم تضحك، لم تقل شيئا. انسحبت إلى غرفتها.

العام الدراسى ٦٧-٦٨. واصلت شجر تركيزها على دروسها فى السنة التمهيدية للماجستير. تذهب إلى الكلية. تعود من الكلية. تحضر دروسها. تدخل المكتبة. تقرأ. تسوّد بطاقات البحث بالاقتباسات والملحوظات. تقدم البحث المطلوب. تنجز بكفاءة الآلة. روحها؟ انسلتت، انزوت بعيدا. لا تغضب. لا تبكى. لا تتوقف. فى الصحف، فى الاذاعات، على ألسنة الأهل والجيران يتردد كلام كثير عن سيناء وتيه الجنود فى الصحراء، تسمعه. تمضى كأنه لاشئ.

قال أستاذها: لماذا غيرت رأيك؟ أردت دائما التخصص فى التاريخ الفرعونى، ماذا جد؟

لم تقل سوى: " سأدرس التاريخ الحديث، أعتقد أن هذا هو

ما أريده".

لسنوات تالية سوف تشير شجر إلى تلك الانعطافة بعبارة U turn إذ كان التحول كاملا وواضحا كما يحدث عندما تنحرف بسيارتك يسارا فيسارا لتمشى فى الطريق المعاكس.

أتت بثلاثة صناديق من الكرتون. أخذت تنقل الكتب من مكتبتها إلى الصناديق: كتب تاريخ مصر القديم، أساطيرها، معمارها، كتب سليم حسن ذات الأغلفة الكابية التى لا تحمل سوى إسم المؤلف، الكتب الفرنسية والانجليزية ذات الأغلفة المصقولة المزينة بصور متقنة لتفاصيل من نقوش وادى الملوك ووادى الملكات، الكتب التى اشترتها منذ كانت فى الخامسة عشرة والكتب التى صورتها من مكتبة الجامعة ودلها جدها عبد الغفار على صديق قديم له فى الأزهر صنع لها أغلفة قوية رصينة زيتونية اللون. وضعتها جميعا فى الصناديق. تطلعت حولها. لم تنته المهمة بعد. الصور. كانت مجرد نسخ ورقية حملتها إلى محل بوسط المدينة ملفوفة ومربوطة بشريط دقيق. استلمتها بعد أسبوعين: أربع لوحات كبيرة لكل منها إطار وواجهة من زجاج. وجدت صعوبة فى حملها إلى الشارع الرئيسى حيث مر عليها ثلاث سيارات أجرة لم يقبل سائقوها نقلها بحمولتها. أخيرا أتى سائق طيب وافق على توصيلها وساعدها على حمل اللوحات حتى باب الشقة.

فوق سريرها فى مواجهة الداخل من الباب علقت صورة

ماعت سيدة التوازن، ربة الحق والعدل. ماعت تنظر إلى يمينها، حين تجلس شجر إلى مكتبها يمكنها بلفتة صغيرة إلى يسارها أن ترى وجه ماعت ينظر فى اتجاه لا يظهر سوى الجانب الأيسر من وجهها. ريشة النعام عالية مستقيمة، مثبتة بشريط أحمر دقيق مربوط حول أعلى الرأس. فى الخلفية نقش الحروف.

على الحائط الأيسر، وراءها مباشرة حين تجلس إلى مكتبها، لوحتان: فى أولهما نقش إيزيس على خلفية من أزرق سماوى. شعرها حليبى أزرق. تاجها قرص الشمس وقرنا حتحور. وجهها وكتفاها وذراعاها وجزء من تاجها مطلية بلون رملى مُشّح بلون خشب الورد. فى يمناها صولجان الملك. بجوار صورة إزيس صورة للبقرة حتْحور والصبى أمنحتب الثانى. جسد الفرعون الصغير وجسد حتْحور لهما نفس اللون الرملى. شعره والبقع على جسد البقرة: البقع النجوم: أرواح الموتى، لونها أخضر. الفرعون جاث على ركبتيه تحت قوس قوائم البقرة، يرفع رأسه لأعلى، يرضع من ضرعها على خلفية من أزرق صريح. فوق المكتب صورة نوت المرأة السماوية. تلمس الأرض بأطراف أصابع قدميها من ناحية وبأطراف أصابع يديها من الناحية الأخرى. تشكل بساقيها وذراعيها ونهر بدنها المنقوش بالنجوم قوسا محيطا بجسد شقيقها وزوجها. جب يرقد في حضانتها وعلى ظهره ينمو زرعه النابت.

أنزلتها عن الحائط ولفتها بملاءة. ربطتها. أتت ببردية آنى، النسخة التى تضعها دائما على مكتبها، ألقت بها فى الصندوق. طلبت من أمها مساعدتها فى نقل الصناديق ثم أتت بسلم وحملتها واحدا واحدا إلى الصندرة. سألتها أمها عن السبب. غمغمت بكلام غير مفهوم.

عادت إلى حجرتها. تطلعت: لا شىء الآن سوى أرفف عليها بعض القواميس ومكتبة صغيرة خاوية والمكتب والسرير والتسريحة. بدت الغرفة عارية، مقفرة وباردة. أطفأت النور. استلقت على سريرها. راحت فى النوم.

بطاقة ملونة بحجم الكف مستقرة تحت زجاج المكتب: الميزان العالى والكفّتان. تحوت واقف يشرف على الميزان، فى يده اليسرى أوراقه وفى اليمنى القلم. نسيت شجر رفع الصورة. فى اليوم التالى انتبهت لوجودها. تأملتها. قررت أن تبقيها.

•••

أستاذ مناهج البحث فى السنة التمهيدية للماجستير: عالى الصوت لا يكف عن الذهاب والمجيئ فى قاعة الدرس كأنه يضطرم بما يعتمل فى داخله من أفكار فذة. لم يكن يوجههم إلى المناهج من حيث هى أساليب للتناول ترتبط برؤى فلسفية

ومعرفية وأدوات مختارة هي نتاج منطقي لما تؤكده هذه الرؤى وما تنشغل بالبحث عنه. اكتفى بإجرائيات البحث: كيف تُكتب الهوامش، كيف يُعد ثبت المراجع، كيف تُقسّم الرسالة إلى أبواب وفصول يسبقها تمهيد وتنهيها خلاصة يتلوها ثبت للمصادر والمراجع. قال الأستاذ "سأطلب من كل منكم بحثا عليه أن يراعي فيه الشروط التي علمتها لكم. أمامكم أسبوع للاختيار وشهر لإنجاز البحث". في الأسبوع التالي أشرع الأستاذ قلمه وراح يسجل إسم الطالب أو الطالبة وعناوين الأبحاث.

- شجر عبد الغفار

- مذبحة دير ياسين.

- ليس هذا موضوع لبحث في التاريخ يا آنسة شجر. هذا موضوع لمقال صحفي أو تحليل سياسي. إن أردت البحث في الموضوع الفلسطيني أقترح عليك دراسة دور الهيئة العربية العليا أو جيش الإنقاذ أو الجهاد المقدس، ابحثي دور قيادة واحدة منها ولو راقك الموضوع تواصلين دراسته في رسالة الماجستير ببحث دور هذه الهيئات الثلاث وعناصر الاختلاف والتشابه. ما رأيك؟

- هل يمكن أن أكتب عن حفر القنال؟

- أي تفصيلة؟

- عقد الامتياز الأول وعقد الامتياز الثاني: دراسة تحليلية.

دون الأستاذ العنوان في دفتره. وانهمكت شجر في إعداد البحث المطلوب منها.

النسيان أمر مراوغ، يبدو للمرأ أنه نسي، يظن أن رغبة ما، فكرة ما، واقعة ما سقطت منه، ضاعت؛ والدليل غيابها الكامل عن وعيه، يتطلع إلى ذلك النهر فيرى عليه ألف شيء، مراكب كبيرة أو صغيرة، بشرا عديدين، قشة تطفو على السطح أو مخلفات لا قيمة لها، ثم ينتبه ذات يوم أن ذلك الشيء يطفو فجأة كأنه كان محفوظا هناك في القاع، مغمورا بالماء، مستتبًا كشجيرة مرجان أو لؤلؤة مستقرة في محارة. النسيان أمر مراوغ تقول شجر لنفسها وهي ترتّب أوراقها وتتوقف أمام تلك الدراسة التي أنجزتها بعد عشرين عاما من ذلك اليوم في مارس ٦٨ حين قال لها أستاذ مناهج البحث إن موضوعها لا يصلح.

في آخر نوفمبر عام ١٩٧٧ قررت أن تبدأ في بحث موضوع دير ياسين فجمعت ما توفّر لها من مادة. كانت تعرف أن هناك رواية صهيونية، تنوي عرضها ودحضها، ورواية أخرى عربية تريد تدقيقها وتفصيلها، ولكنها وهي تجمع المتاح من الوثائق والكتب والمقالات كانت تكتشف خيوطا جديدة، تتبعها بحرص فتقودها إلى مساحة من المعرفة تقف أمامها مندهشة متسائلة: لماذا ظلت طوال تلك السنين غائبة، من غيبها، وكيف، ولماذا؟ هل هي المحاولة الساذجة

للرد على ادعاء الصهاينة بأن الهجوم على القرية كان مبررا لأنها كانت مركزا للجنود العراقيين؟ لم تكن مركزا للجنود العراقيين؛ ولكن هل يتطلب إثبات ذلك تصوير أهالى القرية كحملان لا حول لها ولا قوة إزاء سكاكين الجزار؟

تقول الرواية العربية الشائعة: كان هناك قرويون عزل دخل عليهم رجال الإرغون وليحى وذبحوا ٢٥٤ من الشيوخ والنساء والأطفال، وأسروا الباقين وطافوا بموكب الأسرى فى الأحياء اليهودية من القدس فانتشر الفزع بين العرب فهاجروا خوفا من أن يصيبهم ما أصاب أهل دير ياسين. هل هذه رواية دقيقة؟ هل كان أهل دير ياسين غافلين عن الخطر المحدق بهم؟ لم يكن ذلك منطقيا. بإمكانها وهى جالسة إلى مكتبها، الآن هنا فى القاهرة، من مجرد نظرة على الخرائط ومجريات الأسابيع السابقة، أن ترى حدة الخطر: دير ياسين تواجه الضواحى الغربية للقدس، تُشرف على طريق القدس- يافا (أى طريق القدس- تل أبيب). وهى محاطة بسبع مستوطنات يهودية: شرقها "جيفعات شاؤول" و"منونتيفيورى" و"بيت هكيرم" و"شكونات هابوعاليم" و"يفه نوفه" و"بيت فيجان" تشكل سدا يفصلها عن القدس؛ وغربها مستوطنة "موتسا" تفصلها عن القسطل. القرى العربية المجاورة: جنوبا: عين كارم والمالحة. شمالا: لفتا. قبل أربعة أشهر شن الصهاينة غارات مكثفة على لفتا فسقطت، وهاجموا حيين عربيين فى القدس الغربية

واستولوا عليهما. أغلقت طريق السيارات الوحيدة التى تربط بين دير ياسين والقدس فتعذر وصول أهل القرية الى العاصمة إلا عبر قوس ملتف يأخذهم جنوبا إلى عين كارم ثم شرقا إلى المالحة ثم شمالا مرة أخرى إلى القدس، ١٥ كم من طريق جبلية وعرة تستغرق منهم خمس ساعات مشيا على الأقدام بدلا من خمس دقائق بالأتوبيس فى الطريق المباشرة. (تعذّر على حياة البلبيسى المدرّسة الوحيدة فى القرية أن تأتى من القدس وتعود إليها يوميا. أقامت فى دير ياسين). بسقوط لفتا لم يعد لدير ياسين سوى منفذها الجنوبى عبر عين كارم والمالحة. ما الذى فعله أهل دير ياسين لمواجهة هذا الحصار؟ هل يعقل أنهم لم يتحسّبوا لكوارث قادمة؟

للقرية تاريخ فى مقاومة حكومة الانتداب البريطانى والمستوطنين اليهود. فى الفترة بين ١٩٣٦ و١٩٣٩ كانت دير ياسين والجبال المحاذية مركزا من مراكز الثوار. قام بعض رجالها بعملية ضد قطار يحمل المؤن والسلاح للإنجليز. قطعوا الخط وانقلب القطار. ورغم القوانين الصارمة التى فرضتها حكومة الانتداب (الحبس ٦ سنوات لحيازة مسدس أو بندقية، ١٢ سنة لحيازة قنبلة، ٥ سنوات مع الأشغال الشاقة لحيازة ١٢ رصاصة، و١٥ يوما حبسا لحيازة عصا!) كان فى القرية سلاح. كانت تتعرض للتفتيش الدورى: يأتى الجنود الإنجليز، يحاصرون القرية، يبحثون عن الثوار، يدخلون البيوت،

يكسرون جرار الزيت، يسكبون الجاز على الطحين والسكر والأرز. ثم أقام الانجليز نقطة تفتيش فى القرية تتلى فيها يوميا فى الرابعة مساء أسماء كل رجال القرية للتأكد من وجودهم.

تسع سنوات فقط، هل تكفى لكى ينسى الأهالى القهر والمقاومة؟

تتكاثر بطاقات البحث، تتراكم بين يديها مادة مشعثة، تستخلص منها بعض الأمور ويظل بعضها الآخر غائبا أو غائما أو مراوغا كخيط تتبعه فينقطع فجأة ويتركها أمام السؤال: ماذا بعد؟

تمكنت من تحديد أولّى لمحاور الهجوم على القرية والقواعد التى انطلق منها: أربع مجموعات مسلحة، اثنتان منها انطلقتا من جيفعات شاؤول أو واحدة من جيفعات شاؤول والثانية من ضواحى القدس الغربية؛ الأولى هاجمت دير ياسين من الشمال والثانية هاجمتها من الشرق . مجموعتان أخريان إنطلقتا من بيت هاكيريم، أو ربما من بيت هاكيريم ويافا نوفه، الأولى لتقتحم القرية من طرفها الجنوبى الشرقى والثانية أرادت الالتفاف حولها لتهاجمها من جهتها الغربية. المجموعات الأربع من رجال مناحم بيغين، الإرغون، ورجال إسحاق شامير، ليحى. حدث الهجوم فجرا أو ربما قبل الفجر بساعة أو ساعتين. ماالذى حدث داخل القرية بعد ذلك؟ مذبحة! كيف؟ ما هى التفاصيل؟ وقبل المذبحة، ماذا جرى؟ كيف تدخل القرية؟

لم تجد فى الوثائق العربية ما يعينها، فهل تجدها فى الوثائق البريطانية؟ فى كتابات الإسرائيليين؟ فى شهادات الأهالى؟ كيف تصل إليهم، أين تجدهم؟ بقيت دير ياسين مغلقة. تسع سنوات.

حين بدأت فى كتابة هذا النص بدا لى منطقيا أن ألتزم بالتسلسل الزمنى لحياة شجر المتخيلة وتفاصيل حياتى كما عشتها فتسير الحكايتان متوازيتان بلا تداخل ولا خلط. ولكنى أنتبه الآن إلى أننى أكتب بمنطق التداعى وأترك للقلم التحرك بين الماضى والحاضر فى حركة مكّوكية. أنتبه أيضا إلى أننى كلما اقتربت من شجر وعرفتها أكثر تشابكت الخيوط. بالأمس مثلا وجدت نفسى أفكر أن شجر بمعارفها التاريخية يمكن أن تُسهّل على كتابة الجزء الخاص ببيت الهلباوى، وبيت كوبرى عباس، وبيت شارع مصطفى رضا. بدونها (أقصد شجر) يتعين على أن أعود للدوريات والكتب أو أكتفى بشذرات المعرفة المتوفرة لدى عن هذه الأماكن.

بيت الهلباوى، نسبة لصاحبه ابراهيم الهلباوى، هو البيت الذى ولدت فيه. وضعتنى أمى فى السادسة من صباح الأحد ٢٦ مايو ١٩٤٦ (نظرت الآن فى جدول لمقابلة التاريخ الهجرى بالميلادى فوجدته يوافق ٢٤ جمادى الآخرة ١٣٦٥)

استأجر جدى لأمى هذا البيت من أرملة الهلباوى عام ١٩٤١ بعد أن قرر أن ينتقل هو وأخوه بسبب نزول جنود الحلفاء فى البيت الملاصق لبيتهما فى حلوان. ولما كان لجدى سبع بنات ولأخيه بنتان فقد بدا لهما وجود جنود إنجليز وأستراليين وأفارقة وهنود فى المنزل المجاور لا يثير الارتياح فكانت هذه الهجرة الأسرية الصغيرة من حلوان، الضاحية الهادئة آنذاك، إلى جزيرة منيل الروضة. وربما وقع اختيار جدى على هذا البيت لقربه من مقر عمله، ومن بيت أصهاره الجدد الذين سيستقبلون بعد شهور قليلة بثينة، أكبر بناته، للإقامة معهم.

فى صباحات الخريف والشتاء والربيع، ومطالع الصيف أيضا، سوف يغادر جدى بيت الهلباوى ويمشى خطوات معدودة حتى شاطئ النيل، ومن هناك وفى مقابل بضعة ملاليم، يركب معدّية تنقله إلى الشاطئ الآخر. دقائق أخرى من السير ويصل بوابة الجامعة، يمر منها وينعطف يمينا إلى كلية الآداب. فى عام ١٩٤١ كان الدكتور عبد الوهاب عزّام يشغل كرسى أستاذ اللغات الشرقية بكلية الآداب، جامعة فؤاد الأول (القاهرة الآن) وفى عام ١٩٤٩ حين ترك بيت الهلباوى ليعود إلى بيته فى حلوان كان عميد الكلية.

سوف يطلب المحامى الشاب مصطفى عاشور يد مىّ من أبيها فى بيت حلوان وحين تُزّف له فى نوفمبر عام ١٩٤٢ سيأخذها من بيت الهلباوى. وسوف يدخل الدكتور رشاد صقر

المتخرج حديثا من كلية الطب إلى بيت الهلباوى لطلب يد تحية الإبنة الكبرى لعبد الفتاح عزّام ويخطبها ولا يتزوجها إلا بعد عودته سالما من حرب فلسطين. سيحكى رشاد صقر لعروسه، فى بيت الهلباوى، عن ضابط شاب كان محاصرا معه فى الفالوجة إسمه جمال عبد الناصر.

هل استأجر جدى البيت بواسطة سمسار؟ هل دلّه صديق عليه؟ هل كان يعرف الهلباوى قبل وفاته؟ هل كان يحترمه؟ يحتقره؟ يشفق عليه؟ أم يحفظ المسافة وعيا بالاختلاف؟ تبدو هذه الأسئلة استطرادا لا داعى له ولكنى أعتقد أنها لا تخلو من الأهمية فالهلباوى الذى جرى إسمه على ألسنتنا فى إشارتنا إلى البيت، وتكرر بعد ذلك للدلالة على منطقة بعينها فى الحى الذى نسكنه، الهلباوى له حكاية. ولو كان الوضع معكوسا وكانت شجر هى التى تحكى لروت لنا الرواية الكاملة لابراهيم الهلباوى الشاب ذى الأصول الريفية الذى استطاع أن يكون نجما فى عالم المحاماة والذى قبل أن يكون عضو الادعاء فى محاكمة فلاحى دنشواى عام ١٩٠٦ وقدم للمحكمة، نيابة عن سلطة الاحتلال، مبررات الحكم بالإعدام على الفلاحين. منحه الشيخ عبد العزيز جاويش فى جريدة "اللواء" لقب "جلاد دنشواى". وظل اللقب لاصقا به حتى وهو يحاول جاهدا أن يكفّر عن إثمه بإدانة محكمة دنشواى والتطوع للدفاع فى القضايا الوطنية. مات الهلباوى عام ١٩٤٠ عن ثلاثة

وثمانين عاما؛ بعد عام من وفاته استأجر جدى البيت من أرملته، زوجته الثالثة على ما أظن. بعدها بخمس سنوات وضعتنى أمى .

بيت الهلباوى إذن هو البيت الأول، لا أذكره فقد تركه جدى وأنا فى الثالثة من عمرى. أما بيت كوبرى عباس فتقول أمى إنها انتقلت إليه فى شهر يولية ١٩٤٧ من شقة شبرا التى دخلتها عروسا، كنت أكملت عامى الأول. شقة فى الطابق الرابع تطل على النيل وعلى كوبرى عباس، أراه من الشرفة وأيضا من شباك غرفة نومى التى أشترك فيها مع أخى الأكبر، طارق. يفتح الكوبرى مرتين ليسمح للمراكب الكبيرة بالمرور. فى الثالثة بعد الظهر أرى صف السيارات تنتظر أن يعاد إغلاق الكوبرى. فى الثالثة فجرا يُفتح مرة أخرى وأكون مستغرقة فى النوم فلا أرى من ذلك شيئا.

من الشرفة، من شباك حجرة نومى أرى كوبرى عباس. فى الصباح المبكر وأنا أنتظر سيارة المدرسة، فى مساءات الصيف ونحن نلعب على الشاطئ؛ نشترى الترمس والذرة المشوية أرى الكوبرى، وأرى المغسل الكبير الذى تستخدمه بائعات الخضرة: نساء فى أثواب سوداء يفتحن الصنابير العمومية على الخس والفجل والكُرّات والجرجير والبصل الأخضر والبقدونس قبل أن يحملنه لبيعه فى الشوارع المجاورة. لا أرى عم محروس الصيّاد – بائع السمك، أعرف أنه فى مكان ما على

الشاطئ، تحت الكوبرى. المغسل، المراكب الصغيرة والكبيرة، الكوبرى المغلق أو المفتوح مشاهد لكل يوم، نعتادها، ننتبه فجأة، نعود نعتادها. لكن المشهد–المناسبة يأتى مرة واحدة فى العام، نحصى الأيام فى انتظاره، ننتظر. يأتى، يوما واحدا، ويذهب. يتعين علينا انتظاره من جديد. هكذا كان وفاء النيل، يعلو الماء، يتغير لونه، نلحظ ذلك، نرقبه حتى اليوم المعلوم: نقف فى شرفة بيتنا لمشاهدة المراكب المزينة بالأعلام والمصابيح الملونة تتقدمها "العقَبة"، السفينة الأكبر والأبهى. نتطلع إلى يسارنا حتى تلتقطها عيوننا: نقطة ضوء فى الظلام تكبر تدريجيا. تتحدد وهى تقترب. لا حاجة للىّ أعناقنا وجذوعنا باتجاه اليسار، الموكب أمامنا مباشرة الآن ينساب ببطء على صفحة النهر يضيئها وهو يسرى ويتقدم باتجاه مقياس النيل. تشرئب أعناقنا إلى الجهة اليمين لتتبع المراكب وقد تجاوزت الكوبرى، تصغر وتصغر أكثر لتعود بقعة صغيرة من الضوء ثم نقطة تختفى فى الظلام.

هى أيضا كانت نقطة وتختفى، بقعة معدنية أتابعها من نافذة حجرتى. أمى سافرت للحج. أقضى الوقت أتطلع من النافذة، يشغلنى انتظارها. أسمع الأزيز، أرفع رأسى، لا شىء بعد، يعلو الصوت، يعلو أكثر ثم ذلك الطائر المعدنى بعيدا فى السماء. أمى سافرت بالطائرة. تمر الطائرة. تبتعد. تختفى. لم تأت! طائرات كثيرة فى سماء القاهرة، فى البيت تتردد كلمة فلسطين. لا أعرف معناها. لم أتجاوز بعد العامين ونصف.

واقعة كوبرى عباس، محاصرة طلاب جامعة القاهرة بقوات الشرطة من خلفهم وفتح الكوبرى من أمامهم، مساحة غائبة من وعى طفولتى. وقعت الواقعة فى ٩ فبراير ١٩٤٦، قبل ولادتى بثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما. فى التاسعة سيبدو لى، حتى بعد انتقال أسرتى إلى بيت آخر، أننى أعرف الكوبرى معرفة كاملة وتامة وأننى رأيت منه أكثر مما رأى الآخرون. سيبدو لى أننى أعرف مبانى كلية الطب ومستشفياتها المعروفة بالقصر العينى، تشغل الطرف الشمالى من الجزيرة، أمر بها يوميا فى طريقى إلى المدرسة من بيت كوبرى عباس ولاحقا من بيتنا الجديد فى شارع مصطفى رضا. لم أكن أعرف أن طلاب الكلية سنة ١٩٣٥ أخفوا جثمان زميلهم عبد الحكم الجرّاحى فى المستشفى حتى يتمكنوا من تشييعه فى جنازة شعبية. ولما استشهد الطالب السودانى محمد على أحمد، بعد ذلك بإحدى عشرة سنة، أخفى طلاب الكلية جثمانه ولم تفلح الشرطة فى معرفة مكانه وتطور الأمر إلى معركة بين الطلاب والشرطة وهى تحاول منعهم من إقامة جنازة ضخمة لزميلهم الشهيد. فى طفولتى كان مبنى القصر العينى حضورا أليفا. لاحقا سوف أكتشف أن الطفل يعرف الأشياء ولا يعرفها ما دام يجهل الحكاية.

يشغلنى موضوع الكتابة والتاريخ وتشغلنى شجر فأتوقف عن تتبع انتقال الأسرة إلى بيت جديد. أرسطو قال شيئا فى هذا

الشأن. ميّز الأدب عن التاريخ، أعرف ذلك جيدا. الأفضل أن أعود إلى كتابه. أترك المكتب وأبحث فى المكتبة. أجد نسخة من الترجمة الانجليزية لبوتشر المنشورة عام ١٩٥٥، ونسخة من تحقيق شكرى عيّاد لترجمة أبى بشر متّى عن السريانية مشفوعة بترجمة حديثة. أبحث عن فقرة بعينها، أجدها فاقتبسها:

"وظاهر مما قيل أيضا أن عمل الشاعر ليس رواية ما وقع بل ما يجوز وقوعه وما هو ممكن على مقتضى الرْجحان أو الضرورة فإن المؤرخ والشاعر لا يختلفان بأن ما يرويانه منظوم أومنثور (فقد تصاغ أقوال هيرودوتس فى أوزان فتظل تاريخا سواء وزنت أم لم توزن) بل هما يختلفان بأن أحدهما يروى ما وقع على حين أن الآخر يروى ما يجوز وقوعه. ومن هنا كان الشعر أقرب إلى الفلسفة وأسمى مرتبة من التاريخ؛ لأن الشعر أقرب إلى قول الكليات. على حين أن التاريخ أميل إلى قول الجزئيات. والكل هو ما يتفق لصنف من الناس أن يقوله أو يفعله فى حال ما على مقتضى الرْجحان أو الضرورة " ويواصل أرسطو قائلا: "الشاعر أوالصانع (بويتس) ينبغى أن يكون أولا صانع القصص قبل أن يكون صانع الأوزان، لأنه يكون شاعرا بسبب ما يحدثه من المحاكاة، وهو إنما يحاكى الأفعال. وإذا إتفق أنه صنع شعرا فى أمر من الأمور التى وقعت فإن ذلك لا يؤثر فى كونه شاعرا، إذ لا

شيء يمنع أن بعض الأمور التي وقعت قد جاء متفقا مع قانون الرُجحان وقانون الإمكان، فعلى هذا الاعتبار يكون هو صانعها"

الأرجح أن شجر تختلف مع أرسطو في قوله أن موضوع التاريخ هو الجزئيات. ليس اختلافها، على ما أظن، من باب تمييز بضاعتها والإعلاء من شأنها، بل لأنها، في ممارستها لكتابة التاريخ، لا تعتبر رصد الوقائع والجزئيات سوى جزء من مهمة لا تكتمل إلا بمعنى كلّي هو الذي يطلق عليه أرسطو "قانون الرُجحان". أفسره بمنطق للأمور، قانون ما يربط تلك الوقائع ويستخرج من فوضاها الشرسة ونشاذها الصاخب خيطا للدلالة وضوءا يجعل البشر يفهمون حكايتهم. هل أخلط بين الأدب والتاريخ أم أسقط مشروعي الخاص على شجر؟! لا أظن. سأدلّل على كلامي بكتاباتها: ربما تكون دراستها عن دير ياسين مثلا ملائمة. لم تقدم شجر الهجوم على القرية ومقاومة الأهالي ثم المذبحة التي أعقبت كمجرد واقعة قائمة بذاتها أو مرتبطة بوقائع مماثلة في عامي ١٩٤٧-١٩٤٨ بل قدمتها كواقعة-نموذج تمكّن قراءها من تأمل العام في الخاص، وربط ذلك الحدث بأحداث متسلسلة تشكل في مجملها سمة أساس من سمات تاريخهم الحديث. قد يقصر النموذج عن الواقع أو يفيض عنه وقد يتطابق معه، في دير ياسين تجلّى في حدوده القصوى وبقي رغم ذلك مطابقا. أرجئ هذا على أي حال وأعود إلى

البيوت التي عشت فيها. لماذا أزّج بها جميعا- أقصد تلك البيوت في فصل واحد؟ لما لا اتركها تدخل النص بتسلسل ظهورها في حياتي، وما الذي أريده من حشدها معا؟

في عام ١٩٥٥ اشترى أبي منزلا بحديقة في شارع مصطفى رضا بالمنيل، وبدلا من أن نطل على النيل وكوبري عباس ونرى الجيزة في الضفة الأخرى من النهر انتقلنا إلى داخل المنيل في بقعة يمكن وصفها بأنها في قلب الجزيرة. تكاد المسافة إلى "البحر الكبير" الذي يفصل الجزيرة عن الجيزة تتساوى مع المسافة إلى "البحر الصغير" الذي يفصلها عن القاهرة. ثم هي ايضا فيالوسط بين الطرف الجنوبي للجزيرة فيما وراء شارع الروضة، الذي ينتهي بمقياس النيل وطرفها الشمالي حيث مباني كلية طب القصر العيني.

في الأيام الأولى لانتقالنا بدا هذا البيت لي ولإخوتي، طارق الأكبر، وحاتم ووائل الأصغر، حيّزا اسر من مجهول مثير. لم تكن سعة البيت مقارنة بشقة مكونة من خمس غرف هي وحدها السبب. هناك ألوان زجاج النافذتين ولعبتها المدهشة مع ضوء النهار صباحا ومع المصابيح في الليل: نافذتان من الزجاج المعشّق في كل منهما نقش راعية. الراعية الأولى في ثوب أخضر، تميل بجذعها على جرّتها، لا نرى سوى جانبها الأيسر. الراعية الثانية ترتدي ثوبا بنفسجي اللون، تميل يمينا وتحمل بين يديها حزمة قمح. تتكرر في النافذتين الشجرة،

شيء يمنع أن بعض الأمور التي وقعت قد جاء متفقا مع قانون الرُجحان وقانون الإمكان، فعلى هذا الاعتبار يكون هو صانعها"

الأرجح أن شجر تختلف مع أرسطو في قوله أن موضوع التاريخ هو الجزئيات. ليس اختلافها، على ما أظن، من باب تمييز بضاعتها والإعلاء من شأنها، بل لأنها، في ممارستها لكتابة التاريخ، لا تعتبر رصد الوقائع والجزئيات سوى جزء من مهمة لا تكتمل إلا بمعنى كلّي هو الذي يطلق عليه أرسطو "قانون الرُجحان". أفسره بمنطق للأمور، قانون ما يربط تلك الوقائع ويستخرج من فوضاها الشرسة ونشاذها الصاخب خيطا للدلالة وضوءا يجعل البشر يفهمون حكايتهم. هل أخلط بين الأدب والتاريخ أم أسقط مشروعي الخاص على شجر؟! لا أظن. سأدلّل على كلامي بكتاباتها: ربما تكون دراستها عن دير ياسين مثلا ملائمة. لم تقدم شجر الهجوم على القرية ومقاومة الأهالي ثم المذبحة التي أعقبت كمجرد واقعة قائمة بذاتها أو مرتبطة بوقائع مماثلة في عامي ١٩٤٧-١٩٤٨ بل قدمتها كواقعة-نموذج تمكّن قراءها من تأمل العام في الخاص، وربط ذلك الحدث بأحداث متسلسلة تشكل في مجملها سمة أساس من سمات تاريخهم الحديث. قد يقصر النموذج عن الواقع أو يفيض عنه وقد يتطابق معه، في دير ياسين تجلّى في حدوده القصوى وبقى رغم ذلك مطابقا. أرجئ هذا على أي حال وأعود إلى

البيوت التي عشت فيها. لماذا أزج بها جميعا- أقصد تلك البيوت في فصل واحد؟ لما لا أتركها تدخل النص بتسلسل ظهورها في حياتي، وما الذي أريده من حشدها معا؟

في عام ١٩٥٥ اشترى أبي منزلا بحديقة في شارع مصطفى رضا بالمنيل، وبدلا من أن نطل على النيل وكوبري عباس ونرى الجيزة في الضفة الأخرى من النهر انتقلنا إلى داخل المنيل في بقعة يمكن وصفها بأنها في قلب الجزيرة. تكاد المسافة إلى "البحر الكبير" الذي يفصل الجزيرة عن الجيزة تتساوى مع المسافة إلى "البحر الصغير" الذي يفصلها عن القاهرة. ثم هي أيضا في الوسط بين الطرف الجنوبي للجزيرة فيما وراء شارع الروضة، الذي ينتهي بمقياس النيل وطرفها الشمالي حيث مباني كلية طب القصر العيني.

في الأيام الأولى لانتقالنا بدا هذا البيت لي ولإخوتي، طارق الأكبر، وحاتم ووائل الأصغر، حيّزا أسر من مجهول مثير. لم تكن سعة البيت مقارنة بشقة مكونة من خمس غرف هي وحدها السبب. هناك ألوان زجاج النافذتين ولعبتها المدهشة مع ضوء النهار صباحا ومع المصابيح في الليل: نافذتان من الزجاج المعشّق في كل منهما نقش راعية. الراعية الأولى في ثوب أخضر، تميل بجذعها على جرّتها، لا نرى سوى جانبها الأيسر. الراعية الثانية ترتدي ثوبا بنفسجي اللون، تميل يمينا وتحمل بين يديها حزمة قمح. تتكرر في النافذتين الشجرة،

الأوراق الخضراء والحبات الحمراء. فى النافذة الأولى نعجة وصغيرها، الصغير يرفع خطمه يلامس عنق أمه. فى النافذة الثانية أربعة خراف، اثنان يشرئبان باتجاه حزمة القمح بيد المرأة، ونعجة مستتبة فى أمومتها مستغرقة فى صغير يرضع من ضرعها. فى النهار تضيئ أشعة الشمس نقوش النافذتين فيفوز من بداخل البيت ببهاء اللوحة كاملا. فى الليل تضيئها مصابيح البيت فيفوز بجمالها عابر الطريق.

النافذتان مشرفتان على السلم الخشبى الواصل بين الطابق الأول والطابق الثانى. يختزل الكبار درجاته الأربع والعشرين إلى أداة للصعود والنزول ونرى فيه ملعبا نركض فيه، نقفز عليه، نتزحلق على درابزينه الملتف، نفترش عتباته لنتحدث بهدوء أو صخب، نضحك، نتشاجر، يغضب أحدنا أو يبكى أونسكت فجأة لأن صياحنا أيقظ أبانا من قيلولته فتوعدنا صارخا: "استنوا علىّ يا ولاد الحمار!" نضحك بلا صوت، نتبادل الحديث همسا، دقائق ثم نعود ننهمك فى اللعب، لا نلتفت لقيلولة أبى ولا لوجود الراعيتين المشرفتين علينا من موقعهما المستقر فى الزجاج مع خرافهما الملونة.

لم يكن هذا السلم وحده مسرح عملياتنا اليومية، هناك السلم الرخامى العريض فى مدخل البيت- نستخدمه فى لعب الكرة، وسلم حجرى عال وشبه مستقيم يربط بين الطابق الأول والطابق الأرضى، وسلم حديدى ملتف تجده على غير توقع فى

شرفة تفتح عليها غرفة من غرف الطابق الثانى (لاحقا ستصبح هذه الغرفة لى بها سريرى وكتبى ومكتبى). سوف نوظّف الحديقة والطابق الأرضى والسطح وكافة السلالم فى ألعابنا. سوف أختفى أحيانا فى برميل كبير أو فى إحدى خزانات الحائط بالطابق الأرضى وأنا ألعب "الاستغمّاية" مع إخوتى. سوف نركض على السلم الحديدى الذى يوصلنا إلى السطوح فتصيح بنا أمى: "لاتركضوا سيقع واحد منكم عن هذا السلم!" فنجيبها- ونحن نركض- أننا لانركض. فى الحديقة سوف يربى إخوتى فى فترات مختلفة كلابا مختلفة لها أسماء مختلفة تتفاوت من حارس إلى ريكس ومن قلّة إلى لاسى. سوف أخاف منها جميعا، لا ألاعبها ولا أطعمها ولا أقترب منها. وفى القن الواسع الذى يشغل جانبا من الحديقة الخلفية سوف نقتنى دجاجا أوأوزا أوديكا روميا، أو كلها مجتمعة. وأحيانا نقتنى أرانب تنهمك فى حفر سراديبها الأرضية حتى نكتشف أنها وصلت لأساسات الدار. بعد سنين حين يتزوج أخواى الأصغر وينجبان يكون لصغارهم جدي يدللونه ويشاكسونه كل يوم جمعة حين تجتمع العائلة فى البيت الذى صار الآن بيت المنيل تمييزا له عن البيوت التى توزعنا فيها مع أزواجنا وأطفالنا. ولكن هذه المبهرات كلها لم ترق أبدا للهدية التى حملها لنا أبى ذات يوم من أيام عام ١٩٥٩. وقفنا مشدوهين قبل أن تتحول قشعريرتنا إلى هياج منتشى. قال أبى

وهو يقدمه لنا: "إسمه جرير!" ولولا ألسنتنا المعقودة لقلت: "وأنا إسمي رضوى، وهذا طارق وهو الأكبر، وهذا حاتم يصغرني بثلاث سنين ونصف وذاك وائل أخونا الأصغر". لم يسعفنا قاموسنا للتعبير عن جماله ولا مشاعرنا. سأراه جميلا وآسرا ولن أركبه أبدا، أما طارق فسوف يقفز إلى ظهره يخرج به من بوابة البيت يركض على أسفلت الشارع حتى يصل إلى البحر الصغير فيمنحه المهر ومهارته في ركوبه شهرة في شارع مصطفى رضا وكافة الشوارع المجاورة.

من هذا البيت الذى اشتراه أبى عام ١٩٥٥ وجاء إليه بجرير وبعشرات الأشياء الصغيرة والكبيرة سوف يخرج نعشه من بين زوجته وأبنائه وأخيه الباقى وأصهاره وزملائه، سوف أجد نفسى أطل عليه من الشرفة وأصرخ كأننى لم أولد وأتربى فى أسرة من الطبقة الوسطى تتقن كتمان مشاعرها ولا تودّع موتاها بلطم الوجه والصوت العالى. فى المساء سوف يسأل حاتم من هى المرأة التى كانت تصرخ ونحن نحمل أبى من البيت؟ لن أجيبه على السؤال.

ولدت شجر فى ٢٦ مايو ١٩٤٦ فى بيت يطل على كوبرى عباس ولكن من الجهة الأخرى المقابلة لبيتنا، جهة الجيزة. (حكى لها جدها عبد الغفار أن أمها كانت حبلى بها، فى شهرها السادس، حين غنت أم كلثوم فى المولد النبوى قصيدة "سلوا قلبى" ثم ثم غنت "سلوا كئوس الطلى" فى شهر مايو- الشهر الذى ولدت فيه. بعدها وفى نفس السنة غنت "وُلد الهدى" و"نهج البُردة" و"السودان" وكانت القصائد الخمس لأحمد شوقى ومن تلحين رياض السنباطى).

فى طفولتها، قبل أن تتكاثر بنايات الإسمنت العالية، كانت شجر وهى تقف فى الزاوية القبلية من الشرفة ترى النخيل عن يمينها، وفيما وراء النخيل أهرامات الجيزة. تنتقل إلى الجهة الشرقية، ترى فيما وراء المنيل باتجاه يدها اليسرى مسجد محمد على مستتبًا على قلعة الجبل. (حدثها جدها عن المحمل: الموكب الكبير الذى ينطلق من القلعة حاملا كسوة الكعبة فى طريقه إلى السويس ومنها بحرا إلى جدة قاصدا مكة. تتطلع

إلى القلعة فيأتيها صوت جدها يستحضر القماش المخملى المطرز بخيوط الذهب، والجمال والخيول تشق طريقها على قرع الطبول وتهليلات الأهالى). من النافذة الخلفية، نافذة المطبخ ترى أشجار حديقة الحيوان، خضراء فى النهار ومعتمة فى الليل. فى الليل يخيفها زئير الأسود، مغلق عليها فى أقفاصها، تعرف، ولكنها تخاف، تودّ لوكانت مستغرقة فى النوم، تود لو تغلق أذنيها. دقات ساعة الجامعة لا تخيفها. تسمع الدقات وفواصل الصمت بينها وذلك الشىء المتبقى منها فى الفضاء كأنه ذيل الصوت أو صوت آخر خافت يجاوبه، كأنه طيف الصوت أوخياله. حين قال المذيع: "أعلنت دقات ساعة جامعة القاهرة تمام الثانية" تعرفت شجر على الساعة التى عرفتها قبل سنين: عرفت دقاتها الأربع والدقة الواحدة ثم لاشىء، والدقتين، والدقات الثلاث قبل أن تتعلم العد من واحد إلى اثنى عشرة، وقبل أن تعرف معنى الربع والنصف والثلاثة أرباع.

لن تنتبه لدقات الساعة وهى جالسة خلف مكتب صغير منفرد فى مدرج ٧٤ فى كلية الآداب، عن يسارها مقاعد المدرج يشغله أهلها وأصدقاؤها وزملاؤها. لاتتطلع فى اتجاههم. تتطلع إلى يمينها حيث المنصة والأساتذة الثلاث. يرتدون "الأرواب" السوداء وأمام كل منهم على المائدة المغطاة بقماش أخضر سميك نسخة من رسالتها.

ناقشها أعضاء اللجنة ثلاث ساعات. انسحبوا للمداولة. بعد نصف ساعة عادوا. وقفت ووقف الحضور. قرأ المشرف الديباجة الطويلة ثم: "اجتمعت اللجنة المشكلة من ... ومن ... ومن ... فى الساعة السادسة من مساء يوم السبت الحادى عشر من ديسمبر ١٩٧١ الموافق الثالث من ذى القعدة ١٣٩٣. وبعد مناقشة علنية للطالبة شجر محمد عبد الغفار قررت اللجنة منحها درجة الماجستير فى التاريخ الحديث بدرجة ممتاز".

كانت محظوظة، كثيرا ما فكرت شجر فى ذلك. لو ناقشت رسالتها بعد شهرين أو ثلاث لعرقلت الإدارة تعيينها ولأمكن طردها من الكلية. هذا ما قاله رئيس الجامعة. هل كان كلامه مجرد تهديد، تلويحا بالعصا للصبية التى لم تتجاوز الخامسة والعشرين؟ هل كان أسلوبا للردع وضبط سلوكها مستقبلا؟

التحقت باعتصام الطلاب منذ اليوم الأول فى قاعة الاحتفالات، قضت فيها الأيام الأربعة. لم تعد قبة القاعة- علامة الجامعة المثبتة فى البطاقات والصور- مجرد خط مقوس، خلفية لمشهد تتصدره امرأة من جرانيت. دخل الأولاد والبنات القاعة، استقروا فى حيزها الفسيح، تحت قبتها العالية، تحدثوا وتناقشوا واتفقوا واختلفوا ونسخوا البيانات وأطلقوا الأحلام- الكبيرة- عصافير ترفرف وتحلق وترقزق باتجاه السقف المقوس العالى. لاتتطلع شجر إلى السقف. لا ترى القبة من خارجها الآن، هى داخل القاعة، تنهمك فى النقاش صبحا ومساء. تغلق عينيها وقد استبد بها التعب فى نهاية اليوم، تنام

علـى مقعديـن تضمـهما فيصيـران سـريرا ملائمـا. تسـتيقظ فجـرا، تخرج إلى الحـرم الجـامعى تغللـه زرقـة فجـر شـتائى غـائم. تتنحـى جانبـا مـن السـلم، تجلـس. بـرج السـاعة ثـم كليـة الآداب عـن يسـارها، عـن يمينـها كليـة الحقـوق، بينـهما مسـطح العشـب الأخضـر يمتـد إلـى مـا قبـل البوابـة الحديديـة والنصـب التذكـارى للشـهداء. تتطلـع شـجر. لـم يغادرهـا خـدر النـوم تمامـا بعـد. ثـم يسـتتب الضـوء، تنتبـه فتبـدأ فـى تسـجيل مشـاهداتها فـى اليـوم السابق. تسـجل الـهتافات والخطـب وبرقيـات التـأييد. حتـى الخـلاف الحـاد الـذى وقـع بيـن طـلاب الطـابق الأرضـى وطـلاب الشـرفة تسـجله: توتـر يسـكن الجـو. يـهمس البعـض أنـها محـاولات للتخريـب، البعـض الأخـر يقـول المبـاحث تقـوم بعملـها. مجموعـة ثالثة تؤكد إنها خلافـات طبيعيـة ولا يصـح اتـهام مـن يختلـف معنـا، مهما اختلف، بأنـه مخـرب أو عميـل. مـا الـذى أوصـل الأمـر لمـا وصل إليه؟ انفجر الـهتاف فجـأة، ليـس الـهتاف المعتـاد الـذى يـردده كـل المعتصميـن بـل هتـاف مـن طـلاب الطـابق الأرضـى فـى مواجهـة هتـاف الطـلاب الجالسـين فـى الشـرفة. طـلاب الطـابق الأول يـهتفون: "طـب وهندسـة، بعتـوا مصـر بكـاااام، بعتـوا مصـر بكـام؟!" يـرد عليـهم طـلاب الشـرفة بـهتاف مضـاد وهـم يشـيرون إليـهم بأصـابع اتـهام: "شـيوعيين، شـيوعيين، إحنـا إحنـا المصريين" فوجئـت شـجر بطـالب نحيـل يقفـز واقفـا فـوق المقعـد الـذى كـان يجلس عليه ويبصق إلى أعلـي قـاصدا الـهاتفين فـى الشـرفة.

فجـر الاثنيـن ٢٤ ينـاير اقتحمـت قـوات الأمـن الجامعـة واقتادتهم من القاعـة إلـى عربـات الشـرطة.

لـم تقـض فـى السـجن سـوى عشـرة أيـام. بعـد انتـهاء أجـازة نصـف السـنة عـادت إلـى عملـها. دعاهـا رئيـس القسـم، أبلغـها أن رئيـس الجامعـة يريدهـا. توجـهت إلـى مبنـى قاعـة الاحتفـالات، سـألت عـن مكتـب رئيـس الجامعـة. صعـدت. جلسـت تنتظـر فـى غرفة مدير مكتبه، ثـم "تفضلـى يـا آنسـة".

لم يدعـها إلـى الجلـوس. وضـع نظارتـه علـى عينيـه وقـرأ مـن ورق أمامه. خلع النظـارة. تطلـع إليـها:

- آنسة شجر محمد عبد الغفار، معيدة فى قسم التاريخ؟

- نعم

- كنت فى الاعتصام، أليس كذلك؟

- نعم

- قبض عليك فجر ٢٤ يناير ضمن الطلاب المعتصمين؟

- نعم

- كيف نستأمنك على تعليم طلابنا؟!

واصـل:

- تعرفيـن أنـه يمكـن إلغـاء تعييـن المعيـد فـى أى وقـت. ليـس المعيد عضوا فـى هيئـة التدريـس، إنـه طـالب بحـث، مجـرد طـالب بحث، موظف مؤقتـا تحـت الاختبـار.

بقيت صامتـة.

- أليس من الأفضل أن تنتبهى لدراستك وتكملى الماجستير بدلا من هذا التهريج؟

- ناقشت الماجستيرفى شهر ديسمبر. فى الشهر الماضى عينت فى درجة مدرس مساعد.

علا صوته محتدا:

- لم تحصلى بعد على الدكتوراه، لست عضوا فى هيئة التدريس. بإمكانى فصلك من الجامعة!

تطلع فيها. تشاغل بالنظر إلى بعض الأوراق على مكتبه. رفع رأسه:

- أتوقع أن أسمع منك كلمة اعتذار، أو تفسيرا لما فعلت!

"اعتذرت؟" سألها جدها عبد الغفار. "لم أعتذر!" ضحك: "عنيدة ياشجر!" ضحك أكثر يوم عادت إلى البيت فى العام التالى تحمل بيدها خيزرانة وخوذة جندى. كانت القنبلة المسيلة للدموع فى حقيبتها، أخرجتها من الحقيبة وعرضتها عليهم. صاحت أمها: "مجنونة". علقت ست جلسن: "شجر ستأتى لكم بمصيبة! وادى دقنى لو ما طردوها من الجامعة!" لم تكن العبارة سوى العبارة الافتتاحية لمنولوج طويل حرصت شجر ألا تسمعه. انتقلت مع جدها إلى حجرته لتحكى له كيف خرج الطلاب من الحرم واشتبكوا مع قوات الأمن. " الأولاد قرروا أن يقيموا معرضا للغنائم. أتوا لى ببعض غنائمهم للاحتفاظ بها: الهراوة انتزعها أحد الطلاب من صاحبها، الخوذة

تدحرجت على الأرض فى المعمعة، التقطها طالب، أما القنبلة فتمكنت طالبة من الامساك بها قبل أن تسقط على الأرض. هذه حصيلة اليوم. والبقية تأتى!"

- وخرجت من الجامعة وأنت تحملين هذه الأشياء؟!

- خرجت من الباب الخلفى وركبت الأتوبيس، ذهبت إلى دار الكتب فى باب الخلق، قرأت ساعتين ثم ركبت الأتوبيس وعدت!

تبتسم شجر، تتساءل: جرأة صافية أم ممتزجة بالغفلة عن الشراك وبنادق الصيادين. أفلتت. مدرج ٧٤ مرة أخرى. الرسالة. "الأرواب" السوداء. المناقشة. حصلت علىالدكتوراه.

تتأمل الصور: صور المناقشة الأول. فى الخامسة والعشرين. صور المناقشة الثانية. فى الثامنة والعشرين. السنوات الفارقة لا تبدو فى الصورة: الشعر الصبيانى القصير، الجسد النحيل، النظرة، كيف تصفها؟ صور ملونة كثيرة يحملها لها الطلاب بعد انتهاء المناقشة. نفس المدرج و"الروب" الأسود أيضا ولكنها المشرفة على الرسالة أو عضو فى لجنة المناقشة. لم يعد الجسد نحيلا ولا الشعر أسود قصيرا بل رمادى مطروح للخلف مصفف بما يليق بأستاذة على مشارف الأربعين، فى هذه الصورة. فى منتصفها فى تلك. فى الخمسين فى صورة ثالثة. تستغرب الصور الأحدث، كأنها لا تتعرف على نفسها فيها. هل تتشبث بصورة الصبية لا تريد هذه المرأة

الخمسينية بديلا عنها؟ لأنها أقل جمالا، أقل رشاقة؟ ما معنى الجمال؟ الامتلاء، أليس قيمة؟! تبتسم: لا أحد يفلت الحياة من بين يديه راضيا؟ المرأة؟ الرجل أيضا. لا أحد يزهو بالشيب والتجاعيد والطريق المنحدرة إلى الموت!

تعود إلى صور الماجستير. الصبية ذات الشعر الصبيانى تقف بين الزملاء والأصدقاء بعد انتهاء المناقشة. فى الطرف يقف يوسف. ريفى واضح. طويل، عريض المنكبين، يضحك. فى صور الدكتوراه أيضا: يوسف يضحك. فى الصور الأخيرة يبدو الوجه صارما وشاحبا وبعيدا كأنه قطع شوطا فى طريق الرحيل. لم تنتبه.

زملاء آخرون أيضا فى الصورة. بدوا أقرب. كانوا أقرب. ابتعدوا. فى البداية بدا يوسف بعيدا، بدا جلفا، صريحا إلى حد الغلظة. ثم تحمل الأيام اختباراتها الصغيرة، والكبيرة، وطريق تتفرع مع كل سؤال، وغوايات تستدرج الأصدقاء إلى وهم صعود يهبط بهم ثم يهبط أكثر فتراهم يبتعدون، يتركون لها الوحشة والخذلان، والغضب أحيانا. يوسف لم يصعد ولم يهبط، بقى متينا كجدران بيت.

- ماذا أفعل يا يوسف؟

- اهدئى قليلا، علينا أن نفكر بهدوء.

كانت توجهت من محطة القطار إلى منزله مباشرة. لم تفكر فى اضطرابها أن عليها أن تتأكد أولا من الأوراق التى تحملها.

- فحصت الأوراق؟

- لم أفحصها بعد!

نظر إليها نظرة مستنكرة. مد يده إلى رزمة كراسات الإجابة. كانت أربعا وأربعين كراسة، فحصاها جميعا. كلها تحمل إجابات تطول أو تقصر.

- هل أنت متأكدة أن الولد سلم الورقة بيضاء تماما؟

أعادت عليه ما سبق أن قالته:

- غادرت البيت فى السادسة صباحا خشية التأخر على الامتحان-هذه أول مرة أقدم فيها مقررا دراسيا فى جامعة خارج القاهرة- وصلت الكلية قبل بدء الامتحان بساعة كاملة. وقفت فى اللجنة طوال الثلاث ساعات أراقب سير الامتحان. عدد الأولاد لا يزيد عن الأربعين، أعرفهم جميعا، حتى من لا أذكر إسمه آلف شكله. هذا الولد لم أره من قبل. استوقفنى أنه لا يكتب فى كراسة الإجابة، يطلب قهوة، ثم يطلب شاى ويدخن، ويتطلع إلى ورقة الأسئلة ثم ورقة الإجابة فقط.

- تأكدت أنه طالب بالفرقة الثالثة؟

- فحصت بطاقته الجامعية. ولمزيد من التأكد ملت على طالبة وسألتها عنه، قالت: "زميلنا وأول الدفعة. كان الأول فى سنة أولى وفى سنة ثانية!" انتهى وقت الامتحان، سلم الولد كراسة الإجابة، فررت صفحاتها، لم يكن خط فيها حرفا واحدا.

- استبدلت الورقة!

- والحل يا يوسف؟
- لابد من تبليغ النيابة!
- النيابة؟!
-لا بد من عمل كمين للطالب.
- كمين... للطالب؟!

الامتحان التالى: لم يبق سوى ربع ساعه على نهاية الامتحان. الولد يدخن وأمامه كراسته البيضاء. يقوم لتسليمها. تمد الملاحظة يدها لاستلامها منه. يضع مخبر يده على الكراسة، يتحرزعليها . يتحرز مخبر آخرعلى باقى الكراسات التى بحوذة الملاحظة. خشبتها المفاجأة ثم بدأت تصيح وتلطم خديها فى ذعر. لم يفهم الطلاب ما يحدث، تجمهروا خارج القاعة إلى أن طلب منهم الضابط التفرق. قبل فتح التحقيق كانت الواقعة قد أثبتت: كراستان عليهما إسم الطالب ورقم جلوسه: واحدة أوشك على تسليمها خالية من أية إجابة، وثانية مستقرة بين باقى الكراسات مع الملاحظة، تحمل أوراقها إجابات مطولة على كل الأسئلة المطلوب الإجابة عليها! كان على التحقيق الوصول إلى شركاء الطالب، أستاذ واحد، أساتذة، موظف واحد، موظفين، وفى مقابل ماذا، مبالغ مالية، مكافآت عينية، مركز وظيفى؟ وكيف كانت تستبدل الورقة... إلخ

صدمة أولى. قاسية. "شجر، ليست الجامعة خارج المجتمع،

ما يحدث فيه يحدث فيها!" يوسف على حق ولكن البلاغ والنيابة والمخبرين وتحقيقات الشرطة...!

لــم تنتبــه للكراســة الموضوعــة علــى مكتبــها إلا فــى اليــوم الرابــع لرحيــل جدهــا. متــى وضعــها؟ هــل كــان ينــوى كتابــة المزيــد ثــم أحــس بــالموت يلمــس كتفــه فسـارع بوضــع هديتــه علــى مكتبــها. بدأت شجر فــى قــراءة المكتــوب:

اهداء

أقدم هذه الصـــورة مـــن تـــاريخ حيـــاتى إلـــى حفيدتـــى وقـــرة عينـــى الأنســـة شـــجر محمـــد عبـــد الغفـــار المعلمـــة بقسـم التـــاريخ بالجامعـــة المصريـــة هديـــة متواضعـــة لـــها بمناســبة حصولـــها علـــــى درجـــة الماجســتير بتقديـــر ممتـــاز ســائلا الله القـــادر أن يديـــم عليـــها نعمـــة العلم ويرضى عنـــها ويرضيـــها، إن ربـــى ســـميع الدعـــاء.

بســم الله الرحمـــن الرحيـــم والحمـــــد لله رب العـــــالمين والصـــــلاة والســـلام علـــى ســـيدنا محمـــد النبـــى الأميـــن. أمـــا بعـــد فـــهذه مذكـــرة بتاريخ حياة العبد الفقير إلى ربــــه الكريـــم عبـــد الغفـــار بـــن علـــى زيـــن

العابدين. والدته صالحة بنت حسن الخوّاص.

ولدت تقريبا عام ١٨٩٧ فى قرية زريبة الأشراف (العدلية الآن) بالقرب من بلبيس بمديرية الشرقية. ولم تكن هذه القرية هى بلدنا الأصلى بل نزل فيها أبى قادما من قرية الزرابى فى صعيد مصر قبل ولادتى بخمس سنوات (كان أبى خلّف وراءه فى الزرابى زوجته الأولى وبنتين وثلاثة أولاد) . ولم يحك لى أبى سبب تركه لبلده واختياره لزريبة الأشراف للإقامة وربما كان بنيّته أن يخبرنى عن تفاصيل ذلك عندما يشتد عودى ولكن وافته المنيّة ولم أبلغ السابعة من عمرى. حكى لى أبي عن جدتى شجر وعن أبيه وأخواله الذين ذهبوا إلى ساحات الحفر فى منطقة القنال ولم يعودوا أبدا. ولا أدرى إن كان أبى شرّق باتجاه الاسماعيلية بعد مغادرته المركب فى ميناء امبابة لتنفيذ وصية والدته بزيارة قبر أبيه وأخواله أم لسبب أخر. نزل أبى زريبة الأشراف واستقر فيها ثم تزوج واحدة من بناتها ولا أظن أنه تمكّن من زيارة قبر والده وأخواله رغم تعدد زيارته لتلك الناحية، والأرجح أنه لم يجد علامة يستدل بها على مقابر من ماتوا فى ساحات الحفر.

سبب تغيير إسم الزريبة إلى العدلية

فى القرن السادس عشر نزح إلى مدينة بلبيس بمديرية الشرقية ثلاث إخوة من سادة بنى هاشم من قبيلة قريش قادمين

من الطائف بالحجاز. وكان سبب انتقالهم إلى مصر خلافا نشأ بينهم وبين الشريف عون، حاكم مكة. وكان ثلاثتهم غير راضين عن حكمه يعلنون أنه رجل ظالم لايراعى الحق ولا شريعة الله. هذا ما قالوه وتناقلته الأجيال. أنشأوا بلدة زريبة الأشراف واستقروا فيها وواصلوا عملهم فى زراعة وتجارة الحناء فى مصر والحجاز والعراق.

فى طفولتى كان هناك شخص من عائلة الحناوى التى أسست البلدة إسمه محمد صالح ترقى إلى وظيفة رئيس محكمة الاستئناف بالقاهرة. وكان الخديوى عباس الثانى ابن الخديوى توفيق يملك حوالى ألف فدان أطيان رملية ناحية أنشاص بالشرقية ويرغب فى زيادة أملاكه فى هذه الجهة فكان يوعز لرجال الضبط والعمد وموظفيه بإقناع ملاك الأراضى المجاورة بالتنازل عنها. من يريد منهم أن يحصل على رتبة بيك يكتب عقدا خالص الثمن بمائة فدان باسم ولى العهد عبد المنعم، ومن يرغب فى لقب باشا يكتب عقدا بمائتى فدان. أما من يرفض التنازل عن أرضه فكان رجال الخديوى وموظفوه يغمرون الأرض المجاورة لأرضه بالماء، ولأن جميع الأطيان فى تلك الناحية رملية ترشح على بعضها يتعذر عليه زراعة الأرض فتبور فيضطر إلى التنازل عنها لولى العهد أو بيعها له بثمن بخس. وبهذه الطريقة تمكن ولى العهد من امتلاك ثمانية آلاف فدان.

هناك عائلة فى تلك المنطقة تمسكت بحقها ورفضت التنازل أو البيع حتى عندما تعذر عليها زراعة الجزء الأكبر من الأرض فأمر الخديوى عماله بوضع اليد على جميع أطيانها

باعتبارها منافع عامة فرفعت العائلة دعوى أمام محكمة الزقازيق ضد الخاصة الخديوية ولكن المحكمة حكمت لصالح الخديوى فقامت العائلة بالاستئناف أمام محكمة مصر. وكان رئيس المحكمة محمد صالح الحناوى. نظر القضية والحكم الابتدائى فلم يقبل الظلم وقرر أن يحكم بالعدل حتى لو فقد حياته. وفعلا ودع أولاده قبل الجلسة بيوم واحد لأنه يعلم علم اليقين أن الخديوى سيقتله إذا حكم ضده. توجه محمد صالح إلى المحكمة وحكم على الخاصة الخديوية برد الأطيان لأصحابها وإلزامها بالتعويض ومصاريف القضية والأتعاب. وبعد ساعتين جاءه طلب من سراى عابدين لمقابلة الجناب الخديوى.

قال له الخديوى:

- أنت القاضى الذى حكمت ضدى اليوم؟

فأجابه:

- أنا حكمت بما يرضى الله ويرضى ضميرى.

سأله:

- ما اسمك؟

- إسمى محمد صالح الحناوى.

- من أى بلد؟

- أنا من بلدة صغيرة بجوار بلبيس إسمها زريبة الأشراف.

قال له الخديوى:

- أنت منذ اليوم إسمك محمد صالح عدلى وبلدك إسمها العدلية.

فى اليوم التالى صدرت الجرائد وعلى صفحاتها الأولى بالخط العريض أن الخديوى أكرم القاضى الذى حكم ضده. وكان لهذا الموضوع رنة فى مصر كلها وكانت العائلة الخديوية تتباهى به.

طفولتى

لم أعد أذكر ملامح والدى ولكنى أذكر أنه كان يحب أكل البلح وشرب الشاى وأنه كان يلبس (العربى) عبارة عن جلابية كبيرة بأكمام واسعة جدا يسع الكم ربع أردب قمح وكنت ألعب معه كثيرا فأدخل فى كمه الكبير وأمر على جسمه وأخرج من الكم الثانى. وكان يلبس سروالا من البفتة. وكان كريما جدا رغم أنه كان مزارعا رقيق الحال. وكان عند حضوره للمنزل للعشاء يكلفنى بأن أجمع الخبز الفائض من على الطبلية وأنتظره فى الشارع ليأخذه للفقراء فى الجامع أما والدتى فكانت تمانع فى التفريط فى الخبز ولذلك تعودت على سرقة الخبز المتبقى كل ليلة لأعطيه لوالدى.

توفى والدى فى آخر عام ١٩٠٤ وكنت فى حوالى السابعة من عمرى. كانت الناس تموت فى الشوارع بسبب الوباء الذى كنا نسميه "الشوطة" أو "الكوليرا". وكانت العائلة المكونة من

ثمانية أشخاص يموت منها فى اليوم الواحد اثنان أو ثلاثة. وكانوا يأخذون الموتى من المنازل على عربات كارو ويدفنونهم كما هم بملابسهم بدون غُسل ولا صلاة فى حفرة كبيرة فى الجبل. رأيت بعينى وأنا طفل السلالم التى أرسلتها الحكومة. فى كل شارع عمومى وضع سلم جوز كبير وثلاثة عمّال يحمل كل منهم جردل صاج ومقصا كبيرا. يقف أحد العمال على أعلى السلم ويقص الهواء بالمقص ويضعه فى الجردل ويغطيه ويناوله للعامل الثانى الذى يناوله للعامل الثالث فيغطى الهواء بالرمل وكانت هذه هى طريقة مقاومة العدوى حسب أوامر الحكام الانجليز فى ذاك الوقت الغابر. حفظنا الله من شر حكم الأعادى.

الحالة الاقتصادية والاجتماعية بين ١٩٠٤ و١٩٠٦

بعد وفاة والدى انتقلنا الى بلبيس للإقامة مع خالى وأنشأت والدتى مشغل لخياطة ملابس السيدات والرجال وكان يساعدها فى المشغل فتاة صغيرة. وكانت أمى تحصّل من هذا المشغل المال الضرورى لمعيشتنا اليومية. كانت تعطينى قرش خردة أشترى به طبخة ملوخية أو بامية وطماطم (وكان اسمها بنادورة) وبصل وبرسيم للأرانب. كان القرش الصاغ يساوى ٨ قروش خُردة، والقرش الخُردة وزنه ١٢ درهم ومكتوب على أحد وجهيه "ضُرب فى القسطنطينية" وعلى الوجه الثانى:

"عبد الحميد خان عبد المجيد". ويوجد نصف القرش الخردة وهو عشرين خردة ووزنها ٦ دراهم من النحاس الأحمر، وربع القرش الخردة ووزنها ٣ دراهم. وكان بعض البياعين يستخدمونها فى وزن السلع بدل السنج. وكانت والدتى تعطينى أجرة حلاقتى عشرين خردة فكنت أحتفظ بنصفها وأعطى الحلاق عشرة خردة وهى تساوى ١/٣٢ من القرش صاغ. كان الزبون يعطى الأجرة للحلاق فيأخذها منه ويضعها فى جيبه دون أن يراها حتى لو كانت يد الزبون فارغة. لذلك كان الله يبارك لهم فى حياتهم.

كانت قربة الماء الكبيرة بعشرين خُردة والصغيرة بعشرة خُردة، ورطل اللحم بقرش صاغ، والفرخة الكبيرة بقرش ونصف، والوزة بقرشين، والعشرين بيضة بقرش صاغ، ورطل الزبدة بقرش ونص، ورطل السمن البلدى بقرشين، وأردب القمح بستين قرش، وأردب الفول بأربعين قرش، وأردب الذرة بخمسة وثلاثين قرش. وأجرة المنزل المكون من دورين، كل دور ثلاث غرف عشرة قروش. وكانت الجاموسة الوالدة مع نتاجها بين أربعة وخمسة جنيه، والبقرة الوالدة مع نتاجها بثلاثة جنيه، والحمار الحصاوى العال بجنيه، والخروف بخمسين قرش، والجدى بخمسة وثلاثين قرش. وكانت الخضراوات تباع بالشروة (بالمشنّة) بدون وزن. مشنّة البلح بقرش صاغ، ورطل عسل النحل بقرش تعريفة، ورطل عسل

القصب بقرش خردة، ورطل الطحينة بثلاثة قروش خردة، ورطل زيت السمسم (السيرج) بنصف قرش.

كانت الدايات والحلاقون هم المعالجون وكان هناك طبيب واحد فى البلد يذهب إليه الأغنياء وكان رجلا تركيا يدعى بسيم والكشف عنده بقرشين صاغ. وكانت أجرة تفصيل وخياطة القفطان قرشين صاغ وأجرة الجلابية ومعها الصديرى قرش واحد. وكان الصابون قليلا جدا ولا يستخدمه سوى الأغنياء. وكانت شركة الملح أول من صنع الصابون فى مصر فارتبط بيع الصابون بالملح فكان على من يرغب فى شراء أقة ملح أن يشترى قطعة صابون بربع قرش ومن لا يشترى الصابون لا يسمح له بشراء الملح. ولم تكن الغالبية العظمى من الناس تستخدم الصابون، كانت البنات والنساء يأخذن الملابس المراد غسلها إلى الترعة ومعهن مدقة خشب ويضعن الملابس فى الماء ثم يخرجنها ويضعنها على حجر كبير وينزلن عليها ضربا بالمدقة حتى تزول عنها البقع وتصير نظيفة. أما الزهرة فلا تستعمل إلا لشال العمة.

فى سنة ١٩٠٥ ظهرت البطاطا وكان لها وقع عظيم وكانت تعد من الفواكه المهمة لأنها تغذى الفقير بالثمن القليل. وفى سنة ١٩١٢ ظهرت المانجة وجاءت أشجارها من الهند. وكان التفاح يباع على عربات اليد الأقة بقرش صاغ أما معظم الفواكه الأخرى فتباع بالشروة بدون وزن. وكان العنب يباع

فى الجناين بالوزنة والوزنة مشنة كبيرة حوالى عشرين أقة بخمسة قروش ومشنة البلح عشر أقات بقرش واحد. وكانت معاملة تجار الجملة وتجار المنازل والأطيان بالكيس. يقول الانسان أنا اشتريت المنزل الفلانى بعشرة أكياس، والكيس قيمته عرفا جنيهان ونصف. ويقول آخر أنا زوجت ابنتى فلانة بعشرة أكياس واشتريت الفدان الفلانى بثلاثة أكياس، أو يقول اشتريت هذا الحصان العربى الأصيل بأربعة أكياس ولا أبيعه حتى لو جاءنى فيه ستة أكياس.

وكان الجنيه الذهب المرسوم عليه ملك الانجليز يساوى سبعة وتسعين قرشا ونصف، والجنيه المرسوم عليه الملكة يساوى سبعة وتسعين قرشا، والجنيه البنتو ويسمى بالجنيه الفرنساوى قيمته ستة وسبعين قرشا واثنين على عشرة.

فى سنة ١٩٠٦ كان الخديوى عباس يحضر كل يوم أربعاء لمزرعته فى إنشاص وفى بعض الأسابيع يعلن أنه سيحضر فى محطة بلبيس ثم يعود إلى القاهرة. وكان له قطار خاص بعربة واحدة وكان يسوق الوابور بنفسه لأنه كان يعلم الكثير عن المكانيكا والبخار. كان السواق والعطشجية يرافقونه ولكنه هو الذى يقود القطار وهو يلبس بدلة كاكى وطربوشا طويلا مثل لبس العساكر. وفى اليوم الذى يحضر فيه لمحطة بلبيس يخرجنا أسيادنا المشايخ من الكتاب لانتظاره بالمحطة وما إن نراه حتى نقول بصوت واحد: "مرحب بخديوينا عباس" فيضع

يده فى جيبه ويرمينا بعملات فضية من ذات القرشين فنسارع لالتقاطها، البعض منا يحصل على قطعة أو اثنتين والبعض الأخر لا يحصل على شيء. ثم نعود إلى الكتاب ونعطى للمشايخ نصف ما ربحناه.

نبذه عن حياتى الدراسية

دخلت كتاب الجامع الكبير ودرست فيه أربع سنوات من ١٩٠٤ إلى ١٩٠٨ حفظت فيها نصف القرآن وتعلمت الكتابة والقراءة. كان لكل تلميذ منا لوح صفيح يكتب عليه بالحبر الأسود والقلم الغاب أو البسط . وكنا ندفع المصروفات يوم السبت من كل أسبوع وهى نصف قرش ورغيف مرحرح، أما غير القادرين من التلاميذ فكانوا يأتون برغيف مرحرح بدون نقدية. وكان الإيراد الأسبوعى للكتاب مشنتين عيش وحوالى خمسين قرشا يقتسمها أسيادنا المشايخ.

كنت دائما أهرب من الكتاب لأن أسيادنا المشايخ كانوا يضربوننا بقسوة ويستخدمون الفلقة وهى عبارة عن عمود من خشب غليظ مربوط فى وسطه حبل من القنب. يدخلوان رجلى التلميذ فى الحبل ويلفوه عليه واثنين من التلامذة يرفعان رجليه بالفلقة أمام سيدنا وهو يظل يضرب بالعصى الخيزران أربعين أو خمسين مرة حتى أن التلميذ المضروب يظل حوالى ست ساعات عاجزا عن المشى على قدميه وكانوا يقولون أن

عصاية فقى الكتّاب من الجنة وانا أقول إنها من النار.

حياتى فى المرض

كان سنى اربع سنوات حين مرضت بالحُمّى. حاولت أمى أن تسقينى زيت خروع ولكنى رفضت واجتمعت الجارات علىّ لإقناعى ولكنى لم أقبل. قلت لن آخذ الشربة إلا إذا أحضرتم لى أرنبا فسارعت إحدى الجارات بإحضار أرنب من دارها فقلت أريد أرنبا ثانيا ليلعب مع الأرنب الأول فقامت نفس الجارة وأحضرته لى فقلت: هاتوا لى ناقة بيضاء. وكانت أمى غاضبة تفكر فى طريقة لإرغامى على تناول الشربة عندما وصلت الداية التى حضرت ولادتى والتى كنا نعتبرها طبيب العائلة فلفتنى فى بطانية وحملتنى إلى ميضة الجامع وألقت بى فيها ثم نشلتنى منها ولفتنى فى البطانية وعادت بى إلى البيت. وكانت ميضة الجامع تستعمل للوضوء قبل ظهور الحنفيات وهى عبارة عن بركة يبدلون ماءها مرة فى الأسبوع. ولم يكن ماؤها نظيفا لأن المصلين يتوضأون فيها وبعضهم غير نظيف. ومع ذلك فقد شفيت من الحمى ولم أمرض بعد ذلك مطلقا ويبدو أن هذه الطريقة أعطتنى مناعة ضد العدوى من كل الأمراض.

نبذة عن بداية حياتى العملية

فى عام ١٩٠٨ وكنت فى الحادية عشرة من عمرى أخذنى أحد أقارب أمى وكان يعمل فى البنك الزراعى المصرى فى بلبيس لأتدرّب على الكتابة والحساب. وكان هذا الشخص كريما فسمح لى أن أكتب للفلاحين استمارات السُلفة التى يطلبونها من البنك فى مقابل نصف قرش عن كل استمارة. فكان مكسبى اليومى بين قرش وقرشين. فأعطى هذه المبالغ لأمى. وبعدها بعام ساعدنى هذا الشخص نفسه على تعيينى فى وظيفة كاتب فى مزرعة بطيخ ناحية بنى صالح تبع دائرة سمو الأميرة نعمت هانم مختار (وهى ابنة الخديوى اسماعيل وسميت بلقب مختار نسبة إلى زوجها مختار باشا فى تركيا). وكان أجرى اليومى قرشين صاغ وبطيخة. وكنت أبيع البطيخة بنصف قرش. وبعدها انتقلت للعمل فى بردين وموقعها بين بلبيس والزقازيق وبها من الأطيان أربعة آلاف فدان كانت ضمن أملاك الخديوى اسماعيل وبعد وفاته قسمت مناصفة بين ابنتيه أمينة ونعمت مختار. فكان نصيب كل منهما ألفى فدان.

وفى عام ١٩١٥ انتقلت للقاهرة وعملت بمحل الحاج السيد على تاجر نحاس بشارع بيت القاضى بالجمالية. ولم تكن القاهرة مزدحمة وكانت مواصلاتها سهلة. كانت الحمارة تقف فى الميادين لتوصيل الناس لأشغالها بأجر زهيد. وكانت لشركة الصبان عربات صندوق تجرها خيل أوبغال، وأجرة توصيل

الشخص من سيدنا الحسين إلى العتبة الخضراء ٢ مليم، ومن سيدنا الحسين للقلعة ٣ مليم، ومن سيدنا الحسين للسيدة زينب ٥ مليم، ومن العتبة الخضراء إلى السبتية مرورا بباب الحديد ٥ مليم.

أم كلثوم

استمعت إلى أم كلثوم للمرة الأولى عام ١٩١٧ وذلك قبل انتقالها للإقامة فى القاهرة بتسع سنوات. وكان الحاج سيد على تاجر النحاس الذى أعمل عنده قد رزق بولد بعد سبع بنات فقرر أن يحيى ذكرى الإسراء والمعراج بليلة يتحاكى عنها الأهل والجيران. أرسلنى الحاج إلى قرية طماى الزهايرة للالتقاء بالشيخ ابراهيم السيد والاتفاق معه أن يأتى إلى القاهرة برفقة ابنته الشيخة أم كلثوم لانشاد السيرة النبوية فى منزله فى القاهرة. وفعلا سافرت إلى السنبلوين ومنها إلى طماى الزهايرة واتفقت مع الحاج أن تحيي ابنته الليلة فى مقابل ثلاثة جنيهات شاملة الأجر ومصروفات الانتقال وعدت إلى القاهرة بنص العقد المكتوب موقعا عليه من الشيخ ابراهيم.

فى يوم ٢٦ رجب وصل الشيخ ابراهيم ومعه ابنه وابنته ولما رأى الحاج أم كلثوم أحمر وجهه من شدة الغضب ثم انتحى بى جانبا ووبخنى وقال إن الليلة ستنقلب إلى مهزلة وجرسة وسيظن الناس أنه بخل عليهم بمنشد فجاءهم بهذه

الطفلة ولن يصدق أحد أنه دفع لها ثلاثة جنيهات! طلب منى الحاج أن أذهب، إنقاذا للموقف، للبحث عن الشيخ اسماعيل سكر وكان من كبار المنشدين ولكنى وجدته يستعد للذهاب إلى حلوان لإحياء الليلة فى سراى عز الدين بك يكن. عدت إلى الجمالية لأخبر الحاج بالأمر. فسبنى وكنت أعرف أنه ما إن تنتهى الليلة حتى يطردنى من عملى.

ظهرت أم كلثوم: صبية صغيرة فى الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من عمرها ترتدى معطفا رجاليا وتغطى رأسها بكوفية وعقال. سرى بين الحاضرين لغط بين مندهش ومستنكر ولكنها ما إن بدأت تنشد حتى صاروا يتمايلون طربا ويستعيدونها وقلت لنفسى وإن فقدت عملك يا ولد، هذه ليلة من ليالى العمر واليوم خمر وغدا أمر. فى نهاية الليلة كان الحاج سعيدا لدرجة انه أعطانى خمسين قرشا هكذا بلا مناسبة!

من يومها صرت أعشق غناء أم كلثوم وأذهب إلى كل مكان تغنى فيه إذا ما تيسر لى ذلك. تسبب هذا الأمر فى مشاكل بينى وبين زوجتى. كانت تقول اننى أبدد النقود فى الهلس فأغضب لوصفها غناء أم كلثوم بأنه "هلس" فأقول لها إنها جاهلة. وفى عام ١٩٢٦ أصدرت شركة أوديون للاسطوانات ١٤ أسطوانة لأم كلثوم فلم أستطع أن أصبر أكثر من ذلك. أشتريت غرامافون والأسطوانات الأربع عشرة وبدلا من أن تفرح زوجتى بهذه النعمة صاحت فى وجهى قائلة: "وتأتى بها إلى

بيتى لتشاركنى فيه!" وغادرت إلى بيت أهلها. حاولت مصالحتها ولكنها أصرت ألا تعود إلى البيت إلا بعد خروج الغرامفون منه. فذهب كل منا إلى حال سبيله.

واقعة مفعول به يا محمد افندى

فى سنة ١٩١٩ كنت أعمل فى الجمالية وأسكن فى نفس الحى وكان لى أصدقاء من طلاب الأزهر. وقد اشتركت معهم فى الإضراب منذ اليوم الأول وكان ذلك يوم الاثنين ١٠ مارس وهو اليوم الثانى للثورة لأن طلبة مدرسة الحقوق والمهندسخانة ومدرسة الزراعة كانوا سبقونا إلى الاضراب يوم الأحد.

فى الأيام التالية كان طلاب الأزهر يخرجون من الأروقة فرادى أو فى مجموعات صغيرة ثم يجتمعون فى الميدان ويفاجأون الانجليز بالمظاهرة. فى ذلك اليوم حملت الشيخ عبد العزيز على كتفى، وكان يتميز بصوت جهورى وقدرة على ارتجال هتافات مؤثرة. بدأ يهتف ونحن نهتف وراءه حتّى ظهر الإنجليز وبدأوا فى اطلاق النار. اضطربت الصفوف فاختل توازنى فسقطنا أنا والشيخ عبد العزيز على الأرض. رفع زمّيل آخر شابا من المتظاهرين على كتفيه، وكان من الأفندية، فعلا صوته بالهتاف: "تفدى الوفد بالأرواح"! فصاح الشيخ عبد العزيز بصوته الهادر: "الوفد يا محمد افندى، الوفد: مفعول به يا محمد افندى!" جذبته من يده و"زغدته" قائلا: احنا فى إيه

والا فى إيه يا شيخ عبد العزيز. قوم فز حانوت دهس تحت الرجلين. قال: مش قادر. حملته فواصل الهتاف حتى وأنا أركض به للاحتماء من الرصاص. كانت ساقه مكسورة وظل حتى بعد أن حملته إلى المجبر يقول فى استنكار. نحمى الوفد، يرفع المفعول به، سبحان الله، أفندية آخر زمن! خف إيدك شوية يا حاج. الوجع شديد، شديد قوى!"

واقعتان لم أشهدهما بعينى ولكنى سمعتهما من رجل من الثقات

روى الحاج محمد عبد العال وهو تاجر جملة ونصف جملة عملت فى الوكالة التى يملكها فى الفترة من ١٩٣٢ إلى ١٩٤٢ قال: "كانت دائرة سمو الأميرة أمينة إسماعيل وولدها البرنس طاهر باشا تأخذ طلبات السراية من محلاتى بالشهر. وكنت أول كل شهر أكتب فاتورة وأتوجه إلى الدائرة لاستلام حسابى. وفى مرة ذهبت لتحصيل قيمة الفاتورة فقال لى الباشكاتب إن دولة الباشا طاهر فى نادى الفروسية فانتظر حتى يأتى ويعطيك حسابك. فانتظرت. فى هذه الأثناء حضر الملك فاروق فى سيارة صغيرة جدا يسوقها بنفسه وكان يلبس نظارة سوداء. دخل الدائرة فقابله الباشكاتب. سأله الملك: "إنت مين؟" فأجاب: "أنا الكاتب"فقال له: "إسمك إيه؟" قال: "محمود" قال الملك: "يا محمود أنا عطشان هات لى كوباية مية حالا" فذهب الباشكاتب مسرعا إلى السراية التى تبعد حوالى مائة متر عن مكتب

الدائرة لإحضار الماء. وفى الحال دخل الملك مكتب طاهر باشا وكنت أنظر إليه من خلف الشباك فوجدته يأخذ شيئا من على المكتب ويضعه فى الجيب الخلفى لبنطلونه ثم خرج وركب السيارة وعاد إلى سراى القبة. وبعد دقيقة حضر الباشكاتب يجرى ومعه دورق ماء وكباية وخلفه ثلاثة من الخدم وسألونى عن الملك فقلت لهم إنه دخل مكتب طاهر باشا وأخذ حاجة من عليه ووضعها فى الجيب الخلفى لبنطلونه فدخل محمود أفندى يتفقد الناقص من المكتب وخرج وقال إن الملك سرق تمثال الخديوى اسماعيل وهو تمثال صغير من الذهب الخالص مرصع بالأحجار الكريمة وكان هذا التمثال من نصيب الأميرة أمينة عند تقسيم تركة أبيها وهو يساوى أربعة آلاف جنيه.

وعندما حضر طاهر باشا أخبره الباشكاتب بما حدث فقال: ابن الكلب! طلبه منى عدة مرات فلم أقبل إعطاءه له." وفورا ذهب إلى سراى القبة وقابل الملك وطلب التمثال فقال الملك: "هذا تمثال جدى وأنا أحق به من غيرى!" فرد طاهر باشا: "صحيح إنه تمثال جدك ولكن والدتى أخذته ضمن نصيبها عند تقسيم التركة." فرد عليه الملك: "أنا الوارث الوحيد للعائلة المالكة، وأنا الملك!" فعاد الباشا بخفى حنين."

حادثة أخرى عن الملك فاروق

حدثنا الحاج محمد عبد العال قال: "كانت دائرة سمو الأميرة أمينة اسماعيل وولدها الأمير طاهر باشا قريبة جدا من سراى القبة. وفى مرة أقام الملك حفلا كبيرا فى السراى ودعى له عظماء مصريين وأجانب. وكان لدى الأميرة أمينة طقم سفرة كامل من الفضة المطلى بالذهب وعليه نقش التاج وإسم الخديوى إسماعيل أخذته ضمن نصيبها فى تركة والدها. طلب الملك الطقم لاستعماله فى الحفلة وإعادته بعدها فأرسله الباشا. وبقى هذا الطقم فى المطابخ الملكية ونسى طاهر باشا استعادته بل نسى أنه أعاره للملك. وفى يوم طلب طاهر باشا جرد المطابخ فلم يجدوا هذا الطقم. فأبلغ الباشا النيابة واتهم الباشكاتب الذى كانت مفاتيح العهدة فى حوزته. قبض على الباشكاتب وحكم عليه بالسجن وفصل من عمله. وكان الباشكاتب صديقى وكنت أعرف أنه مظلوم فكنت أزوره فى سجن الاستئناف فى باب الخلق من حين لآخر. ولما أراد الله أن يظهر الحق حضر أحد طباخين الملك للصاغة ومعه طبق فضة مطلى بالذهب وعليه التاج واسم الخديوى اسماعيل وكان يرغب فى بيعه. فأبلغ الصانع قسم الجمالية فقبض على الطباخ الذى اعترف بالسرقة وحكم عليه بالسجن. وأفرج عن الباشكاتب بعد أن قضى مدة طويلة فى السجن بلا ذنب."

الفصل التاسع

لم يترك لى جدى لأبى كراسة ألفها فى المخمل وأحفظها فى خزانتى إذ ولدت بعد وفاته بثلاث سنوات. وكان أبى حين يأخذنا إلى بلبيس، يتوقف عند مدخل البلدة حيث المقابر ليقرأ الفاتحة على قبر أبيه فنحذو حذوه. نذهب مرة فى العام أو مرتين. أذكر بوابة الدار، بوابة خشبية عتيقة لها سقاطة. ردهة ترابية مسقوفة. حجرات شبه مهجورة فى الطابق الأول. سلم خشبى متهالك. أقارب لنا يسكنون الطابق الثانى. أذكر نخلتين فى فناء واسع ودارا أصغر يسكنها عم أبى.

أبى يأخذنا إلى بلبيس بسيارته الهلمان السوداء، تستغرقنا الطريق ساعة. الطريق إلى بيت جدى لأمى فى حلوان تستغرق وقتا مماثلا أو ربما أكثر قليل. تحملنا سيارة أجرة إلى محطة باب اللوق. نركب القطار. يتوقف فى السيدة زينب، مار جرجس، المعصرة، المعادى، طرة، طرة الأسمنت، العين. مجرد أسماء فى عالم طفولتنا لن تمتلئ بالمعنى إلا لاحقا. ننزل

من القطار في محطته الأخيرة. على باب المحطة رائحة الخيول وصف الحناطير. لكل منها حوذي مستقر في مقدمة العربة، في يسراه لجام وفي يمناه سوط. نركب. تقول أمي: 'بيت عزام في شارع خسرو، يا أسطى لو سمحت'. يرفع الحوذي سوطه، ينزل به على ظهري الحصانين. يتحركان حركة مفاجئة، ترتج العربة ثم ينتظم اهتزازها مع انتظام قوادم الحصانين. أمي على المقعد الكبير، على جانبيها حاتم ووائل. 'الكبار'- أنا وطارق- على الأريكة الصغيرة أمامها. لا نملك الالتفات وراءنا لمشاهدة الحوذي فنتابع وقع حوافر الحصانين على إسفلت الطريق منتظما يتماشى مع كركرة العجلات وقرقعة السوط يقطعها بين حين وآخر صهيل مباغت. في البيت أسماء ورقية. أسماء قمحية اللون، صغيرة الحجم، إنها جدتي. رقية، سلفتها، ممتلئة بيضاء، تحب القطط. 'ست رقية' تقول أسماء. ورقية لا تنادي سلفتها إلا 'بست أسما'. تتعازمان على الطعام في كل وجبة، تحافظان على الود والمسافة والألفة مع الكلفة، هكذا لأكثر من ستين عاما عاشتا فيه تحت سقف واحد. وقد يأتي للبيت صاحب حاجة يقيم فيه أسابيع أو شهورا. أم دقدق، في الصيف، تجلس متربعة على سجادة صغيرة على عتبة السلم، لأنه 'طراوة'. كف بصرها أو كاد. صامتة تفكر في شيء أو آخر. تنشر رائحة البن على السلالم بمطحنة صغيرة تملؤها بين حين وآخر بحفنة من حبوب القهوة

المحمصة. حين تفرغ من ذلك تعود إلى ما جمعته من بقايا أقمشة، شرائط ومزق تلفها في كرة كبيرة سوف تتهمك لاحقا في استخدامها لتصنع منها بساطا ملونا زاهيا.

- أم دقدق إحكي لي حكاية أمير اللوا
- صلي ع النبي
- اللهم صلي عليه
- كان يا ما كان ياسعد يا إكرام في سالف العصر والأوان فار وفارة. وفي يوم من ذات الأيام الفار والفارة لقوا بيضة. الفار يقول دي بيضتي والفارة تقول دي بيضتي. إتعاركوا، راحوا للقرد يحكم بالعدل ما بينهم. القرد كسر البيضه نصين و شربها وأعطى نص القشرة للفار ونصها التاني للفارة. نعمل إيه، نعمل إيه؟ الفار والفارة قالوا نعمل مركب. نزلوا في بحر النيل وعملوا قشرة البيضه مركب. جت الفرخة، قالت:

- مركب مين السابرة النايرة؟

قالوا:

- مركب الفار والفاره.

قالت:

-.وانا الفرخة الصفرا النقارة.

نطت في المركب ركبت معاهم.

جه الديك. سأل:

- مركب مين السايرة النايرة؟

قالوا:

- مركب الفار والفارة والفرخة الصفرة النقّارة.

قال:

- وأنا الديك أبو الدويكة اللى بيدن ع الحيطة.

نط ركب معاهم. جه الخروف، شافهم، قال:

- مركب مين السايرة النايرة؟

قالوا:

- مركب الفار والفارة والفرخة الصفرة النقّارة والديك أبو الدويكة اللى بيدن ع الحيطة.

قال:

- وانا الخروف اللى صوفه بيتباع بالفلوس.

ركب. جه الجمل، سألهم:

- مركب مين السايرة النايرة؟

قالوا:

- مركب الفار والفارة والفرخة الصفرة النقارة والديك أبو الدويكة اللى بيدن ع الحيطة والخروف أبو صوف يتباع بالفلوس.

قال:

- وانا جمل الجمال حمال الاحمال.

ونط فى المركب معاهم. جه البرغوت. سألهم:

- مركب مين السايرة النايرة؟

قالوا:

- مركب الفار والفارة والفرخة الصفرة النقارة والديك أبو الدويكة اللى بيدن ع الحيطة والخروف أبو صوف بيتباع بالفلوس وجمل الجمال حمال الأحمال.

قال البرغوت:

- وانا أمير اللوا.

نط البرغوت فى المركب غرقت. طلع البرغوت مبلول وطار على مراته ست البدور لاقاها مولعة البابور وبتسخن ميه عشان تستحمى.

قال:

- بردان، دفينى.

وقرب من النار عشان يدفى، طق مات. مراته حلت شعورها.

شافها الغراب، سألها:

- مال ست البدور حله الشعور؟

فردت عليه مرات البرغوت:

- ست البدور حله الشعور أمير اللوا وقع فى النار بقى شوا!

قال:

- وانا الغراب عرندليش!

طار الغراب ع النخلة، سألته:

- مال الغراب عرندليش؟

رد عليها:

- الغراب عرندليش، ست البدور حلة الشعور أمير اللوا وقع فى النار بقى شوا!

النخلة قالت

- وانا النخلة قراقوش!

الميه شافت النخلة، سألتها:

- مال النخلة قراقوش؟

ردت النخلة:

- النخلة قراقوش، والغراب عرندليش، ست البدور حله الشعور أمير اللوا وقع فى النار بقى شوا

الميه قالت:

- وانا الميه قطعون!

تواصل زكية أم دقدق حكايتها، أتابعها أو أقفز فجأة لأشارك فى اللعب مع بقية الأولاد والبنات.

لا أذكر جدى فى هذا البيت، بيته. رأيته فيه ونسيت، ربما. عندما كبرت قليلا كان سافر إلى الهند ليصبح أول سفير مصرى فيها بعد استقلالها. والأرجح أنه عين فى هذا المنصب معارا من الجامعة لأنه كان أستاذا للغات الشرقية يتقن اللغة الأردية فضلا عن الفارسية وهى تخصصه الأول.

توفى جدى وأنا فى الحادية عشرة من عمرى. الصورة الأكثر وضوحا له فى مخيلتى، ربما فى العام السابق مباشرة على وفاته.

أجازة صيف. بيت أبى قير يملكه عم جدى وتقيم فيه صيفا ابنته وزوجها- أخو جدى- وأولادهما. شرفة خشبية واسعة تشرف على أرض مزروعة بالنخيل، ومن وراء النخيل البحر. الوقت ليلا لا نرى الشباك الكبيرة المثبتة فى جذوع النخيل لاصطياد السمان المهاجر. حلقة من الأطفال المتربعين على الأرض ينصتون إلى رجل يجلس بينهم، فارع الطول، وسيم الملامح، قمحى اللون، له شارب اكتسى ببعض الشيب. يحكى لهم بسلاسة وعذوبة عن أرنباد. (هل كانت قصة من "كليلة ودمنة" أم قصة نسجها على منوالها). حكى طويلا ولما غلب النوم واحدا من الصغار قال غدا أكمل لكم الحكاية. هل أكملها؟ لا أذكر. أذكر خالتى واقفة فى هذه الشرفة تقول إنها لا تصدق أنها ستبلغ الثلاثين، أتطلع إليها فأرى الثلاثين بعيدة وجميلة كضوء النجوم فى السماء. رحل جدى وهو فى الواحد والستين من عمره. لم أسمعه أبدا ينشد شعر المتنبى. ولم أكن أنا التى قلت لتميم أنه حقق شعره وكتب عنه. وجد تميم الكتاب فى المكتبة، قرأه ثم نقله إلى حجرته. تميم يكتب الشعر كأبيه، وجدى أيضا كان ينظم الشعر ولكنه كان أستاذا جامعيا. أعرف معنى أن يكون المرء مدرسا، كأن فى المهنة شيئا يقيد الروح. لا أتخيل جدى يصيح كالمسكون بقصيدة تملكته، لا أتخيله إلا رزينا هادئا؟! هل كان دائما كذلك أم أن أننى لم أعرفه إلا بعد أن أصبح جدا؟ سألت أمى. قالت كان يترنم بالشعر. أذكره وهو

يتريض بالمشى أمام البيت، وهو يحلق ذقنه كل صباح، يترنم بالشعر بصوت خافت كأنه يغنّيه.

النوبة فى بيتنا تبدأ بتميم، يلقى القصيدة واقفا، صائحا، متمايلا، طائر الذراعين تؤشر يداه وتتشكل أصابع كفيه فى كل اتجاه:

أُريدُ من زمنى ذا أن يُبلّغنى   ما ليس يبلُغُهُ من نفسِه الزمنُ

تنتقل النوبة إلى أبيه:

لا تَلْقَ دهرَكَ إلا غيرَ مُكترثٍ   ما دامَ يصحبُ فيهِ رُوحَكَ البدنُ
فما يُديمُ سُرورٌ ما سُرِرتَ بهِ   ولا يَرُدُّ عليكَ الفائتَ الحزَنُ

يلتقيان فى صوت واحد:

تَحمّلوا. حمَلتْكُمْ كُلُّ ناجيةٍ   فكُلُّ بيْنٍ علَيَّ اليومَ مُؤتَمنُ
ما فى هوادِجِكُمْ من مُهْجَتى عوَضٌ   إن مِتُّ شوقاً، ولا فيها لها ثمَنُ
مِمّا أضرَّ بأهلِ العشقِ أنّهُمو   هوَوا وما عرَفوا الدنيا وما فطِنُوا
تَفْنى عُيونُهُمو دمْعاً وأنفُسُهُمْ   فى إثْرِ كلِّ قبيحٍ وجْهُهُ حَسَنُ
كم قد قُتِلْتُ وكم قد مِتُّ عِندَكمو   ثُمّ انتَفَضْتُ فزالَ القبْرُ والكَفَنُ
قد كان شاهَدَ دفنى قبل قولِهِمو   جماعةٌ ثم ماتُوا قبلَ من دفَنُوا
ما كلُّ ما يتمنّى المرْءُ يُدْرِكُهُ   تَجْرى الرياحُ بما لا تشتهى السُفُنُ

يعلو الصوت طَربا ومسموسا وضاربا عرض الحائط بجار نائم أو بامرأة، تحب الشعر، منهمكة فى هذه اللحظة فى غيره من الأمور. لا يسمحان بانفرادهما بمتعة الأبيات. يريدان

انتباهها والتفاتها ومشاركتها فى النوبة. المرأة جالسة على مقعدها. تتطلع إليهما: الولد الإبن والولد الأب، كبيران الآن، يقفان معا فى حيّز القصيدة، يتواصلان.

الأبيات غالبا للمتنبى. قد ينشدان لسواه، لأبى تمام أو لامرئ القيس أو لآخرين ولكنهما فى نهاية المطاف يعودان لأحمد حسين:

تميم:

نُعِدُّ المَشْرَفيّةَ والعَوالى   وتقتلُنا المَنُونُ بلا قتالِ

مُريد:

ونرتَبِطُ السَوابِقَ مُقْرَباتٍ   وما يُنْجِينَ من خَبَبِ اللّيالى

معا:

ومن لم يعشَقِ الدُنيا قديماً؟   ولكن لا سبيلَ إلى الوِصالِ
نصيبُكَ فى حياتِكَ من حبيبٍ   نصيبُكَ فى منامِكَ من خَيالِ
رمانى الدهرُ بالأرزاءِ حتى   فؤادى فى غِشاءٍ من نِبالِ
فَصِرْتُ إذا أصابَتْنى سِهامٌ   تَكَسّرَتِ النِصالُ على النِصالِ
وهانَ فما أُبالى بالرزايا   لأنّى ما انتَفَعْتُ بأن أُبالى

"يخرّب بيته أحمد حسين!" تعليق أخير يشى بختام النوبة. يذهب مُريد إلى المطبخ لإعداد كوب من القهوة ولكن تميم يبقى واقفا أمامى يطلب منى أن أسمع: "هذين البيتين فقط!":

أوَدُّ من الأيامِ ما لا تَوَدُّهُ   وأشكُو إليها بيْنَنا وهْىَ جُنْدُهُ

أبى خُلُقُ الدنيا حَبيباً تُديمُهُ — فما طَلَبى منها حبيباً تَرُدُّهُ

يأتى صوت مُريد من المطبخ:

عزيزٌ أسىً من داؤُه الحَدَقُ النُّجلُ — عَياءٌ به مات المُحبُّون من قبلُ

فَمَن شاء فَلْيَنْظُرْ إليَّ فمنظري — نذيرٌ إلى من ظنَّ أنَّ الهوى سَهْلُ

يعود مُريد بقهوته. لم تنته النوبة. قصيدة جديدة يلقيانها معا:

وفاؤكما كالرَّبْعِ، أشجاهُ طاسِمُهْ — بأن تُسْعِدا والدمعُ أشفاهُ ساجِمُهْ

وما أنا إلا عاشقٌ. كلُّ عاشقٍ — أعقُّ خليلَيْه الصَّفِيَّيْنِ لائمُهْ

وقد يَتَزَيّا بالهوى غيرُ أهلِهِ — ويستَصْحِبُ الإنسانُ من لا يلائمُهْ

بَليتُ بِلَى الأطلالِ إن لم أقفْ بها — وقوفَ شحيحٍ ضاع فى التُرْبِ خاتِمُهْ

كئيباً تَوَقّاني العواذِلُ في الهوى — كما يَتَوقَّى ريِّضُ الخيْلِ حازِمُهْ

ثم

وكُنْتُ إذا يَمَّمْتُ أرضاً بعيدةً — سَرَيْتُ فَكُنْتُ السِّرَّ والليلُ كاتِمُهْ

هل كان المنشد اليونانى القديم الذى خصّه أفلاطون بحواريّة من حواريّاته ينشد الشعر هكذا؟ يأتى الشعر إلهاما من الآلهة- هذا ما يقوله أفلاطون- فتخلق القصيدة مجالها المغناطيسى تنتقل حلقاته الجاذبة من أبياتها إلى منشدها ومنه إلى المستمعين. ولكن هل كان جدى الذى وهب سنوات طويلة من عمره فى تحقيق ودراسة شعر المتنبى مجذوبا فى حضرة قصائده كمُريد وتميم أم أنه أحب على طريقته الخاصة والمختلفة أيضا؟ فى مقدمته لديوان أبى الطيب المتنبى الذى

حققه، كتب جدى:

"كنت فى صباى عنيت بأبى الطيب، وكتبت رسالة فى أخباره وأشعاره. فجددت العهد بالرجل الذى أكبره. وأخذت أراجع المخطوطات القيمة فى دار الكتب المصرية وأقيس بعضها ببعض. ثم دعيت إلى العراق ... وأخرجتِ هناك كتابا فى تاريخ المتنبى وأدبه، حرصا على المشاركة فى الاحتفال الذى عم البلاد العربية ما بين شواطئ دجلة وشواطئ المحيط الأطلسى.

"وكان الاحتفال الأكبر فى دمشق واجتمعت وفود البلاد العربية فى صيف أربع وخمسين وثلاثمائة وألف، وألقيت المحاضرات فى جامعة دمشق.

وكان من جَدّى أن شاركت فى هذا الاحتفال كذلك.

ولما عدت إلى القاهرة المعزية اقترحت على قسم اللغة العربية من كلية الآداب أن يكرم أبا الطيب بإخراج نسخة صحيحة جامعة من ديوانه تكون عمدة للباحثين فى شعره، وحجة للمدققين فى روايته. فلقى اقتراحى قبولا، ووكل إلى إخراج هذه النسخة التى اقترحت. وعُهد إلى لجنة التأليف والترجمة والنشر فى طبع الكتاب، واستعدت اللجنة للطبع، وقيل لى هات ما عندك فعكفت على هذا العمل الشاق المديد بضع سنين".

نقّب عبد الوهاب عزّام عن آثار أبى الطيب فى خزائن

الكتب في القاهرة وبغداد ودمشق واسطنبول وباريس. قارن بين مختلف النسخ واستمعن شروحات ابن جني والواحدي والمعرّي والعكبري لتصحيح المتن ومضاهاة الروايات والتثبّت منها وانتهى بتحقيق الديوان. في تذييل للمقدمة التي وضعها للكتاب يقول: "وكان الفراغ من تحريره بجزيرة الروضة من القاهرة المعزية ضحوة يوم الإثنين خامس شهر صفر الخير من شهور سنة ثلاث وستين وثلاثمائة وألف من الهجرة". يحمل الكتاب المطبوع هذا التاريخ الهجري نفسه والتاريخ الميلادي: ١٩٤٤. قدم جدي تسع سنوات من عمره في خدمة تحقيق الديوان.

عند صدور الديوان كان عبد الوهاب عزّام في السابعة والأربعين، أستاذا في الأدب العربي والآداب الشرقية في جامعة فؤاد الأول (القاهرة لاحقا)، نشر ترجمته عن الفارسية "للشهنامة"، وحقق "كليلة ودمنة"، وحقق وألّف عددا من الكتب. وكان له ست بنات وثلاثة أحفاد: زينب وفاطمة من بثينة أكبر بناته، وطارق من ابنته التالية ميّ، أمي.

في الحادية والعشرين تزوج عبد الوهاب من ابنة عمه، أسماء، صبية لم تبلغ الخامسة عشرة، تعلمت مبادئ القراءة على يد شيخ استقدمه أبوها لتعليمها القرآن. (هل تأخرت أسماء في الزواج أم اعتُبر الأمر من مستجدات زمانها؟ تزوجت أمها وهي في الحادية عشرة وعاشت لترى حفيدة حفيدتها ليس لأنها

عمّرت طويلا بل لأنها أصبحت جدة قبل أن تبلغ الثلاثين).

أثناء ثورة ١٩١٩ كانت أسماء انتقلت من بيت أبيها إلى بيت عمها حيث يقيم ابن عمها، العريس. تحكي جدتي: "كنا ننام بكامل ملابسنا خوفا من مداهمة الإنجليز للبيت." لماذا يخافون من مداهمة الإنجليز-للبيت؟ هل شارك جدي في الثورة؟ لا أعرف، ولكن بلدته الشوبك والبدرشين المرتبطة بالشوبك بعلاقات الجيرة والقرابة والنسب كانت لهما حكاية مع الثورة. يكتب عبد الرحمن الرافعي:

"وأبرز الفظائع ما وقع في قرية العزيزيّة والبدرشين (بمركز الجيزة) ونزلة الشوبك (مركز العيّاط) وقد سجلت في محاضر رسمية، واحتج عليها مجلس مديرية الجيزة احتجاجا تاريخيا، وخلاصتها أنه في ٢٥ مارس ١٩١٩، في نحو الساعة الرابعة بعد منتصف الليل، والناس نيام، انقض نحو مائتي بريطاني مدجّجين بالسلاح على بلدتي العزيزيّة والبدرشين، كل فريق أحاط بإحدى البلدتين". ويواصل الرافعي روايته فيصف كيف اقتحم الجنود القريتين وتهجّموا على أهلها رجالا ونساء ثم أخرجوهم من منازلهم وأضرموا فيها النار "وكان كل من حاول من الأهلين إطفاء الحريق يطلق عليه الجنود الرصاص فيردونه قتيلا."

ثم ينتقل الرافعي إلى ذكر ما حدث في الشوبك:

"ووقع ببلدة الشوبك مركز العياط يوم ٣٠ مارس فظائع تزيد

عما حل بالعزيزيّة والبدرشين، فقد جاءها الجند بعد ظهر اليوم المذكور فى قطار مسلح، ونزلت منه قُوة مدججة بالسلاح فاقتحموا البلدة ومنازلها، وسلبوا منها ما وصلت إليه أيديهم من حلى ومال ودواجن، واعتدوا على أعراض النساء، وقتلوا عبد التواب عبد المقصود حين كان يدافع عن عرض زوجته، وكذلك فعلوا مع شيخ الخفراء، وقتلت زوجة سليمان محمد الفولى وهى تدافع عن عرضها، ولما رأوا مقاومة الأهالى أخذوا يطلقون النار جزافا فقتل من الأهالى واحد وعشرون. وجرح إثنا عشر، وأشعلوا النار فى منازل البلدة، فدمرت مائة وأربعين منزلا، والبلدة لا يزيد عدد منازلها عن مائتين وعشرة، ومن أفظع ما حدث لهذه البلدة، أنهم قبضوا على أحد مشايخها عبد الغنى إبراهيم طلبة وابنه سعيد وخفاجه مرزوق من أهالى البلد، ودفنوهم فى الأرض حتى أنصاف أجسامهم- بدعوى التحقيق معهم- ثم قتلوهم رميا بالرصاص وهم على هذه الحالة."

ويلحق عبد الرحمن الرافعى بروايته الرواية المضادة تحت عنوان: "بلاغ السلطة العسكرية"، يقول:

"وكل ما أذاعته السلطة العسكرية عن هذه الفظائع أنها قالت فى بلاغ ١ إبريل سنة ١٩١٩ "أذيعت أخبار كاذبة فيما يتعلق بحوادث يقال إنها وقعت فى العزيزيّة، وقد طلب إرسال بلاغ عن الحقيقة، فأبلغ الضابط المتولى القيادة هناك أنه وردت أنباء

تتضمن أن القرويين فى العزيزيّة والبدرشين اشتهروا بإيواء البدو المسلحين، وقد أجرى البحث فى القريتين بناء على ذلك يوم ٢٦ مارس، فوجدت فى العزيزيّة كمية من الأسلحة، وقد حاول المشاغبون الهرب أثناء البحث بالقفز من سطح لآخر، فأفضى ذلك إلى سقوط السطح تحت ثقلهم، وقد سبب سقوط الأسطح فوق النيران أو مصابيح الزيت فى المنازل إلى نشوب بعض الحرائق فى القرية".

ويصف البلاغ ما حدث فى الشوبك على النحو التالى: "وجد قطار كان يشتغل بأعمال الإصلاح فى أثناء سيره جنوبا بعد ظهر يوم ٣٠ مارس جماعة من القرويين يعبثون بالخط الحديدى فى جوار الشوبك، وقد قتل خمسة من الذين كانوا يشتغلون بتدمير الخط، وأطلقت النيران بعدئذ على القطار من القرية فأخرج الجنود أهلها."

وفى نهاية تقريره يقتبس الرافعى نص كلمات أعضاء مجلس مديرية الجيزة ومنها ما قاله محمد افندى منصور عطاالله الذى سجل الاعتراض التالى:

"حتى اليوم الثالث من حادثة نزلة الشوبك كان الأهالى يجدون جثث قتلاهم خلال مزارع القمح أو طافية على وجه الماء فى الترع، وان ما أعدم من المواشى من قذائف المدافع ورصاص البنادق التى أطلقها بعض رجال الجيش الانجليزى يفوق كل تقدير، أما حاصلات البلد من الذرة التى كانت تجفف

بحرارة الشمس فوق سطح المنازل فهذه قد رشها الجنود البريطانيون بالبنزين وأحرقوها فترتبت على ذلك خسارة عظمى هى جميع حاصلات الأهالى."

لم يصب جدى ما أصاب أهله فى الشوبك. لم يضرم الانجليز النار فى منزله ولا حرقوا زاد الأسرة وقتلوا مواشيها. داهم الانجليز البيت فوجدوا مسدسا. قبض على جدى بتهمة حيازة سلاح ثم أفرج عنه وقد برأته شهادة صديق ليبى. إدعى الدوكالى ملكيته للمسدس ولما كانت ليبيا مستعمرة إيطالية حظى الدوكالى بامتياز الرعايا الأجانب حيث حيازة سلاح لا توقع تحت طائلة القانون. ورغم تلك الواقعة لا أعتقد أن جدى كان متصدّرا فى النشاط السياسى. كان دارسا مكبّا على بحوثه وأوراقه. يذهب إلى الجامعة. يدرّس طلابه. يلتقى بنظرائه من الأساتذة والكتاب. يعود إلى بيته فى حلوان أو المنيل، يدلّل بناته ثم يدخل إلى غرفة مكتبه، يواصل درسه. جلوسه للقراءة والكتابة مشهد يومى أليف عاشته أمى ولم أره إلا بعين الخيال.

فى طفولتى لم يكن جدّى سوى جدّى: جدّ عذب وسيم فارع الطول، يزيده طربوشه وصغر حجمى طولا. يبتسم، يدلّل، يحمل لنا الحلوى ويرسل فُطرة رمضان فى آخر ليلة من ليالى شعبان. نفرح لزيارته أونستعد للذهاب إلى المطار لاستقباله عند عودته من الهند. نتحمم ونرتدى أحلى ملابسنا ونغنّى فى الطريق كأننا ذاهبين إلى العيد. ونغنّى فى طريق العودة أيضا

لأننا لا نترك العيد وراءنا بل نحمله معنا فى السيارة أو نلازم السيارة التى تحمله بالسير خلفها أو أمامها.

توفى جدى فى يناير عام ١٩٥٨. بعد خمس سنوات ونصف من وفاته، التحقت بكلية الآداب جامعة القاهرة. لم يكن حاضرا فى مخيلتى وأنا أدخل الحرم الجامعى ومبنى كلية الآداب وأنتقل بين قاعات وممرّات قضى فيها سنوات طويلة من حياته. غاب فى الذاكرة، ربما، أو غيّبته تطلّعات الصبية إلى فروع أخرى من المعرفة. حتى تخرجى من الجامعة لم أكن قرأت أيا من الكتب التى ألّفها أو ترجمها أو حقّقها. أنتبه الآن لمسار معكوس وطريف أيضا، أحببت جدى وأحببت الجامعة وبقيت حكاية كل قائمة بذاتها ومنفصلة عن الأخرى.

درست فى جامعة القاهرة ولكنى لم أعيّن للعمل فيها بل فى جامعة عين شمس. لماذا؟ لأن رئيس القسم آنذاك، الدكتور رشاد رشدى، قال لا أريد هذه البنت. فذهبت البنت للعمل فى مكان آخر.

هل كان الطريق طويلا أم خاطفا مرّ فى لمحة بصر؟

فى البدء صبية تدخل قاعة درس حيث طلاب يقاربونها العمر وإن بدت أصغر منهم سنا. أتمت الواحد والعشرين، تبدو

فى السابعة عشرة وتقدر رغم ذلك على توصيل القليل الذى لديها وخلق لحظة تواصل تتعلم منها بقدر ما يتعلمون. تُدرس اللغة الإنجليزية لطلاب الأقسام الأخرى: أقسام اللغة العربية والتاريخ والجغرافيا وعلم النفس والاجتماع. بعد سنوات قليلة تدرّس الترجمة ومقرر النقد الأدبى لطُلاب قسمها. تدريس الشعر جاء لاحقا. حصلت على الدكتوراه، تقترب الآن من الثلاثين. تتجاوزها إلى الأربعين فالخمسين. تتبدل وجوه الطلاب. قاعة الدرس لا تتبدل.

آداب سفلى: تنزل بضع درجات تحت مستوى الأرض، باب خشبى صغير عن يمينها يفضى إلى مدرج كبير. معتم نسبيا رغم مصابيح "النيون" المضاءة بالنهار. منصّة خشبية سقط طلاؤها منذ سنوات بعيدة ولم يعد لألواحها سوى لون كالح أقرب إلى لون الرماد. على المنصة مكتب المحاضر، مكتبها، أسفلها مقاعد الطلاب: صفوف من الدكك الخشبية المثبتة فيها ألواح الكتابة. أزيز المراوح المعلقة- ست عشرة مثبتة فى السقف- تختلط بصخب طلاب خارج المدرّج يصعدون إلى آداب علوى أو يهبطون منه بعد انتهائهم من محاضرة ما. يفاجئنا عصفور صغير ضل طريقه، نصف دقيقة، يهرب من النافذة. لا تهرب منها القصيدة، غالبا. كأنها تفرش لها شباكها، كأنها تحترف الصيد. فقط فى البداية. ثم تُقبل القصيدة. يمدّ الطلاب أيديهم. يلمسون الرعشة فى جسمها. يتأملون ضوء

عينيها ورمشة الجفنين. غزال شارد؟ كيف ملكناه إذن؟ كيف استقر قريبا إلى هذا الحد ووديعا إلى هذا الحد؟ متى غاب المدرّج ؟ لا نرى الآن سوى ملاح رث يمسك فجأة بيد شاب أتى للعرس برينا من الحكاية. يحكيها الملاح القديم: الطائر البحرى القتيل. السفينة المستقرة على صفحة ساكنة: نقش سفينة فى صورة بحر. شمس وقمر. امرأة تلعب النرد، تقهقه. أجساد الملاحين الموتى. حلوق من رماد. عطش. عرس صاخب وملاح رثّ عتيق وولد وحكاية.

طلاب الفرقة الثالثة يحبّون مقرر الشعرالرومانسى. فى الفرقة الرابعة يجفلون من مقرر النقد الأدبى، يفهمون التجريد بمشقة. يتمثّلونه بجهد مضاعف. لا طائر بحرى قتيل يثير الخوف والخيال، لا ريح غربية تربط بين دورات الطبيعة وعنفوان الثورة، لا شاعر ممسوس كالأنبياء يقلب الهامش إلى متن ويدفع بالمتن المتسلّط إلى كُناسة فى الزاوية. يعود المُدرّج إلى مكانه: الضوء الليمونى لمصابيح النيون. الباب الخشبى الصغير. المراوح الكئيبة- نوقفها فتختنق، نشغّلها فتصدر أزيزا يشغلنا بالسؤال: ترى هل تسقط إحدى هذه المراوح الآن على رؤوسنا، ترى من تصيب؟ ولكن آداب سفلى على علاّته يبدو أحيانا مطلبا عصىّ المنال: "المُدرّج مشغول. أعطيناه لطلاب قسم اللغة العربية. عددهم أكبر" يقول الموظف المسئول عن الجداول. ننحشر فى قاعة صغيرة. الأكثر حظا يستقرون على الدكك الخشبية، الأقل حظا يفترشون الأرض أو يقفون مستندين إلى الجدران وباب القاعة، وقد يدبّر بعض الشباب أمرهم فيجلس على حافة النافذة.

نفس الفرقة. نفس الطلاب. مُدرّج شفيق غربال حيث تناقش الرسائل ويحاضر الأساتذة الزوار. واسع. نظيف، نسبيا. غطاء من الجوخ الأخضر يغطى مكتب المحاضر. مكبر صوت لا يضطرني لسؤال هاملت: أكون أو لا أكون: أستخدمه بخرفشاته أو احاضر صياحا ولا يصل الصوت إلى الصف الأخير من الطلاب؟ مقرر الأدب الأمريكى الأسود. هل هو المُدرّج يُسقط عن وجوه الأولاد والبنات توتر المكان القبيح أوالخانق أم هى المعرفة بمساحة من تجربة يتواصلون معها لأنها تخصهم؟ القهر يخصّهم. تعكس ذلك لمعة العيون والأسئلة والرغبة فى معرفة المزيد. "أحيانا أشعر كطفل لا أم له/ بعيدا جدا عن بيتى" تقول الأغنية الشعبية للعبيد فى المزارع. يحبونها. ينصتون بشغف لأخبار خط الهرب المعروف باسم "الخطّ السرى للسكة الحديد". لا سكة حديد، لا قطارات، لا ركاب بل شيفرات لتنظيم الهرب من الجنوب إلى الشمال. أساطير العبيد، أدبهم الشعبى، الحرب الأهلية، وثيقة تحريرهم، القصائد والقصص والمقالات تستهويهم. أصحح أوراق الامتحان فى نهاية الفصل الدراسى. تؤكد لى الإجابات صحّة ما التقطته أثناء المحاضرات: القهر ومسعى التحرر أكثر الأوتار رهافة فى وجدان هذا الجيل. ثلاثون عاما، فارق العمر بينى وبينهم، لم يتغير من الأمر شيئا!

لم لا أكتب سوى هذه النتف من حياتى فى الجامعة؟ كسل أم قصور أم

مراوغة؟ أم حكمة تتشبث بمسافة تجعل الكتابة ممكنة ما دامت تجربة السنوات الثلاثين التى قضيتها فيها– للدقة هى واحد وثلاثين يضاف إليها سنوات الدراسة الأربع فى جامعة القاهرة– تبدو لى الآن كبحر يمكن أن أغرق فيه. أى كاتب استطاع أن يضع كل عمره فى نص واحد؟

ولكنى أريد أن أحكى عن واقعة المغسلة:

استوقفنى فى مدخل الكلية– مدخلها الرئيسى المفضى إلى باب المكتبة– هيكل مشيّد من المعدن والزجاج. قاعة صغيرة. خلف الزجاج سترات وملابس معلّقة. سيدة تجلس مبتسمة وراء مكتب من الصاج المطلى باللون الرمادى. لم أفهم. دخلت. سألت. قالت السيدة:

– محل "دراى كلين" افتتحناه هذا الأسبوع.

– مغسلة؟

– حضرتك دكتورة فى الكلية؟

– نعم.

– ممكن سيادتك تأتى لنا بغسيلك. نحن نقوم بالغسيل والكى والتنظيف الجاف ولدينا خدمة مستعجلة وأسعارنا اقتصادية.

نسيت أن هناك مصعدا وأن قسمنا بالطابق الرابع. حملتنى قدماى إلى السلم فصعدت. قال لى الساعى:

– صباح الخير يا دكتورة.

– صباح الخير. ماذا جرى؟!

لم يفهم. تطلع إلى

- المغسلة فى الطابق الأول؟

ابتسم

- العميد أجّر مدخل الكلية لمحل غسيل.

استدرت ونزلت إلى الطابق الثانى حيث مكتب العميد. لم يكن فى مكتبه. ذهبت إلى وكيل الكلية:

- ماذا يحدث؟

لم يفهم. فصّلت سؤالى. ضحك

- آه، المغسلة! أردنا زيادة دخل الكلية وتحديدا دخل رعاية الشباب. أجّرنا المدخل لمغسلة والقاعة الكبيرة التى فى المبنى الآخر، القاعة التى نستخدمها لجنة لامتحان المكفوفين. قلنا نستفيد منها فى غير أوقات الامتحانات.

- لكن يا دكتور هذه مهزلة!

ابتسم بودّ. قال

- لماذا مهزلة؟ انت يا دكتورة درست فى الخارج وتعرفين ولا بد أنك رأيت هناك بقالة داخل الجامعة وهناك...

- كان فى الجامعة التى درست فيها محل كبير يبيع من الكراريس والكتب إلى الأمشاط ومعجون الأسنان، ولكن قاطعنى:

-عليك نور، ليس هناك ما يزعج!

- يا دكتور لما الجامعة تكون كبيرة، مساحتها واسعة ومترامية وفيه مبنى خاص وأحيانا مبانى للنشاطات وللخدمات الطلابية

ممكن يكون فيها محلات لخدمات من هذا النوع. جامعتنا يا دكتور ضاقت بطلابها. فى المحاضرة يجلس الطلاب على الأرض أو يسمعون الدرس واقفين. لا توجد فى الجامعة لا كافتيريا للطلاب ولا للأساتذة والمكتبة مخزن كتب وليست مكتبة. وأحيانا لو فرقتين طالعين من المحاضرة فى نفس الوقت يبدو المكان كأنه يوم الحشر. ثم إن وضع مغسلة فى مدخل الباب الرئيسى للكلية أمام باب المكتبة أمر صادم، شديد القبح!

غادرت مكتب الوكيل إلى المبنى الآخر. كانت المبيعات، أحذية وجوارب وقمصان، معلقة خارج القاعة. دخلت: البضاعة متنوعة: توابل وتمر وفول سودانى وأشرطة كاسيت ينبعث صوت واحد منها متجاوزا القاعة إلى خارجها. شاهدت بأم عينى. انصرفت إلى قاعة الدرس.

كانت الجلسة صاخبة. لم يستطع البعض منع نفسه من التنكيت والسخرية، البعض الآخر كان غاضبا. دافع العميد مطولا عن قراره. ختم كلمته قائلا: " أردت تقديم خدمة للكلية ولأعضاء هيئة التدريس!" لم نشكره على نواياه الطيبة. لم يقل شيئا عن جحودنا وإن بدت على وجهه علامات الأسى والدهشة وأمين المجلس يسجّل قرارنا بإزالة المغسلة والمحل، فورا.

ذهب العميد وجاء غيره ثم حل ثالث بالتعيين وقد ألغيت انتخابات العمادة، هكذا بقرار وزارى لم نعرف به قبل غيرنا بل قرأناه فى الصحف عملا بمبدأ المساواة بين كافة المواطنين.

وأشهد أن أحدا من العمداء منتخبين أو معيّنين بعد ذلك تراوده فكرة إعادة تأجير مدخل الكلية لمغسلة.

لم تفكر شجر إلا أنها هدية شخصية أكرمها بها جدها قبل رحيله. لفّتها فى قطعة من المخمل وحفظتها. لم يفارقها شعور مبهم بأن للهدية معنى ما أكبر مما تحيط به. حصلت على الدكتوراه وتدرّجت فى سلم الجامعة من مدرس إلى أستاذ مساعد ثم أخيرا أستاذ. فى اليوم الذى اطّلعت فيه على تقرير اللجنة العلمية بترقيتها إلى درجة أستاذ عادت إلى البيت وفتحت خزانتها. أخرجت اللفافة المخملية، فتحتها، أمسكت الكراسة بين يديها. تملّكها شعور طاغ بأن علاقة ما تربط هذه الكراسة، هدية جدها، وكرسى الأستاذية الذى حصلت عليه. لفّت الكراسة فى غلافها المخملى وأعادتها إلى مكانها.

بدا لها وهى تغادر مكتب رئيس الجامعة فى ذلك اليوم من عام ١٩٧٢ أنها مهددة بالطرد. لم تُطرد. هل تقول إنها محظوظة لاستطاعتها الاحتفاظ بموقعها أم تقول إنها لم تنل سوى ما تستحق لأنها جدّت واجتهدت؟ ولكنها إذ تتطلع حولها ترى أن حكمة "من جدّ وجد، ومن زرع حصد" لم تعد سوى

بارة ساذجة تزين كتب القراءة الرشيدة لأطفال الأول الابتدائى. يكبرون قليلا ليكتشفوا أنها لم تكن سوى خدعة من الخدع المتعددة الذى تحفل بها كتب مدرسية ألفها رجال طيبون أوبلهاء أو محترفون للكذب. كيف زرعت وحصدت دون أن يسقط على رأسها حجر يقتلها أو يتركها مُعوقة لعمرها الباقى. محظوظة، لاشك، لأن هذا الأمر، أقصد سقوط حجر على صبى أو صبية طالعة، كاد أن يصبح القاعدة حتى بدا من طبائع الأمور.

الصغير بحاجة لقدر من الحماية، يحتاج من يأخذ بيده ويرعاه ويتعهده كأى عود أخضر تهدده هشاشته فى المبتدى. درس من دروس العمر التقطته وهى صبية يرعاها الآخرون والتزمت به حين تقدم العمر بها فتعيّن عليها أن ترعى طلابها. بعد أقل من شهرين من لقائها برئيس الجامعة استكملت خطة مفصّلة للبحث وقائمة بالمصادر والمراجع المقترحة، وطلب باسم عميد الكلية لتسجيل الرسالة. قدمت الأوراق إلى أستاذها. قرأها. أشّر عليها: "أوافق على الإشراف". وقّع. فى الأسبوع التالى عرض الخطة على مجلس القسم ثم أخذت الأوراق مسارها المعتاد إلى مجلس الكلية فمجلس الجامعة.

انهمكت فى البحث ونسيت. بدا أنها نسيت. أنجزت الرسالة. لم تنتبه، لا وقت المناقشة ولا لحظة إعلان حصولها على الدرجة العلمية، ولا فى السنوات التالية، لم تنتبه أنها مدينة بمشروع رسالتها للقائها برئيس الجامعة وربما أيضا للخوف، خوف دفعها إلى الإسراع فى إنجاز العمل وإتقانه لتثبيت

علاقتها بالمكان. تتأمل شجر الصبية وهى تهبط على الدرج بعد لقائها برئيس الجامعة: غاضبة، يحكمها العناد والرغبة فى تأكيد فكرتها برد مُفْحِم بليغ يكبّرها ويصغّر غريمها، بدا غريما. "خائفة؟" لم تطرح الصغيرة السؤال على نفسها ولو طرحه أحد عليها لبدا لها السؤال جائرا وجارحا وغبيا. ولكنها، ترجّح شجر الآن، كانت خائفة.

فى سبتمبر ١٩٨١، حين صدر قرار طردها من الجامعة، لم تفزع، لم تستشعر حاجة لكتابة رسائل، لم يكن فى القرار ما يهدّد بتحويل مجرى حياتها.

فى السجن متّسع لتأمل مفردات العمر المبعثرة فى زحمة المشاغل اليومية. فى السجن متّسع، لأن النهارات، والليالى أيضا، تأخذ وقتها: لكل ساعة حيّز تقطعه فى أناة، لاتزاحمها عليه الساعة التالية. ساعات ريفية صابرة لا تعرف الركض المحموم ولا رنين التليفونات المتلاحقة ولا التدافع المضغوط فى شوارع المدينة وأتوبيساتها المزدحمة وإيقاعاتها المُشعّثة. تتأمل علاقتها بالجامعة، بطلابها. الأولاد والبنات، فى قاعة الدرس وأيضا تلك العلاقة الخاصة: تبدأ على استحياء. تتلمس طريقها. متوجسة؟ ربما. ببطء وتدريجيا تعرف طريقها، تجرى فيه، كنهر؟ كنهر أحيانا، وأحيانا كنويهر حيىّ يجرى بلا صخب وإن شق طريقه بثبات. تستعرضهم بالواحدة والواحد، البنات والأولاد الذين تعهدتهم بشكل فردى وأشرفت على

رسائلهم. معرفة تختلف، خارج قاعة الدرس، تمتد إلى البيت والبلد البعيد حيث تذهب البنت أو الولد مبعوثين للدراسة. تبدأ على جانبى ذلك المكتب الصغير فى قسم التاريخ. الفكرة المشعّة. الرغبة المندفعة وراء بحث كبير يضع البحر فى زجاجة. تقول "ولكن..." تهدئ الحلم قليلا أو كثيرا. الآن خطة البحث. قائمة المراجع. ورشة العمل اليومى وقلق المشاكل الصغيرة. ثم الرسالة المغلّفة والرداء الأسود والتصفيق ولحظة الزهو المشترك. قاعة الدرس تختلف: تجهل الأسماء غالبا، تخلط بين طلاب الفرقة الثالثة والفرقة الرابعة. تحيّى أحدهم بحرارة ظنا منها أنه تخرّج قبل سنوات وجاء لزيارة القسم، يبتسم الولد، تكتشف أنه فى الفرقة الرابعة حضر محاضرة اليوم السابق وجاء يستفسر عن أمر ما. العكس أحيانا: "أنت فى الفرقة الثالثة، أليس كذلك؟" تضحك البنت. "لا يا دكتورة. تخرجت من ثلاث سنوات وجئت لرؤيتك" دقائق الارتباك ثم يسقط الحرج. الأولاد والبنات مرساة؟ شراع؟ دفة؟ بوصلة؟ خشب السفينة يطفو بها ويحميها من الغرق؟ هل تهرب من الشارع اليهم فى قاعة الدرس المغلقة على قراءتها للتاريخ أم تُقبل عليهم لأن عيونهم تكذّب الواقع فى لحظته الكئيبة لحساب حقيقة أخرى فتعرف أن فى الشارع شارع، كامن وغير مرئى الآن، لن يفاجئها ظهوره المباغت لأنها رأته ولمسته وخبرته فى كل يوم وقفت أمامهم ومنحتهم نفسها فمنحوها نفوسهم؟

كفاك ميلودرامية ياشجر. تغضين الطرف يا شجر. تتشبثين بأوهام مخلّص بهىّ وزّع جسده المُعجز على بضع مئات من الطلاب! تحبينهم ويحبونك، جميل، لكن ما شأن هذا الحب بحلم تلقينه عليهم كبُردة أخّاذة؟! ليسوا البُردة يا شجر، بل بشر من لحم ودم وخير وشر ونبل وخسّة وزمان يميّلهم فيميلون. لاتتعلمين يا شجر؟! رأيت خليل، الأنكى والأبهى يقطع الطريق الهابطة، يقطعها ركضا وأنت تغضين الطرف، تقولين ارتباك عابر، تقولين حالة فردية: ولد بدأ واعدا ثم لم يفى بما وعد. هناك العشرات غيره قابضين على علمهم وشرفهم كجمرة نار، قابضين وقادرين. وواقعة ملح الأرض ما الذى تقولين فيها؟

كانت واقعة من وقائع التاريخ، تاريخها الشخصى فى هذه الحالة. منحتها إسما: "ملح الأرض".

لم يستوقفها الأمر فى البداية، بدا لها التشابه فى اوراق الإجابة من النوع المعتاد. مذكرات ما يدونها طالب متوسط القدرات، يستنسخها زملاؤه، يحفظونها عن ظهر قلب، يكتبونها فى أوراق الإجابة. تعطى درجة النجاح بالكاد وإن كانت الإجابة صحيحة. تفسّر أن المطلوب غير ذلك. البعض يصدقها، البعض الآخر يُؤثر اتباع ما رسّخته سنوات المدرسة وعشرات المدرسين: لملمة ما خلّفته فى قاعة الدرس والاحتفاظ به وديعة موقوتة يعيدها إليها يوم تطلبها فى الامتحان. صححت ثلاثين كراسة إجابة. لم تنتبه. استوقفها تكرار جملة

وردت فى سطرين متعاقبين. سهو من كاتبها؟ نفس التكرار فى الأوراق الأربع التالية. كيف؟ أعادت فحص الكراسات. حالة غش جماعى؟ ورقة ما نقل منها الطلاب بالحرف وتحت ضغط الامتحان، نقلوا حتى جملة مكررة فيها أو خطأ فى النحو أو الهجاء. لم يكن الغش فى لجنة واحدة ولا فى سؤال واحد. إن بعض الظن إثم. تعيد فحص الأوراق. تتبّع خيوط الجريمة. يا إلهى، الجريمة؟ لم تختر وظيفة الشرطى ولا المخبر! هل خانها الطلاب؟ ارتعشت للخاطرة. تواجههم؟ كيف تواجههم؟ لم تكن قررت بعد عندما جاء يوم الاثنين، يوم محاضرتها الأسبوعية لطلاب الفرقة الرابعة.

هل كانت تهذى؟ ربما كانت تنظم لهم حيّات ثمينة تخصّهم ويملكونها وإن تدحرجت منهم وهم يركضون لركوب الأتوبيس أو الحصول على درس خصوصى أو عمل يفى بحاجتهم المعيشية؟ لا تدرى ما الذى قالته تفصيلا وكيف قالته، تذكر أنها تحدثت عن الجامعة: المشروع، حلم روادها الأوائل والأجيال التى خرجت من معاطفهم. جثمان عبد الحكم الجرّاحى. طلاب القصر العينى. الإلهة ماعت التى أحبتها وعلقت رسمها فوق مكتبها. الأوراق المتطابقة. كانت تخلط الأمور وتنتقل من موضوع لآخر كأنها تهذى. قالت وكأنها لا تقف على منصة الأستاذ، كأنهم ليسوا صغارا يجلسون على مقاعد الدرس، قالت: "أنا خائفة، أريد أن أسمع منكم، أريد أن

أطمئن".

صمت.

تباعا بدأ الأولاد والبنات يرفعون أيديهم ويطلبون الكلام.

طالبة أولى: "تقولين أن ما يقرب من ربع أوراق الإجابة تؤكد أن أصحابها نقلوا إجاباتهم غشا. يؤسفنى أن أقول لك أن النسبة مقلوبة فالقاعدة هى الغش، والملاحظون يقفون على الأبواب "ناضورجية" لكى ينبهوا الطلاب باقتراب أستاذ من الأساتذة". طالبة أخرى: "الملاحظون يساعدون الطلاب على الغش، وقد يطلب من أحدهم أن يحمل "برشامة" من طالبة الى زميلة لها فى لجنة أخرى". طالب ثالث: "الانسان ضعيف بطبعه وحين نجد أن من هم دوننا فى المستوى والجهد يحصلون على درجات أعلى ونجد أن الغش هو القاعدة نغش". أخرى: "الإمتحانات بهذا الشكل منذ كنا فى المدرسة ولما التحقنا بالجامعة وجدنا نفس الوضع!" وقال آخر أن البرشام والورق الفولسكاب والمذكرات وأحيانا الكتب تستخدم فى الغش وهو علنى. وأخيرا طالب: "قمت بالغش فى هذا الامتحان وفى غيره. وسأكون كاذبا لو قلت لك الآن أننى لن أقرب الغش بعد ذلك. قد أستطيع الوقوف ضد التيار وقد لا أستطيع. المجتمع يذبحنا بألف طريقة، يذبحنا كل يوم فنتعلم تدريجيا كيف نتحايل عليه. قلت أنك فكرت فى ترك الجامعة وأقول لك أنك لو فعلت تجرمين فى حقنا جميعا ليس لأنك تحرميننا من فائدة ومتعة

درسك ولكن لأن وجودك يحفظ لنا قيمة ما، ضوءا، يؤكد لنا أن الظلام لم يعد مطبقا وأن الفوضى والشراسة والجهل والظلم والفساد وإن لم نستطع أن ننفصل تماما عنها ليست هي القانون المطلق للوجود. الإنسان بطبعه يحتاج نجمة ما في سمائه. قلت أنك علقت صورة ماعت فوق مكتبك وأنت تلميذة صغيرة. ألهمتك الصورة وسعيت في اتجاهها. لا تقلقي هذه الطاقة يا دكتورة شجر قد أتطلع أنا إليك وأسعى كما سعيت وقد لا أستطيع ولكن زميل لي قد يستطيع ذلك' صفق له الطلاب. هي كانت تتصبب عرقا، أرادت أن تقول شكرا ولكن الصوت كان محبوسا في مكان ما، مقيدا مع الدموع على الأرجح.

قبل أن تغادر القاعة جاءتها طالبة ومدت يدها إليها بوريقة صغيرة مطبوعة قالت هذه هي "البرشامة" التي نقلنا عنها إجابة السؤال الأول. إنها مكتوبة على الكمبيوتر ومصغرة وهناك محل متخصص في إعداد هذا النوع من البرشام، في مختلف التخصصات.

لماذا وجدت نفسها بعد أن غادرت قاعة الدرس تعفي طلابها من المسئولية، هل أعفتهم من المسئولية؟ هل تحبهم إلى حد التواطؤ على طريقة الأمهات، يصورن لأنفسهن أن الآخرين، دائما الآخرون يقومون بإفساد أولادهم؟ هل كان الموقف كله ميلودراميا كمشهد عاطفي في فيلم رديء؟ يعود الولد العاق، يبكي علىصدر أمه ، تصفح عنه فتكون النهاية السعيدة؟! لماذا

يفاجئها الغش في كل مرة كأنها لا تعرف أنه صار القاعدة؟ لا ليس قاعدة بعد، لكن أمر عادي ودارج وغير مستنكر كأنه قاعدة، في المدارس الابتدائية والاعدادية والثانوية، في المعاهد والجامعات. هل تظن أن الفساد يطول كل شيء إلا قاعة درسها وطلابها. هل أصاب الفساد ملح الأرض؟

جلست إلى مكتبها وكتبت مذكرة إلى العميد تشرح فيها ما حدث. قالت إن الغش ثابت ولا يقبل أي شك في ١٣٦ ورقة إجابة وهي تمثل ٢٨% من مجموع أوراق الإجابة. طالبت بإلغاء الامتحان وإجراء تحقيق.

معركة جديدة، خاسرة كالمعتاد! رفض العميد إعادة الامتحان أو إجراء تحقيق رسمي. رد على مذكرتها برسالة نفى فيها واقعة الغش، أكد أن الملاحظة في الامتحانات دقيقة وأن سير الامتحانات في الكلية نموذج للانضباط. وأنهى رسالته بلوم مبطن. ليس مبطنا، لوم واضح كالشمس: قال المشكلة في أن الأساتذة يضعون أسئلة متوقعة وأن الطلاب يحفظون مذكرات الأساتذة عن ظهر قلب مما يتسبب في تشابه الإجابات. باختصار تقول الرسالة إنها مخطئة ومقصرة وواهمة وأن كل شيء على ما يرام. "شيء عفن في الدانمارك!" يا إلهي هل يتعين عليها أن تعيش تجربة الفتى هاملت وهي في الخمسين. أي هاملت وأي بطيخ، لن تغادر المسرح وأجساد الأبطال مبتتة على الخشبة في نهاية المبارزة المأسوية. إنهم

يسرقون الصغا، ما العمل؟!

وكريم؟

لم تشهد ولادته، لم تحمله بين يديها فى أسابيعه الأولى، لم تساعد أمه فى تغيير أقمطته المبتلة وغسل مؤخرته أو تحميمه وتجفيفه ورش جسده بالبودرة الناعمة. ركب معها المصعد وشب على أطراف أصابعه وهو يسألها عن الطابق الذى تقصده:

- الخامس وأنت؟

- الخامس برضه؟

- عندك كام سنة؟

فتح كفه وفرد أصابعه كالمروحة ثم ثنى الإبهام

- يعنى أربعة

- عارف، بس ما بحبش الكلام الكتير، لما الواحد يتكلم كتير ممكن يغلط، وممكن يزعج الناس وممكن ...

وصل المصعد إلى الطابق الخامس. سألت وهى تخرج المفتاح من حقيبتها

- ماما وبابا طالعين وراك؟

- لأ، هم فى البيت؟

- انت ساكن هنا؟

- أيوه، انت ساكنة هنا؟

- أيوه

- يبقى احنا جيران والإنسان المحترم لازم يكون لطيف مع الجيران، لما يشوفهم يقول لهم صباح الخير، ولما يمرضوا يسأل عليهم، ولما يكون عنده أكل لذيذ يقدم لهم منه. دقيقة وحدة.

انطلق إلى شقته، دق الباب باستعجال ووقفت تنتظر. عاد يحمل صحنا عليه قطعة حلوى.

- امبارح كان عيد ميلادى

- كل سنة وانت طيب. ممكن تتفضل عندى عشان أديك هدية عيد ميلادك؟

- ممكن أزورك بعد ما اسأل ماما، لكن مش ممكن تدينى هدية لأن عيد ميلادى كان امبارح، يعنى خلص. لازم تستنى السنة الجاية ولو كنت لسه بتحبينى - لأن الواحد يدى هدية للى بيحبه بس، اللى ما يحبوش مش لازم أبدا يديله هدية- السنة الجاية تقولى: كل سنة وأنت طيب يا كريم وتديلى هدية. أنا أقول شكرا. ممكن الهدية تكون وردة ، ممكن لعبة، ممكن قلم، ممكن بوسة.

- بتضحكى ليه؟

- لأنك ولد ذكى ولطيف. ممكن أسألك سؤال: أنت قلت الواحد بيدى هدية للى بيحبه. وأنت اديتنى هدية من غير ما نعرف بعض...

- لقيت إنك لطيفة، لو بعد كده طلعتى شريرة حابطل أحبك

وأبطل أديلك هدية. زى الأفلام واحد شكله طيب أحبه وبعدين يظهر انه شرير خلاص ماحبوش

- ممكن تسأل ماما وتيجى تزورنى؟
- حاسألها بس ممكن أعرف اسمك؟
- شجر
- شجر؟! ده اسم حلو خالص
- وكريم كمان اسم جميل
- لأ
- ليه؟
- لأنه فى الحضانة خمسة إسمهم كريم. المدرسة تقول اسكت يا كريم. وانا ساكت،أو تقول كريم ما بيعرفش يرسم .انا باعرف ارسم ورسمى جميل. وهى بتتكلم على كريم على أحمد أو على كريم نبيل تادرس أو كوكو، أصل كوكو برضه إسمه كريم. لو إسمى أخضر، مثلا، يعنى مثلا، اسكت يا أخضر باكون أنا اللى باتكلم. تقول أخضر أخذ صفر بيكون أنا اللى ما كتبتش الواجب: أخضر ممتاز يعنى أنا الممتاز. يبقى كل شيء واضح. صح؟!
- صح! انما أخضر إسم غريب!
- أنا قلت لماما ليه ما سمتنيش عبد المقصود، مفيش ولا ولد فى الفصل اسمه عبد المقصود؟! لكن أخضر أحسن من عبد المقصود. وأنا باحب اللون الأخضر وحافرجك على الرسم

بتاعى وكمان فى مرة حلمت انى اشتريت جزمة خضرة وقبل العيد قلت أنا عاوز جزمة خضرة مالقيناش وأنا عيطت، عيطت كتير، وبعدين بابا اشترالى علبة ألوان كبيرة وانا رسمت ولد لابس جزمة خضرة. ماما وبابا ضحكوا وقالوا إن الجزمة كبيرة قد راس الولد تلات مرات. بصى أنا مش حازورك دلوقت لأن ماما حتقول ده وقت غدا وراحة. الساعة ستة أحسن. ماشى؟

يقصر الخيال، حتى العقول المنتبهة المشهود لها بالذكاء تفوتها أحيانا أكثر الأشياء بديهية. لم تمر الفكرة ولا طيف الفكرة بخاطرها طوال ثلاثة أشهر من الأسبوع الأول من سبتمبر إلى أن أفرج عنها. عادت إلى بيتها، غسلت وجهها وبدلت ملابسها ودقت باب كريم. استقبلتها أمه، نادت عليه، لم يجب. دخلت لتناديه، عادت بدونه، قالت إنه نائم. انتظرته فى بيتها. لم يأت. ذهبت هى إليه. نادت عليه. لم يجب. دخلت الغرفة. كان جالسا إلى مكتبه. لم يلتفت.

- انت مش عاوز تسلم على ليه؟

لم يجب.

- مش احنا صحاب، ليه مش بتسلم عليا؟
- مش عاوز أسلم عليك!
- ليه؟
- كده، أنا حر!

اقتربت من المكتب فأزاح المقعد بعيدا. وضعت علبة الشيكولاتة التى أتت بها. كانت مغلفة فى ورقة لامعة ومربوطة بشريط دقيق أبيض.

– لو سمحت تاخدى الهدية لأنى مش عاوزها

– ليه؟

لم يجب. قام وترك الغرفة. سألت أمه إن كانت أخبرته أنها كانت فى السجن. قالت باستنكار: "طبعا لأ، قلت له أنك كنت مسافرة!"

فهمت. بدا الأمر أسهل ثم بدا أصعب.

وقفت تنتظره بباب البيت. رأته وهو ينزل من سيارة المدرسة. دخل العمارة دون أن يتوقف لتحيتها. تبعته فى اتجاه المصعد وركبت معه. قالت الكلمات التى أعدتها طوال الليلة السابقة: "أنا كنت فى السجن، ما كنتش مسافرة. وفى السجن ممنوع إنى أتكلم فى التليفون أو أكتب جوابات. لو كان مسموح كنت حاتصل بيك وأعرفك و..." نسيت بقية ما أعدته من كلام. وصل المصعد إلى الطابق الخامس، خرج وظلت واقفة مكانها حتى سمعت البواب يصيح: "إقفل الباب" انتبهت. أغلقت باب المصعد واتجهت إلى شقتها.

لم تنتظر طويلا. بعد الظهر دق الباب. سأل وهو يقف بالباب:

– ممكن أسأل ليه كنت فى السجن؟

كان فى السابعة من عمره. كان عليها أن تجيب على سؤاله.

هل كانت إجابتها- لم تعطه سوى إجابة مبسطة ومجزوءة- بداية انتباهه للظلم. ترتعش للخاطرة وكأنها أودت بالولد إلى التهلكة. تنتزع من رعشتها وفكرتها، ترد عليهما بصوت عال كالمجانين: ما المطلوب، أن نحمى الصغار بأى ثمن حتى لو أخفينا عنهم الحقائق؟ أنت بلهاء يا شجر أفسدتك الوظيفة، غبية، تتصورين نفسك مصدر المعارف، كأن الحياة ليست سوى امتحان أبله يعيد لك كلامك كجواب الصوت. الحقائق ملقاة أمامهم على قارعة الطريق، تطحن البعض، تنفجر فيهم كالألغام، تقتلهم أو تشوههم، والبعض الآخر الأكثر حظا (لأن أهله يملكون تعليمه وإطعامه وتسكينه وتوظيفه) يملك أن يغض الطرف عنها. هل يغضون الطرف عن الألغام حقا أم يعتبرونها من مسلمات الواقع؟ واقع يتطلب منهم الإسهام فى تصنيعها وزرعها، فما دامت المعادلة أن تكون قاتلا أو مقتولا، فلتحتفظ برأسك ولتعش، كالملوك إن أمكن. هذا ما قاله خليل. وكريم قاتل أم مقتول؟

فـى ١٧ نوفمـبر ١٩٧٧ سـافر السـادات إلـى إسـرائيل. فـى اليـوم التالى، صباح يوم العيـد، جـاء خمسـة مـن رجـال الأمـن إلـى بيتنـا وأخذوا مُريد لترحيلـه مـن مصـر.

بعد شهرين، سـافرت للقـاء مُريـد فـى بيـت شـقيقه فـى الدوحـة. صـورة تميـم فـى جـواز سـفره الأول: مـدور الوجـه. لا يبتسـم، يبدو قلقـا أو منزعجـا. فـى الزاويتيـن السـفليتين للصـورة تبـدو يـدان تسـاعدان الولـد الرضيـع علـى الجلـوس منتصبـا. كـان ابـن سـتة أشـهر أو ربمـا أقـل قليـلا بإمكانـه الجلـوس، علـى الأرجـح. ربمـا خشـيت مـن سـقوطه مـن علـى مقعـد المصـور فقرفصـت وراءه وسـندته بيـدىّ. أرسـلت الصـورة إلـى مُريـد ليسـتخرج لـه جـواز سفر مستقل يمكننـى مـن اصطحابـه إلـى الدوحـة فـى أجـازة نصـف السـنة.

ميدان التحرير. مبنـى المجمـع. امـرأة فـى الثلاثيـن تصعـد السـلم وسـط جمـهرة الصـاعدين والـهابطين. تسـأل. تقـف فـى صـف طويـل. تقـترب تدريجيـا مـن القضبـان الحديديـة للشـباك. تصـل.

تمد يدها للموظفة الجالسة وراءه بجوازى سفر. جوازها : أخضر يحمل شعار النسر تعلوه عبارة جمهورية مصر العربية مكتوبة بالعربية وبالفرنسية، وجواز خضرته أفتح يحمل نقش تاج تعلوه عبارة المملكة الأردنية الهاشمية بالعربية والإنجليزية، ونسخة مصوّرة من جواز سفر ثالث. تعيد الموظفة الأوراق والجوازين للمرأة. عليها أن تكتب، فضلا عن طلب الإقامة، طلبا آخر. "فى المكتب رقم كذا" قالت الموظفة. اشترت المرأة ورقا أبيض وطوابع دمغة. توجّهت للمكتب رقم كذا. "المطلوب؟" "كتابة إقرار بكفالة الطفل والتعهد بإعالته. لا بد من كتابة إقرار". المرأة لا ترى الورقة. المرأة لا تتعرف على الحروف. المرأة تخطئ فى هجاء الكلمات. تمزّق الورقة. تبدأ من جديد. تخطئ فى كتابة إسمها. ورقة جديدة. تخطئ فى كتابة التاريخ. تعيد الطلب للمرة الرابعة. أخيرا كتبت الإقرار. ختمه الموظف. مكتب ثالث. يسأل الموظف:

- تاريخ الوصول إلى مصر؟
- وصول من ؟
- وصول ابنك.
- عمره ستة أشهر. ولد فى مصر ولم يغادرها.
- تاريخ آخر وصول لوالده؟

يبحث فى الأوراق المصورة.

- وجدته: ١٧/ ٥/ ٧٧، للحصول على الإقامة لابد من تسجيل

تاريخ آخر وصول.

- ولكن إبنى مولود بعد هذا التاريخ بشهر!
- لا يهم!

سجل التاريخ على الجواز والإقامة لمدة عام. حملت المرأة الجواز إلى موظفة كتبت: "البيانات صحيحة" ووقعت. موظف أخير طبع خاتمين: خاتم صغير وخاتم النسر يحمل إسم مصلحة وثائق السفر والهجرة والجنسية مضافا إليها: وحدة تسجيل الأجانب.

بإمكانها الآن أن تصطحب ابنها لزيارة أبيه. وضعت المرأة الأوراق فى حقيبتها ومضت.

يونيو ٧٧ قبل ترحيل مُريد بخمسة اشهر، بعد ثلاثة أيام من ولادة تميم. صورة فوتوغرافية: تميم: أحمله ملفلفا فى الأقمطة البيضاء، أحيطه بكلتا ذراعى. لا يبدو منه سوى شعره الأسود يغطى جزءا من جبينه. عيناه مغلقتان. النيل واضح ورائى يملأ خلفية الصورة، أمامى المستشفى الذى غادرته قبل دقائق، لا يظهر فى الصورة. نفس الشارع الذى وُلدت فيه قبل واحد وثلاثين سنة. يمتد بطول الشاطئ الجنوبى لجزيرة منيل الروضة من المبانى الخلفية للقصر العينى فى اقصى الطرف الشمالى للجزيرة إلى مقياس الروضة فى أقصى طرفها الغربى مارا بكوبرى الجامعة وكوبرى عباس. ولادة عسرة دامت ليلتين. جاء تميم. ذهب مُريد لتسجيل شهادة

ميلاده. عاد. بدا مندهشا ومرتبكا. قال وهو يجلس بجوار سريرى فى المستشفى: "أعطيت البيانات للموظف، وعقد الزواج وورقة المستشفى. ونبّهته إن الأم مصرية" قال الموظف: "سأسجل فى الشهادة إسم الأم وجنسيتها ولكن لا معنى لهذا على الإطلاق. أن تكون الأم مصرية أو انجليزية أو إسرائيلية لا يهمنا فى شيء. المهم الأب!"

لتقينا بمُريد فى الدوحة وفى بودابست وفى عمّان، فى العطلات الصيفية وعطلات نصف السنة، والتقيت به فى الجزائر والإمارات والمغرب فى فعاليات ثقافية دعينا معا للمشاركة فيها.

بعد سبع سنوات من الترحيل سوف يتمكن مُريد من العودة إلى بيتنا فى القاهرة ليس للإقامة معنا بل لزيارتنا زيارات قصيرة تحكمها فى كل مرة موافقة مسبقة من الجهات الأمنية عند وصوله إلى مطار القاهرة يختم ضابط المطار جواز سفره ويؤشر عليه بعبارة "أسبوع لايجدد" أو "أسبوعان فقط". نستقبله فى المطار. نودّعه فى المطار. ننتظر أن نذهب إليه فىعطلتنا الصيفية أو نقدم طلبا جديدا قد يوافقون عليه فيزورنا مرة أخرى. دامت بنا هذه الحال عشر سنوات أخرى.

فى يناير ١٩٩٥ سمح لمُريد بالإقامة فى مصر. عاد إلى البيت رقم ٦ شارع رامز بالمهندسين، نفس البيت الذى غادره مرحّلا قبل سبعة عشر عاما. كبرنا، صرنا فى الخمسين، أتمها

مُريد قبل عام وكنت أتمها فى العام التالى. تميم أيضا كبر، أصبح فى الصف الثالث الثانوى يستعد لامتحان الثانوية العامة. بعد شهور سيصطحبه أبوه إلى لجنة الامتحان ثم يذهب إليه بعد ساعات ليصطحبه إلى البيت.

اجتاز تميم الامتحان وحصل على ٩١,٦%. أعلن عن فتح المرحلة الأولى بمكتب التنسيق. ذهب مع زملائه. وقف فى الصف. اشترى الاستمارات. عاد ظافرا إلى البيت. بعد يومين اتضح أن الاستمارات التى اشتراها لا تخصّه. للوافدين تنسيق خاص. أين؟ فى منشية البكرى فى مواجهة بيت عبد الناصر. ذهبنا. الشروط المفصّلة مكتوبة بخط واضح على ورق مقوى معلق بباب المكتب. اشترينا الاستمارات الصحيحة. حالتنا: طالب وافد، أمه مصرية، درس المراحل التعليمية الثلاث فى المدارس المصرية. المطلوب؟ فضلا عن استمارات التنسيق، عقد زواج الوالدين. بطاقة الأم أو جواز سفرها. شهادة من جهة العمل إن كانت عاملة. شهادات الابتدائية والإعدادية والثانوية العامة. قدّمناها. أرفقنا خطابا من جامعة عين شمس يفيد بأن الدكتورة رضوى عاشور أستاذ ورئيس قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب.

ظهرت نتيجة التنسيق: قبل تميم فى الكلية التى أراد الالتحاق بها فى جامعة القاهرة. بدأت الدراسة فى أواخر شهر تسعة. شهر أكتوبر: نسأل فى الكلية عن الأوراق. لم تصل. نوفمبر:

لم تصـــــل. أخــيرا ديســمبر: وصلـــت. إدارة شــئون الطـــلاب: قـــامت الموظفـــة المحجبـــة مـــن وراء مكتبـــها. أخرجـــت عـــددا مـــن الملفـــات. استلّت منها واحـــدا. ملــفّ تميـــم.

– وافـــد؟

– أمه مصريـــــة.

– أرامـــل والاّ مطلقـــات؟

كررت بصـــوت أحـــد

– أرامـــل والاّ مطلقـــات؟

– مش فاهمـــة

صرخت فـــى

– سيادتك أرملــــــة؟

– لأ

– مطلقـــة؟

– لأ

– يبقى الولد وافـــد، أجنبـــى. مالـــهاش معنـــى الأم المصريـــة.

التقطت نفســا عميقــا:

– قـــرار المجلـس الأعلـــى للجامعـــات الصـــادر فـــــى شـــهر مـــــايو المـــاضى يقضـــى بمعاملـــة أبنـــاء المصريـــات مـــن الطـــــلاب نفـــس معاملة الطـــلاب المصريـــين.

– ما وصلنيش قرار مـــن هـــذا النـــوع!

٢ شـــارع ضريـــح ســـعد. الإدارة العامـــة للوافديـــن. تعـــرّف علـــــى

أحد كبار الموظفيـــن. قـــال أنـــه حضـــر لـــى مناقشـــة دكتـــوراه. طلـــب لى قهوة. أعطـــانى صـــورة مـــن قـــرار المجلـس الأعلـــى. قـــال أعتقـــد أنـــهم تراجعـــوا عـــن القـــرار دون إثبـــات ذلـــك فـــى الأوراق واســـتبدلوا به إعفـــاء أبنـــاء المصريـــات الذيـــن يقيمـــون فـــى مصـــر مـــن تســـعين فـــى المائـــة مـــن المصروفـــات بشـــرط تقديـــم بيـــان حالـــة. "يعنـــــى؟" "يعنـــى شـــهادة مفادهـــا أن الوضـــع المـــادى للأســـرة لا يســـمح بدفـــــع المصروفـــات!"

فى هذه الســـنوات المعلّقـــة بيـــن الكـــوارث العامـــة والخاصـــة عشـــنا كغيرنا من البشـــر. لـــم تخـــل حياتنـــا مـــن مبـــاهج، صغـــيرة أوكبـــيرة، فالحياة تحمى نفسها فى نهايـــة المطـــاف. بعـــد أيـــام قليلـــة مـــن مجـــازر صبرا وشاتيلا ســـوف يذهـــب تميـــم إلـــى يومـــه الأول فـــى المدرســـة، مدرســـة الحريـــة بـــالجيزة. يرتـــدى قميصـــا أبيـــض وبنطـــالا رماديـــا وربطـــة عنـــق حمـــراء داكنـــة. أتأملـــه بعينـــىّ وعينـــىّ أبيـــه فـــأعيش فرحـــا مزدوجـــا وكـــاملا ومطلقـــا. لـــم يكـــن الذهـــاب المنتظـــم كـــــل صبـــاح إلـــى مكـــان بـــه أطفـــال ومعلّمـــات ومشـــرفات جديـــدا علـــــى تميـــم، كـــان عمـــره عامـــا ونصـــف حيـــن ألحقنـــاه بحضانـــة "مـــانى نينى"، حضانـــة خاصـــة فـــى بودابســـت، واظـــب علـــى الذهـــاب إليـــها مـــن ينـــاير حتـــى أغســـطس ١٩٧٩. فـــى ســـبتمبر رفضـــت الجامعـــة الموافقـــة علـــى طلبـــى بتمديـــد إجـــازتى لمرافقـــة الـــزوج. عدنـــا إلـــى مصر. دخـــل تميـــم حضانـــة أخـــرى فـــى القـــاهرة. فـــى نهايـــة العـــام الدراســـى رجعنـــا إلـــى بودابســـت. ألحقنـــاه بحضانـــة جديـــدة يقـــول

إسمها باعتداد: "بودابشتى هاريشنيا جيار أوفودا" (حضانة مصنع جوارب بودابست). انتظم فى هذه الحضانة عامين متصلين. يأخذه أبوه فى الثامنة صباحا ويأتى به فى الرابعة مساء فيدخل البيت بحصيلة من الحكايات أو أغنية أو وردة يقدمها لى أو ثمار الجوز فى جيوبه. ينتحى جانبا من الشرفة، يقرفص، يخرج غنيمته، يخلع حذاءه، يمسك بإحدى الفردتين يكسّر بها حبات الجوز. أحاول أن أثنيه، يقول بحسم إن الجوز يُكسر هكذا، هكذا يفعل كل الصغار فى الحضانة! كم كان عمره حين قال لى: "الحقيقة زى البندقة لازم الواحد يتعب لغاية ما يلاقيها"؟ لم أفهم من أين أتته هذه الفكرة إلا عندما دخل البيت يحمل تلك اللفافات الشوكية: "ما هذا يا تميم؟" "بندق" ظننته يمزح: "فين البندق؟!" "مستخبى جوا لازم أطلّعه".

سوف نخرج أيام العطلة إلى تلال بودا، غابات من أشجار البلوط والسرو والحور والكستناء والجوز وأشجار أخرى لا نجد من يدلّنا على أسمائها. نركض ونقفز ونلعب بالكرة ثم نجلس على حصيرتنا نتناول ما حملناه معنا من الطعام. أو نذهب إلى مطعم الخيول فى تلك القرية المجرية. نقبل على الحساء. يقدمونه لنا فى قصعة فيها ما يكفى عشرة أشخاص. يتعجل تميم الانتهاء من وجبته لأنه يقصد الخيول يريد إطعامها أو لمسها أومتابعة ركضها. فى هذا المطعم فى صيف ١٩٨٤، حصل تميم، وكان فى السابعة، على البيضة التى أرادها. كنا

نتناول غداءنا حين مر قروى ينادى على بضاعته: "بيضة تجلب لصاحبها الحظ". فى يد الرجل بيضة عليها حُدوة منمنمة مثبتة بمسامير دقيقة. "أريد واحدة!" دفع مُريد ثمن البيضة. مد تميم يده، أمسك بها. هتف: "الله! بقى عندى حظ، حايسمحوا لبابا يرجع مصر!" دارينا تأثرنا بالحديث عن البيضة. قلنا إنها جميلة ومدهشة. قلنا أنظر يا تميم كيف صنعها الرجل: ثقبها هذا الثقب الدقيق، ليفرغ ما فى داخلها ثم ثبّت الحدوة بالمسامير دون أن تتكسر، كيف؟! لم ينسى أى منا ما قاله تميم ذلك اليوم وعندما سُمح لمُريد بالدخول إلى مصر بعد شهرين اكتسبت البيضة مكانة ليس لأننا، أنا ومُريد على الأقل، صدقنا أنها جلبت الحظ لتميم ولنا بل لمجرد أن تميم قال ما قاله وتحققت الأمنية.

تتداخل الخيوط، كلها تتداخل. حتى أيام المستشفى لم تخل من فرح ناعم وعميق. المستشفى القريب فى أول أسبوعين. المستشفى الآخر البعيد فى الأسابيع الثلاثة التالية. مصحة للأمراض الصدرية كل ما فيها كئيب يزيد من وطأة المرض. لا يرافقنى فى حجرتى سوى المذياع الروسى الصنع، اشتراه لى مُريد خصيصا لالتقاط بث الإذاعة المصرية ومتابعة أخبار حملة سبتمبر ١٩٨١. مُريد يأخذ تميم إلى الحضانة فى الثامنة صباحا. يأتى لزيارتى. نحتسى قهوتنا. يذهب إلى عمله. فى الثالثة يغادر مكتبه. يذهب إلى الحضانة ليأتى بتميم. فى الرابعة

أبدأ فى الانتظار. يصلان فى الرابعة والربع أو بعدها بقليل. عبر النافذة أرى السيارة اللادا البيضاء. مُريد فى مقعد القيادة، تميم فى المقعد الخلفى. تبطئ السيارة. تتوقف. ينزلان. أحوّل عينىّ إلى الباب.

فى القاهرة كان تميم يأتى لزيارتى وأنا أرقد فى مستشفى بدران وبعدها فى مستشفى مجدى. يروقه أن ينام فى سريرى. كان فى الثالثة. صار الآن فى الرابعة لا يشغله السرير بل العربة المعدنية التى تجرها الممرضة محملة بوجبات عشاء المرضى. تضع الصينية بجوارى يواصل اهتمامه: "ممكن يا ماما آكل معاك؟" انتهى وقت الزيارة. يغادران. أراهما معا عبر النافذة يلتفتان ويلوحان. تحملهما السيارة وتبتعد. أرى المشهد كاملا عبر النافذة وزهرة جربيرا برتقالية فى مزهرية من فخار جاء بهما مُريد (الزهرة عاشت أسبوعاً كاملاً والمزهرية انتقلت معنا من المستشفى إلى بيتنا فى بودابست ثم إلى بيت شارع رامز والآن معنا فى هذا البيت). لم يكن مجرد حزن ولا أسى بل حياة ممتلئة بخيوط متشابكة شوكية بداخلها حبات البندق. صديقاتى فى السجن: لطيفة وأمينة وعواطف وفريدة وشاهنده وصافى ناز، والعديد من معارفى، وعشرات من القيادات السياسية والثقافية فى مصر. المعتقلون المعترف بهم رسميا ألف وخمسمائة لم يرد بينهم إسمى وإن ورد فى قائمة الأساتذة المطرودين من الجامعة. الأوضاع فى مصر لها

وطأة أحدّ من تلك الآلام التى تمتد من ظهرى إلى كتفى الأيسر وعنقى بعد كل مرة يضعون الإبرة فى الرئة لسحب ما فيها من ماء. لكن الحياة، أكرر، تحمى نفسها. فى المستشفى فى سبتمبر ٨١ وأنا مصابة بانسكاب بلّورى فى رئتى اليمنى كان مُريد وتميم يأتيان كل يوم ويبدو أننى أتماثل للشفاء فيسمح لى الطبيب بقضاء عطلة نهاية الأسبوع فى البيت. مساء الجمعة أعود إلى البيت. باكرا صباح الاثنين يعيدنى مُريد للمستشفى. وأحيانا، حين أتمكن ويسمح لى الطبيب، أمشى فى حديقة المصحّة. أتأمّل أشجار البلّوط والكستناء، أتعرف على جذوعها وأوراقها وثمارها. يبدو لى الوجود أليفا ومتينا، رغم كل شىء.

تميم يحب المطارات والسفر، يقول ذلك فأعلّق على ما يقوله أحيانا، وأحيانا أسكت. ركب الطائرة لأول مرة وعمره سبعة شهور. رافقتنا فى رحلتنا إلى الدوحة والدة مُريد. كانت الرحلة ميسّرة على غير رحلتنا إلى بودابست فى سبتمبر التالى. الإجراءات الأمنية فى المطارمشددة. قبل أيام عقدت اتفاقية كامب ديفيد الأولى. قال موظف الأمن: غير مسموح للركاب حمل أية حقائب فى كابينة الركاب. بيدى حقيبة صغيرة بها غيار الولد وغطاء صوفى صغير وعلبة حليب وزجاجة الرضاع. أفهمته.

- ممنوع الشنط منعا باتا!

- والحل؟
- بسيطة، أمسكيهم في يدك.
-كيف؟
- في كيس نايلون.

كان علي أن أنتظر المرور بضابط الجوازات قبل الوصول إلى السوق الحرة حيث أكياس النايلون.

حشرت علبة الحليب وغيار تميم في حقيبة اليد، علقتها على كتفي. حملت تميم وزجاجة الحليب في يد وجوازيّ السفر والتذاكر في اليد الأخرى. اتجهت إلى ضابط الجوازات. مددت يدي بالأوراق، انسلتت زجاجة الحليب. سقطت على الأرض. انكسرت. لشهور طويلة لن يملّ تميم من ترديد حكاية انكسار زجاجة الحليب. كان عمره عاما وثلاثة أشهر ويقدر على تكوين جمل مفيدة.

لم يكن أتم السادسة من عمره حين ركب الطائرة وحده. ودعته بهدوء، لن ألتقي به قبل شهرين يتعين علي فيهما تصحيح أوراق طلابي وإنهاء أعمال الامتحانات. كتبت له بطاقة المغادرة. وزنت له حقيبته. قبلته: "سلم على بابا" لوّح لي. مشى مبتعدا. استدار. لوّح لي مرة أخرى وهو يبتسم. كان فرحا.

لم أكن أخشى الطائرات. صرت أخشاها. الشيخوخة؟ (مع الشيخوخة يتشبث البشر بحياتهم أكثر وهذا منطقي رغم

المفارقة الظاهرة: أليست الشيخوخة في أحد تعريفاتها حياة مهددة بالرحيل). الأرجح أنها الشيخوخة، أقول لنفسي لمقاومة تطيّر يوسوس بأن الطائرة ستقتلني. هل هو الوعي بأن طائرة ما، غدا أو بعد غد، ستحمل تميم إلى بلد ما يكون فيها غريبا لأنه فلسطيني فتحمله طائرة أخرى ثم تتوالد الطائرات لترسم في حركتها المعلقة في الفضاء خريطة موازية؟ أليس هذا قانون الشتات الذي حكم كل من عرفت من أمهات الفلسطينيين، حكم أم مُريد وأولادها الأربعة؟ أم أن السبب هو تراكم مخاوف لم أسمح لها أبدا أن تعبّر عن نفسها في حينه فتستدّ مني بحضور مضاعف: تلك الساعة التي أنتظرها في المطار، أنتظر بهدوء كأنني لست معلّقة على حبل غريب بيد ضابط يسمح لمُريد بدخول البلد أو لا يسمح، ومخاوف استجدّت ما إن بلغ تميم الرابعة عشرة من عمره فيوقفونه لبعض الوقت لفحص القوائم والتأكد. ونكون سويا عائدين من السفر فأقدم الجوازين معا، يختم الضابط جوازي ويقول لتميم انتظر، أنتظر معه، يقول الضابط: "اتفضلي حضرتك" يصيغ الأمر بلطف ويكون علي أن أمتثل فأمرّ لأقف في جانب من السور وتميم في الجانب الآخر. ننتظر.

أمامي الآن على المكتب أربعة عشر جواز سفر قديم لي ولمُريد ولتميم، كلها تحمل خاتم "ملغي". أحملها في يدي فأبدو كموظفي شركات السياحة في المطار يستقبلون مجموعة

سياحية ويجمعون جوازاتها لإنهاء الإجراءات.

أثناء إقامتنا في بودابست تكررت زيارتنا لفيينا فالمسافة بين العاصمتين لاتتجاوز ٢٦٠ كيلو تقطعها السيارة في ثلاث ساعات. نذهب إلى فيينا لقضاء عطلة قصيرة، للعلاج أحيانا، للقاء أصدقاء ...إلخ. الأردن لم تعد تجدد جوزات مواطنيها المرتبطين بمنظمة الحرير. لم تجدد جواز مُريد. يحمل جواز سفر جزائري منحته له الجزائر. الإسم على الجواز مُريد البرغوثي. الوظيفة شاعر. مكان الميلاد: دير غسانة، الجزائر! أحمل جواز سفر مصري. ولأن المرأة في الشرع تتبع زوجها فقد سجلت مصلحة الجوازات المصرية، من باب أضعف الإيمان، تحت ملحوظات: زوجة نوّاف عبد الرازق البرغوثي، أردني الجنسية. ونوّاف هو إسم مُريد التي سجله مختار القرية عام ١٩٤٤ لأن القابلة عندما ذهبت إليه لتخبره أن عبد الرازق وسكينة أتاهما ولد سألها عن الإسم تلعثمت. قالت إنه إسم غريب. حاولت تذكّره. لم تتذكر. حل لها المختار المشكلة: قال أخوه منيف، نسميه نوّاف. سجل المختار ميلاد الطفل وحمل الشهادة إلى والدته. أخذتها منه. شكرته. حفظتها بعيدا عن أيدي الأولاد حتى اليوم الذي عاد فيه مُريد من المدرسة - كان في الحادية عشرة- وأخبرها أن المدير يطلب شهادة الميلاد لأنها ضرورية قبل دخول امتحان الشهادة الابتدائية. ساعتها فقط اكتشف مُريد إسمه الآخر. القابلة والمختار اللذان

لم التق بهما حددا الإسم المسجّل في جواز سفري وجواز سفر تميم. احتلال الصهاينة للجزء الأكبر من فلسطين أدى إلى ضم الضفة الغربية لنهر الأردن إلى الضفة الشرقية فنشأت المملكة الأردنية الهاشمية وصار مُريد ومن بعده تميم أردنيين. رفض الأردن لتجديد جوازات سفر الفلسطينيين أدى إلى أن يحمل مُريد جوازا جزائريا يحدد مكان الميلاد بدير غسانة الجزائر، رغم أنه على قدر علمي لا توجد قرية في الجزائر بهذا الإسم. لكن لحرية الفرد مزاياها وفي أوروبا العلاقات المفتوحة لم يكن ضابط الجوازات النمسوي على نقطة الحدود بين المجر والنمسا ليتوقف طويلا. حالة عادية: شخص جزائري يصادق امرأة مصرية لها طفل من زيجة أو علاقة سابقة بشخص أردني. ربما يستوقفه تكرار إسم برغوثي. لا يستفسر، يخشى أن يبدو جاهلا فقد يكون الإسم شائعا كاسم محمد بين العرب أو يان بين النمسويين! وإن عقّدها الضابط وواجهتنا مشكلة نصبح كبراقش المثل: جنت على نفسها ما دام ذهابنا إلى فيينا ترف كان بإمكاننا التخلي عنه. أما أن يأتي مُريد للقاء زوجته وابنه والإقامة أياما معدودة في بيته فلا ترف هنا ولا براقش. نذهب لاستقباله في مطار القاهرة، ننتظر في الممر الكئيب لكي نتابع عن قرب الخارجين من قاعة الوصول. ننتظر ساعة أو ساعتين فيبدو ذلك محتملا ربما لأننا تعودنا وأيضا لأن العبرة بالنهايات، أقصد السماح لمُريد بالدخول.

عام ١٩٨٦ انتظرنا عشر ساعات من الواحدة بعد منتصف الليل حتى الحادية عشرة صباحا. غادرنا المطار فى الرابعة والنصف فجرا بدون مُريد. السبب: تأشيرة السفارة المصرية لا تعنى شيئا، لابد من الموافقة المعتادة للاظوغلى (قسم فلسطين بمباحث أمن الدولة). عدنا إلى البيت. تميم يكرر:

– حانعمل ايه يا ماما؟

– الصباح رباح يا تميم.

يدخل سريره ينادى على:

– ماما، تفتكرى بابا حيدخل؟

– أيوه يا تميم، الصبح إن شاء الله يدخل

– متأكدة؟

لا أجيب. يكرر:

– متأكدة؟

– نام يا حبيبى

أدخن. أفكر: أبدأ بالاتصال بمن ومتى. كيف أعالج تغيبى عن لجنة الامتحان الشفهى لطلاب السنة الرابعة المقرر عقده فى الكلية صباح الغد. أتطلع إلى الساعة: السادسة. فى الثامنة صباحا اتصل بأحد العاملين بمكتب المنظمة. وبّخنى على عدم الاتصال بالمكتب قبل وصول مُريد لعمل اللازم! (لم يحدث أن لجأت إلى المكتب لتسهيل دخول مُريد سوى مرة واحدة لم يأتنى فيها جواب، تجاهلا أو إهمالا أو عجزا، الله أعلم!) اتصل

بصديق لنا. يعد بحل المشكلة: "إعطنى عشر دقائق فأعاود الاتصال بك". اتصل برئيسة القسم: " وضع طارئ أرجو أن تحل إحدى زميلاتى مكانى إلى أن آتى". يتصل الصديق بى كما وعد. يتصل مرة أخرى، وأخيرا: "بعد نصف ساعة سيكون مُريد فى طريقه إلى البيت، لا تذهبى إلى المطار". فى الحادية عشرة يصل مُريد إلى البيت. أعد القهوة، نشربها معا. أغادر على عجل إلى الكلية. أقول لتميم وأنا أضحك: "فرصة نادرة للانفراد بأبيك!"

فى عام ١٩٩٣ بدا أننا نتقدم، رغم كل شيء، ساعات الانتظار العشر صارت خمسا! مُريد مدعو من الهيئة العامة لقصور الثقافة للمشاركة فى مهرجان الشعر العربى. موعد وصول الطائرة من عمان الثانية ظهرا. قلت لتميم: "لا داعى للتغيب عن المدرسة. أنت تعود للبيت فى الثالثة أو الثالثة والربع، تذهب وتشترى وردا لأبيك وتعود فتجدنا فى البيت أو نأتيك بعدها بربع ساعة. أبوك مدعو رسميا ومعه سعدى يوسف وابراهيم نصر الله. لن تستغرق إجراءات الدخول سوى دقائق". فى المطار، اثنان من موظفى المجلس الأعلى للثقافة ينتظران لاستقبال الضيوف. هبطت الطائرة بسلام. مرت ساعة، ساعتان. يدخل أحد الموظفين إلى المنطقة الجمركية. يعود. يتصل بالمجلس. يدخل مرة أخرى. اتصل بتميم: "ما المشكلة؟" "يمكن عمك سعدى لأنه عراقى، يمكن بابا، لا أعرف" يظهر موظف المجلس وفى يده قطعة شيكولاته: "الأستاذ مُريد أرسلها لك، يعرف أنك أتيت من الكلية مباشرة!" يتصل بالمجلس، يطلب منهم الاتصال بمكتب الوزير. يقف بجوار التليفون. بعد عشر دقائق يعاود

الاتصال. يدخل إلى المنطقة الجمركية. بعد ساعة يظهر، متهلل الوجه هذه المرة. "خير؟" "عرفنا المشكلة، هناك تتطابق بين اسم الأستاذ مُريد فى جواز السفر وإسم ثانى على الكومبيوتر ممنوع من الدخول، تشابه الأسماء تسبب فى هذا التأخير!" لم أعلّق. واصلنا الانتظار حتى ظهر الفرسان الثلاثة: ابراهيم نصرالله- سمحوا له بالدخول وبقى تضامنا مع مُريد وسعدى. وبعد ثلاث ساعات ونصف وافقوا على دخول سعدى- بقى مع ابراهيم نصرالله من أجل مُريد. وأخيرا سُمح لمُريد بالدخول فخرج ثلاثتهم. وصلنا بيت شارع رامز قبل التاسعة بقليل.

ولأن ذلك كله يمر بهدوء فهو لا يمر.

الأمر أكثر تركيبا وهذه الكتابة تختزل. كم مرة حملتنا الطائرة برفق وسلام لنلتقى؟ صارت الطائرة المجرية- الوحيدة التى تذهب مباشرة من القاهرة إلى بودابست- أليفة كالأوتوبيس أو قطار الاسكندرية. تقلع بنا فى الثالثة والنصف فجرا. نصل مطار بودابست فى الصباح المبكر. يحملنا مُريد فى سيارته. نقطع شوارع بشت ثم الدانوب فى طريقنا إلى بودا فى الضفة الغربية للنهر. نصعد باتجاه حى "الروجا دومب". نميل يمينا إلى شارع "فيرهالُم"، يهدئ مُريد سرعة السيارة. يتوقف أمام البقالة. يدخل تميم ويعود مبتهجا بأقراص الخبز التى أحبها منذ كان يتردد على الحضانة فى المجر. نتجاوز البقالة إلى مجموعة البنايات السكنية. نمر من البوابة. عن يميننا شجرتى الحور العاليتين وأرجوحة الأطفال. ننحرف يسارا. يوقف مُريد

السيارة. نحمل أمتعتنا. نصعد إلى الطابق الثالث. نفتح الباب على الأثاث الأليف. هذا أيضا بيتنا. المطبخ الصغير إلى يسار الداخل يطل على شجرتى الحور وأرجوحة الأطفال. أنادى على تميم لتناول غداءه أو عشاءه أو ينادى مُريد عليه: "يا تميم" أحيانا، وأحيانا "يا تمتم" أو "طماطم" (تحولت لاحقا إلى "طماطيش" ثم "مُكرّر" و"معقود" بعد زيارة للجزائر عرف فيها مُريد أن صلصة الطماطم فى الجزائرية الدارجة يطلق عليها: "مُكَرّر معقود الطَماطيش" فتوزعت الكلمات الثلاث أسماء جديدة لتميم) يصيح مُريد بأعلى صوته: "معقود! مكرر!" فيأتى صوت تميم من تحت النافذة "نعم يابابا!" فى لحظات الغيظ أو التوتر: "يازفت!" "نعم يا ماما!" يركض صاعدا إلى الطابق الثالث متوجّسا من توبيخ ما على الطريق. يدق الجرس. أفتح الباب فيجدنا نضحك. هو أيضا يلتقط المفارقة، يضحك!

فى الثالثة من عمره سيحصل تميم على عوده الأول، اشتراه له أبوه من تونس. ومن بودابست، من امرأة غجرية سمراء تبسط على مدخل سوق الخضرة القريب من الحضانة مصنوعاتها من القش والخيزران والخشب سنشترى لتميم كرسيا صغيرا. يجلس عليه، يمسك العود، يرتجل تلك "الملاحم" المبكرة الطريفة التى يضمّنها كل معارفه: من المكرونة إلى فلسطين.

نتناسى أنها زيارة لأسابيع معدودة تنتهى بانتهاء العُطلة.

نستقبل الأهل والأصدقاء. سيأتي حسين مروة عام ١٩٨٣. وفي العام التالي ناجي العلي. سيجلس تميم على كرسيه الصغير ويقدم عرضا فنيا لأبي نزار، حسين مروة؛ وعلى ورقة دفتر صغير يرسم ناجي حنظلة يمسك بوردة، يقول: صباح الخير يا تميم. يغادران. تنقل دار الإذاعة البريطانية في نشرتها خبر الاغتيال. حسين مروة في بيته في بيروت. أسمع الخبر في القاهرة. يسمعه مُريد في بودابست. خبر اغتيال ناجي العلي في لندن، نسمعه معا، من نفس الإذاعة، في "بلاطون فولدفار" قرية على شاطئ بحيرة البلاطون في المجر. كاتم الصوت في الحالتين. إميل حبيبي ولطيفة الزيات ماتا بالشيخوخة على سرير المرض. في بودابست أتت لطيفة لتميم ببيانو أحمر صغير. تربّع أمامه ودق عليه، عمره سنة ونصف، قال: "ارقصي يا لطيفة" ضحكت. قامت وخطت خطوتين. جلست وضحكت أكثر. بعدها بسنوات ضحك إميل عاليا وطويلا، يهتز جسمه الممتلئ؛ يمسك بخاصرتيه: "من شان الله ياتميم، كفاية!" ولكن تميم يواصل قول نكته المصرية التي لا تنفذ. في مطلع التسعينيات سوف ألتقي بإميل في مطار القاهرة. نتصافح، يعي كل منا الفجوة المستجدة بعد قبوله للجائزة التي منحتها له دولة إسرائيل. استلمها في يوم ١٥ مايو، "يوم استقلال الدولة". بين الأعلام الاسرائيلية المرفرفة سيصعد إميل لمصافحة شامير ويتسلم جائزته. بعد خمس

سنوات، يوم ١٥ مايو نفسه ستودع دمشق جثمان سعد الله ونوس. هو أيضا زارنا. مشينا في تلال بودا، حكى وحكيت عن الانسكاب البلّوري الذي أصابه وأصابني.

تفرقت المسالك وتشعبت الطرق. جميعهم رحلوا. تركنا بودابست.

رن جرس البـــاب. فتحـــت. ثريـــا، جـــارتى. دعوتـــها للدخـــول، ظلـــت واقفة بالبـــاب:

-على أن أشـــترى بعـــض الأغـــراض. متـــى تســـافرين؟

- مساء الغـــد.

- سمعت الأخبـــار؟

- لا

- بشير الجميل مـــات. بـــالأمس قـــالوا أنـــه أصيـــب فـــى انفجـــار بيـــت الكتائب. هذا الصباح، ســـمعت الأخبـــار، قـــالوا إنـــه مـــات.

ذهبـــت. أغلقـــت البـــاب. الســـاعة تقـــترب مـــن الحاديـــة عشـــــرة. مُريـــد فـــى المكتـــب وتميـــم فـــى الحضانـــة. لـــم أفتـــح الراديـــو ولا التلفزيون لمعرفـــة التفـــاصيل. واصلـــت الإعـــداد للســـفر.

مســـاء اليـــوم التـــالى، الخميـــس. حملنـــا مُريـــد فـــى ســـيارته الـــلادا إلـــى المطـــار. أقلعـــت بنـــا الطـــائرة فـــى العاشـــرة والنصـــف مســـــاء. تميـــم شـــديد التـــأثر لمفارقـــة أبيـــه، أشـــاغله بـــالحديث عـــن المدرســـــة الجديدة التـــى ســـيدخلها، عـــن أهلنـــا وأصدقائنـــا الذيـــن ينتظروننـــا فـــى القاهرة، عـــن زيارتنـــا القادمـــة لبودابســـت، "فـــى أجـــازة نـــص الســـنه،

تلعب فى الثلج مع أصحابك". ظل صامتا ثم استغرق فى النوم. أرجعت ظهر مقعدى إلى الخلف قليلا. أغمضت عينى. فى طريقى إلى القاهرة بعد عامين من الإقامة فى بودابست جئت إليها فى أعقاب عمليتين جراحيتين كبيرتين. العام الأول فيه متسع، للنقاهة، للكتابة، لحياتنا معا. العام الثانى مضغوط بما يحمله، حقيبة منتفخة ثقيلة تكاد تتفزر من كثرة المحشور فيها: إصابة فى الرئة اليمنى. المستشفى. المستشفى مرة أخرى. فى مصر الاعتقالات. طرد من الجامعة. مقتل رئيس. تولى آخر. إفراج عن المعتقلين. قرار جمهورى بعودة الأساتذة المفصولين. اجتياح لبنان، حصار بيروت. رحيل المقاومة الفلسطينية. سفن وشاحنات وأرز ودموع. جراحة جديدة. مُريد يلوح لنا مودِّعا. أخيرا الطائرة.

هبطت فى لارناكا. بعد ثلاثة أرباع الساعة أقلعت فى طريقها إلى القاهرة. وصلناها فى الثانية والنصف فجرا. فى الرابعة وصلنا إلى البيت. تميم يكرر: "بابا وحشنى". جَلَسْنا معا فى الصالة، انتظرنا حتى طلوع النهار. يتسلل الضوء من السواتر الخشبية للنوافذ وكذلك زقزقة العصافير. بدا المكان أقل وحشة فدخلنا لننام.

نمت نوما متقطعا ولما استيقظت انهمكت فى فتح الحقائب وترتيب الملابس وشراء الضرورى من المأكولات. فى المساء جاءت أمى لزيارتى وأيضا بعض الأصدقاء. لم أشترى

جرائد. لم أفتح المذياع. صباح السبت كان على أن أذهب إلى طبيب- قبل سفرى بأسبوع أجريت لى جراحة صغيرة كانت تستلزم تغيير الضمادات والمتابعة - بعدها ذهبنا إلى بيتنا فى المنيل. هناك لمحت عناوين الصفحة الأولى فى الأهرام. لم أقرأ التفاصيل. أعتقد أننى لم أعرف ما جرى إلا فى اليوم التالى: يوم الأحد ١٩، أقصد احتلال الإسرائيليين لبيروت والمذابح. ولا أدرى لماذا ارتبطت ذاكرة ما حدث فى تلك الأيام فى بيروت بكل التفاصيل المحيطة بالسفر كأن عدم متابعتى وانتباهى أيام الأربعاء والخميس والجمعة من الخطايا التى لا تنسى ولا تُغتفر. تبقى متصدرة فى الذاكرة. أعرف أن فى الأمر مفارقة ساخرة ومُرة لأن متابعتى للحدث أو عدم متابعتى له لا وزن لهما فالمحصلة النهائية عجز مطلق فى الحالتين، وقهر، ولا شىء آخر. ومع ذلك يبقى أن الانهماك فى الحدث يؤكد أننا ننتمى له وللقتيل هناك الذى هو قتيلنا. لا ليس تماما. أقصد ليس التعبير معادلا لما شعرت وما زلت أشعر به. ربما شعور مقارب لشعور حماتى كلما فكرت أن ابنها منيف، أكبر أولادها، كان ملقى على الرصيف فى شارع من شوارع باريس ينزف دما ويموت. تحاول أن تتذكر ماالذى كانت تفعله يوم الاثنين فى الحادية عشرة ليلا. هل كانت نائمة؟ كيف كانت نائمة؟ تكاد الفكرة تحيلها إلى الجنون، يصبح النوم ذنبا، وعدم المعرفة لا يشفع فى الذنب بل يكرّسه.

عندما دقت ثريا الباب صباح الأربعاء ونقلت لي خبر قتل بشير الجميّل كان إريال شارون، الرجل البدين الذي يحب الكلاب ويكره العرب، يقف على سطح بناية عالية بالقرب من السفارة الكويتية في بيروت يراقب المدينة والمخيمات. بعدها إتصل ببيغن وقال: "قواتنا تتقدم نحو اهدافها. أستطيع أن أراها بأم العين". أتم شارون الاتصال ثم ذهب إلى بكْفيّا لتقديم واجب العزاء في بشير الجميّل. لا أذكر متى نمت ليلة الثلاثاء ومتى استيقظت صباح الأربعاء ولكنني الآن أعرف أن الاسرائيليين، طوال ليلة الثلاثاء على الأربعاء، كانوا ينقلون عتادهم ومظلييهم عبر جسر جوي مكثّف يصل مطاراتهم بمطار بيروت. في الفجر كنت نائمة. بدأت القوات الاسرائيلية التي تطوق بيروت الغربية من الضاحية جنوبا ومن المرفأ شمالا دخول المدينة. الأربعاء- الخميس أعد للسفر، أغسل ملابسنا، أكويها، أشتري ألواح شيكولاتة صغيرة عليها رسوم طريفة يحبها تميم، سأعطيه منها وهو ذاهب إلى المدرسة. سقطت بيروت. الدبابات الإسرائيلية في شارع الحمراء. في الفاكهاني. في كورنيش المزرعة. ظهر السبت كانت القوات الإسرائيلية استولت على كل بيروت ومكّنت رجال الكتائب وسعد حداد من قضاء اربعين ساعة في مخيمي صبرا وشاتيلا. استخدموا الرصاص والفئوس والبلطات والسكاكين. قتلوا. ذبحوا. اغتصبوا. حطموا الرءوس. قطعوا الأطراف. مثلوا بالجثث.

نهبوا ما أمكن نهبه من أموال وحلي. السبت: أنجزت المهمة. تركوا المخيم. الأحد: الجرافات. الجثث. الذباب. كمامات رجال الإسعاف. عدسات مصوري وكالات الأنباء. نساء ينتحبن. دبلوماسيون أجانب يتنقلون بخطى ثقيلة بين الأزقة.

ليلة الخميس على الجمعة. الطائرة في الجو. عبر النافذة ظلام مطبق تقطعه مؤشرات ضوئية متقطعة. في بيروت تُقطع الكهرباء، يُخيّم على المدينة ظلام كامل تقطعه بدءا من منتصف الليل صواريخ مضيئة موجّهة إلى المخيمات. في الحادية عشرة ليلا- بعد ساعة من إقلاع الطائرة من مطار بودابست- يُبلّغ قائد القوات الكتائبية التي دخلت شاتيلا تقريره إلى القائد الاسرائيلي: "قتلنا حتى الآن ٣٠٠ مدني وإرهابي". حصيلة الساعات الست الأولى. الحصيلة النهائية، لم يمكن تحديدها بهذه الدقة. أمكن لمصادر الحكومة اللبنانية أن تحصر ٢١٢ جثة دفنت في المقابر الجماعية بعد الفشل في تحديد هويات أصحابها. ٣٠٢ جثة تم التعرّف عليها وإحراقها بواسطة فرق الإسعاف. ٢٤٨ جثة دفنت بواسطة الصليب الأحمر. حوالي ١٢٠٠ جثة تعرّف عليها أهلها ودفنوها في مقابر خاصة. كانت هناك جثث أخرى- يقدر عددها بالمئات- تحت الأنقاض، وجثث دفنها رجال الكتّائب وسعد حداد في حفر جماعية، أثناء المجزرة، لم يسمح، بعدها، بنبشها. وأكثر من ألف رجل- قدرت الصحافة الفرنسية عددهم بألفين- حُملوا في

شاحنات نقلتهم إلى جهات غير معلومة. غابوا إلى الأبد. فقد المخيم فى أربعين ساعة ما يقرب من ربع سكانه. وطوال الأربعين ساعة سيتابع الإسرائيليون ما يجرى عبر مناظيرهم المكبرة، من مواقعهم المشرفة على أسطح البنايات الثلاث المتاخمة. لاحقا سوف يشهد أحد ضباطهم: "كنا نرى كما يرى مشاهدو الصف الأول خشبة المسرح".

سوف ترى الحكومة الإسرائيلية ضرورة نشر ما يبرئ إسرائيل مما حدث. نُشر البيان كإعلان مدفوع الأجر فى كل من "النيويورك تايمز" و"الواشنطون بوست" تحت عنوان: "مؤامرة دموية":

"أثناء راس السنة، حيكت ضد الدولة اليهودية وحكومتها وضد جيش الدفاع الإسرائيلى مؤامرة دموية حقيقية. ففى مكان بعيد عن موقع جيش الدفاع الإسرائيلى دخلت وحدة لبنانية إلى مخيم للاجئين، حيث كان يختبئ الإرهابيون، بهدف القبض عليهم. اعتدت هذه الوحدة على السكان، وأوقعت عددا كبيرا من الضحايا فى صفوفهم. ونحن نسجل هذه الواقعة بحزن وبأسف عميقين. وما كاد الجيش الإسرائيلى يعرف بما جرى فى مخيم شاتيلا حتى بادر إلى وقف سفك دماء المدنيين الأبرياء، وإلى إرغام الوحدة اللبنانية على مغادرة المخيم.

ولقد بادر السكان المدنيون أنفسهم إلى التعبير صراحة عن عرفانهم بالجميل لعملية الإنقاذ التى قامت بها قوات جيش

الدفاع الإسرائيلى. إن كل الاتهامات الصريحة والمبطّنة التى زعمت أن الجيش الإسرائيلى يتحمل أى قسط من المسئولية فى هذه المأساة اتهامات لا أساس لها من الصحة ترفضها الحكومة وتنظر إليها بازدراء. لقد ثبت أنه لولا تدخل الحكومة الإسرائيلية لكان عدد الضحايا أكثر بكثير مما هو عليه الآن.

ومن جهة أخرى، فإن تساحال (الجيش الإسرائيلى) قام بعملياته ضد الإرهابيين فى بيروت الغربية مدة يومين على التوالى دون أن تصدر شكوى واحدة تفيد الاعتداء على المدنيين من السكان.

وفى هذه الأثناء اتضح أن الارهابيين خرقوا اتفاق الجلاء وأبقوا فى بيروت الغربية ٢٠٠٠ إرهابيا فضلا عن مستودعات سلاح كبيرة بها دبابات ومدافع هاون وكميات هائلة من كل أنواع الذخيرة.

وكان هدفهم من كل ذلك متابعة أعمال الإرهاب الدموية ضد إسرائيل وغيرها من الشعوب، إنطلاقا من بيروت الغربية.

وبرغم التشهير الذى يجد له تجاوبا داخل البلاد ذاتها فإننا ندعو الشعب إلى الالتفاف حول حكومته المنتخبة والتى تناضل من أجل ضمان الأمن والسلام لاسرائيل وجميع سكانها. لن يعطينا أحد دروسا فى الأخلاق وفى احترام الحياة الانسانية وهى القيم التى قادت خطواتنا والتى فى ضوئها سنواصل إعداد أجيال من المقاتلين فى إسرائيل"

"عبء الرجل الأبيض" مرة أخرى! الجيش الاسرائيلى (إسمه جيش الدفاع) جيش إنقاذ. "إن دخول الجيش الإسرائيلى (إلى بيروت) يحمل السلام والأمان، ويحول دون مجزرة يتعرض لها السكان الفلسطينيين فى القسم الغربى من بيروت". شارون للمبعوث الأمريكى دريبر. "دخولنا إلى بيروت حال دون وقوع كارثة" رافائيل إيتان، رئيس الأركان، للصحافة الإسرائيلية. ليس الاستعمار الكلاسيكى وحده، هم أيضا فى حاجة لاعتماد صورة أخلاقية عن الذات. ربما كانت حاجتهم أكبر لأنهم يهود يحملون تراث الضحية المتطلّعة إلى العدل. لابد أن تعكس المرآة نبل الوجه وسموه الأخلاقى. الوجه القديم، المعتمد. الكارثة أن تسقط فجأة على المرآة بقعة ضوء مباغتة فيرى الوجه ذاته غير ذاته فيفزع أو يدير ظهره أو يمد يده ليكسر المرآة لأنها حقيرة وكاذبة. فى الكنيست اعلن شارون: "كل محاولة لربط هذه القصة التعيسة بجيشنا، بما فى ذلك المطالبة بتعيين لجنة تحقيق هى تجنّى يرتكب فى حق جيش الدفاع الإسرائيلى، فى حق المسئولين عنه، وفى حق الشعب الإسرائيلى بأسره" قد يبدو هذا التصريح طبيعيا لأن شارون وزير الدفاع المسئول الأول فى عملية اجتياح لبنان ودخول بيروت ومذابح صبرا وشتيلا يدافع عن نفسه وعن المؤسسة العسكرية التى يرأسها. ولكنه قد يكتسب معنى أعمق فى ضوء ما كتبه إسرائيليون فى إدانة المذبحة. قال أحد الجنود

إن مرأى أكوام الجثث فى مخيمى بيروت جعلنى أخجل، لأول مرة، من انتمائى للجيش الإسرائيلى." وقال أحد الصحفيين: "هذه المجزرة جعلت من حرب لبنان الكارثة الكبرى التى حلت بالشعب اليهودى منذ المحرقة." وقال أحد الأدباء: "ياسيد بيغن، بضربة واحدة خسرت ملايين الأطفال اليهود الذين كانوا كل ما تملك على هذه الأرض. إن أطفال أوشفتز لم يعودوا ملكا لك. لقد هدرتهم. بعتهم دون ربح." كان بإمكانهم جميعا إدانة المجزرة وربما سهل عليهم ذلك أن الأيدى التى نفذتها لم تكن إسرائيلية، وأن الغزو كان لأرض مجاورة إسمها لبنان أما الخطيئة الأصلية التى سمحت لهم بإقامة دولتهم فهذا ما لاطاقة للمرآة على احتماله، كان على المرآة أن تحتفظ بالصمت، ربما ببعض الظلال، ذلك إن غالت فى جرأتها. قليلون هم اليهود القادرون على الصياح على طريقة طفل أندرسون بأن الملك الذى يتفنن الكل فى الإطراء على روعة ملابسه، عار تماما. وهذا ما سوف يلتقطه نعوم شومسكى الكاتب اليهودى الأمريكى حين يصف إلي ويزل بأنه أفاق بشع، فويزل الحاصل على جائزة نوبل وعلى جوائز عالمية عديدة والذى كتب مجلدات ضد الصمت وفصل تجربة يهود المحرقة وهو الناجى منها لا يرى مفارقة فى صمته المطبق إزاء ما يحدث للفلسطينيين ولا فى ارتباطه وعمله فى الأربعينيات مع الإرغون أكثر العصابات الصهيونية عنصرية وإرهابا. سوف

يتشبث مئيات المثقفين اليهود بفكرة التراث الأخلاقي لليهود. سوف يواصلون اعتماد الهوية العتيقة مسقطين المحتوى المستجد لكلمة يهودي: محتوى صنعته دير ياسين وبحر البقر وتكسير العظام وقانا. إنها هوية مستجدة لا تملك المرآة إلا طمسها.

في قرطبة، قبل خمسة أعوام، وعلى مدخل مسجدها الجامع رأيت رجلا إسرائيليا وامرأته وبدا لي، رغم أنني لا أعرف اللغة العبرية، أنهما يتشاجران. تساءلت إن كان القبح البادي على وجهيهما إسقاطا لمشاعري عليهما أم أنهما فعلا قبيحان. مزيج من الغلظة والفجاجة وشيء آخر منفر لم أستطع تحديده. في داخل المسجد-الكنيسة رأيت مجموعة كاملة من السواح الإسرائيليين. لم يكن أحد منهم يتشاجر، كانوا ينصتون لمرشد سياحي. راقبتهم لحظات. ابتعدت. لا ليس إحساسي بالقهر، شيء في الوجوه، في الحركة، في نظرة العين، ما هو؟ لعلها هذه المرآة، لعله الكذب أو التنكر لحلم العدل القديم والإدعاء بأنه قائم. وربما شيء آخر. أتذكر الآن مقال جان جنيه: "أربع ساعات في شاتيلا" كنت ترجمته من الفرنسية إلى العربية مع الدكتورة أمينة رشيد في عام ١٩٨٣.

يقول جنيه: "قبل حرب الجزائر، في فرنسا، لم يكن العرب يتسمون بالجمال فهيأتهم ثقيلة، وخطواتهم متباطئة، ووجوههم معوجة. وفجأة حلاهم النصر. ولكن قبل أن يتحول ذلك النصر

إلى شيء مبهر، عندما كان أكثر من نصف مليون جندي فرنسي يلقون حتفهم وينتهون في الأوراس وفي الجزائر كلها كان بالإمكان ملاحظة تلك الظاهرة الغريبة التي تعتمل على وجه العمال العرب وفي أجسادهم: شيء كجمال يقترب، كحدس بجمال ما زال هشا وإن كان سيخطف الأبصار عندما تسقط القشور عن جلودهم وأعيننا. وكان لابد من قبول ذلك الأمر الجلي: أنهم تحرروا سياسيا ليظهروا بالشكل الذي ينبغي علينا أن نراهم به، غاية في الجمال. كذلك أيضا كان الفدائيون الهاربين من مخيمات اللجوء، الهاربين من المخيمات ونظامها و قانونها الذي فرضته ضرورة البقاء. ولما كان هذا الجمال جديدا، أي وليدا، أي بريئا، فقد كان نضرا وحيا إلى حد اكتشافه الفوري لذلك الذي يربط بينه وبين كل جمال في هذا العالم ينتزع نفسه من العار".

للعين العابرة يبدو ما يقوله جنيه مجرّد تعبير بلاغي عن انحيازه ومحبته لثوار الجزائر وثوار فلسطين. ولكنني أعتقد أنه بكلامه يصوغ قانونا إنسانيا عاما. قبله بأقل قليلا من سبعين عاما انتبه ييتس، الشاعر الإيرلندي، لنفس القانون حين كتب قصيدته الشهيرة عن انتفاضة ١٩١٦: ناس عاديون، يعرفهم: هذا جلف، وذاك سكير، وتلك عالية الصوت، سوقية مزعجة؛ يحملهم مجرى الحياة اليومية، يشاركون في ملهاتها السخيفة. "فجأة" تقول القصيدة، "يولد جمال مروّع". يشتد بهم الحب.

يُقدِمون. قلوبهم حجر يعترض المجرى. يُقتلون. "يتغيرون، يتغيرون تماما: يولد جمال مروّع". إن هذا الجمال الذى رآه جنيه ومن قبله بيتس يقابله قبح يمليه التواطؤ والكذب. وكأن المرآة تنتقم من الصمت المفروض عليها فتترك للوجه والنظرة وحركة الجسم وإيقاع الكلام مهمّة فضح ذلك الشىء المتفسخ فى الداخل والذى كان نضرا وحيا وبريئا ذات يوم، ولم يعد.

الفصل الرابع عشر

نبّهنى تميم- وكنت أحدثه عن مفهوم "الكا" و"البا" عند قدماء المصريين- إلى أن العرب، فى أيام الجاهلية وصدر الإسلام، كانت تعتقد أن روح القتيل تصير طائرا يحوم حول أهله صائحا: "اسقونى، سقونى" حتى يأخذوا بثأره. قال تميم: كانت العرب تسمى هذا الطائر الهامة ربما لاعتقادها بأنه يخرج من رأس القتيل. كذلك تسميه طائر الصدى، والصدى تعنى، فضلا عن رجع الصوت، العطش.

رجعت لكتاب "حياة الحيوان الكبرى" للدميرى فتأكد لى دقة ما قاله تميم. عرفت أن الهامة أوالصدى هو ذكر البوم، طائر من طيور الليل يخرج من بيته ليلا. يرتبط فى بعض الحكايات بالقتيل ولا يقتصر، فى بعضها الآخر، عليه. ويقول الدميرى: "تزعم العرب أن الإنسان إذا مات أو قتل تتصور نفسُه فى صورة طائر تصرخ على قبره مستوحشة لجسدها". ويرد تعبير "طيران الهامة" فى بعض أبيات الشعر القديم، مزاوجا بين قطع

الرأس والإشارة للطائر. والبُوّه، بضم الباء وتشديد الواو، طائر يشبه البوم إلا أنه أصغر منه.

استوقفنا التشابه بين هذا المعتقد ومفهوم الروح أو البا لدى قدماء المصريين وقد صوروها على شكل طائر له رأس إنسان وأحيانا له ذراعاه أيضا. ترافق البا صاحبها إلى قبره ولكنها لا تبقى حبيسة معه فيه بل تتنقل بحرية بينه وبين عالم الأحياء، تزور أهل الميت أو الأماكن التى ألفها، تفى بحاجتها إلى الطعام والشراب والسفاد نهارا وفى الليل تعود إلى قبر صاحبها، تتوحد بجسده لتضمن لهذا الجسد الخلود.

تعرفت على "البا" وأنا أبحث عن مفهوم "الكا" فوجدت أن الإشارة لأحدهما ترتبط دائما بالإشارة للآخر، وأحيانا ترد ضمن تناول تصور قدماء المصريين للشخصية الإنسانية. لم أجد ما كنت أبحث عنه، ولكننى عرفت بعض الأشياء، منها مثلا أن شخصية الإنسان تتكون من أجزاء خمسة: جسده وكاوه وباوه وإسمه وظله. ولا يبدو أن ما وصل إلينا أو ما اكتشفه الدارسون حتى الآن يسمح بفهم كامل لهذه العناصر ربما لأنهم لم يجدوا فى رصيدنا الحالى مفاهيم مقابلة لها. ولسوء الحظ فإن مفهوم "الكا"، وهو ما أبحث عنه، كان وما زال أكثرها غموضا ومدعاة للالتباس.

تُصور بعض النقوش القديمة هذا الفرعون أو ذاك ووراءه شخص يطابقه، ولعل هذه النقوش هى التى تسببت فى ترجمة

"الكا" فى البحوث المبكرة بكلمة "قرين". فخنوم إله الخلق له عجلة دوّارة كعجلة الفخارين هىَ أداته فى صنع البشر، يستخدمها فى تشكيل نسختين متطابقتين: جسد المولود الجديد وكاوه التى تلازمه من يوم ميلاده إلى ما بعد الموت. فى حياته يكون الإنسان "سيد كائه"، "يروح ويجيئ معها"، وإن بقيت غير مرئية. تحمل "الكا" ملامح الشخص وصفاته، لها نفس الطول والعرض والمشية والضحكة، وترتدى ثيابا مطابقة لثيابه. قد تتركه ساعة نومه لتذهب فى جولة هنا أو هناك تلتقى فيها كاءات أخرى تتحدث معها. وعلى غير "البا" التى تأخذ شكل طائر، يُرمز للكا بيدين مرفوعتين فوق الرأس ذلك لأن إله الشمس بدأ الوجود بأن تفل من فمه زوج الآلهة الأول ووضع ذراعيه خلفهما فكللتهما كاوه وفاضت عليهما بالحياة. لكل إذن كاوه: الآلهة والملوك والبشر. لرَع أربع عشرة، وللفرعون أكثر من واحدة، أما باقى البشر فلكل واحدة. تولد معه، تلازمه فى حياته، وحين يموت لا تموت معه. تصاحبه إلى قبره، تسكن فى مومياته أو تمثاله الجنائزى. يحمل لها الأهل ما تقتات به من مأكولات لتبقى حية لأن فى حياتها تأمين لبعث صاحبها وخلوده.

يفسر بعض الدارسين "الكا" بأنها طاقة الحياة لدى الشخص، قوته الروحية، قدرته الإبداعية ولكن الغريب أن الكا لا تسكن فى جسم الانسان بل فى إسمه، فهى تحل فيه وهو يجسدها.

وتربط بعض النصوص بين الكا والإسم الذى لا يبلى رغم رحيل صاحبه. وتشير هذه النصوص إلى من يبقى ذكرهم فى الأرض رغم أنهم لم يصنعوا لأنفسهم أهرامات من نحاس أوشواهد من حديد. لم يخلفوا ذرية ترثهم، تحمل أسماءهم وتكررها. استبدلوا بها جميعا ما أنتجوه من كتابات وأسفار وتعاليم تشهد على قوة كاءاتهم وبقاء أسمائهم بعد أن يطوى النسيان أقاربهم، ويموت الكهنة المسئولون عن قبورهم، وتتحول هذه القبور إلى أطلال.

لا أريد أن أدخل فى تفاصيل جديدة حول الإسم والظل وعلاقة كل منهما بهذه "الكا" المحيرة التى رحت أقرأ عنها وأنا أكتب هذه الرواية. استسهل البعض ترجمة "الكا" بكلمة قرين ولكن ما معنى كلمة قرين؟

عدت إلى "لسان العرب" فوجدت أن ابن منظور المصرى أفرد لقرن ثلاث عشرة صفحة. للكلمة واشتقاقاتها عشرات المعانى منها، القرين: المصاحب، وتعنى أيضا الأسير وفى الحديث: أنه عليه السلام، مر برجلين مقترنين فقال: ما بال القران؟ قالا: نذرنا، أى مشدودين أحدهما إلى الآخر بحبل. والقرن، بالتحريك، الحبل الذى يشدان به... وقوله تعالى: وآخرين مقرنين فى الأصفاد" والقرن: مثلك فى السن، تقول هو على قرنى أى على سنى. الأصمعى: هو قرنه فى السن، بالفتح، وهو قرنه، بالكسر، إذا كان مثله فى الشجاعة. والقرن:

الحبل يقرن به البعيران... وقال:

أبلغ أبا مسمع، إن كنت لاقيه، إنى، لدى الباب، كالمشدود فى قرن

والقرين: صاحبك الذى يقارنك... والقرن، بالكسر: كفؤك فى الشجاعة والحرب، والقرن بفتح القاف، الحصن، وجمعه قرون... والقرون والقرونة والقرينة والقرين: النفس".

هل الكا تجسيد للنفس؟

وأين موقع شجر من ذلك كله؟ ولماذا أريد أن يكون لهذه الرواية نفس العنوان الذى اختارته شجر لكتابها عن دير ياسين؟ ليس العنوان متطابقا، ليس تماما، عنوان كتابها "الأطياف"، إسم معرفة؛ استبدلت به "أطياف" مجردة من أداة التعريف. أغلق الجزء السادس والأخير من "لسان العرب" حيث كلمة قرن، وأفتح الجزء الرابع بحثا عن ما يضيفه لى ابن منظور. خمس صفحات يفصل فيها معانى واشتقاقات كلمة طوف. أقتبس منها:

"طاف بالقوم وعليهم... استدار وجاء من نواحيه. وأطاف فلان بالأمر إذا أحاط به، وفى التنزيل العزيز: يطاف عليهم بآنية من فضة.

وقيل: أطاف به حام حوله وأطاف به وعليه: طرقه ليلا...

قال الفراء: الطائف والطيف سواء، هو ما كان كالخيال والشيء يلم بك... وروى عن مجاهد فى قوله تعالى إذا مسهم

طائف قال: الغضب... قال أبو منصور: الطيف في كلام العرب الجنون... وقيل للغضب طيف لأن عقل من استفزه الغضب يعزب حتى يصير في صورة المجنون الذي زال عقله... وطاف في البلاد طوفا وتطوافا وطوف: سار فيها... وقال أبو الهيثم الطائف هو الخادم الذي يخدمك برفق وعناية...

والطائفة من الشيء: جزء منه... الطائفة الجماعة من الناس وتقع على الواحد كأنه أراد نفسا طائفة...

والطوف... خشب يشد ويركب عليه في البحر والجمع أطواف. وقال أبو منصور التي يعبر عليها في الأنهار الكبار تسوى من القصب والعيدان يشد بعضها فوق بعض ثم تقمط بالقمط حتى يؤمن انحلالها، ثم تركب ويعبر عليها.

والطوفان: الماء الذي يغشى كل مكان، وقيل المطر الغالب الذي يغرق من كثرته، وقيل الطوفان الموت العظيم. وفي الحديث عن عائشة، رضي الله عنها، قالت: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: الطوفان الموت، وقيل الطوفان من كل شيء ما كان كثيرا محيطا مطيفا بالجماعة كلها كالغرق الذي يشتمل على المدن الكثيرة. والقتل الذريع والموت الجارف يقال له طوفان... ويقال لشدة سواد الليل.

وتحت طيف يكتب ابن منظور: طيف الخيال: مجيئه في النوم... وأطاف لغة. والطيف: الخيال نفسه."

لا أظن أن شجر رجعت إلى "لسان العرب". كان الكتاب

المنسوخ على الآلة الكاتبة يحمل عنوان: "دير ياسين: تحقيق حول مجزرة" ولكنها في ذلك الصباح وهي تحتسي قهوتها، قبل أن تغادر بيتها للقاء الناشر، غيّرت العنوان إلى "الأطياف: رواية دير ياسين". هل كان السبب مجيئ عزيزة ونزيهة وباسمة زهران في الحلم تلك الليلة؟ أم كانت تربط، بوعي أو بلا وعي، بين زائرات الليل ورحلة أخرى شغلتها طويلا في صباها حيث العبور في النهر المستتر من ضفة إلى ضفة؟!

ماذا تفعل شجر؟

تكتب كتابا في التاريخ.

الكلمات تختزل. تكذب. كيف تفسّر الأصوات التي لازمتها، كلمات حياة البلبيسي، منديل باسمة زهران، عمر؟ جاءها في المنام، لم يكن ابن عامين بل مثلها كبيرا. "الموتى لا يكبرون" تمتمت شجر. المصعد معطل. تنزل الدرج الذي صعدته إلى قسم المصنفات الفنية بوزارة الثقافة. يفحصون الأشرطة الواردة من خارج البلاد. في الطابق التاسع ببناية في القصر العيني، تتسلمها. توقّع. تراسل أصدقاء تعرفهم وآخرين لا تعرف إلا أسماءهم ووظائفهم. يحمل لها ساعي البريد أوراقا مصوّرة أو كتابا أو فصلا من كتاب. يصلها على الفاكس صفحة من جريدة ، شهادة بخط اليد، أخرى منسوخة على آلة كاتبة: كلامهم منقولا إلى الفصحى. لماذا؟ الأشرطة: نص كلماتهم بلغتهم اليومية الدارجة، تحملها بحرص أكبر.

عجيب أمرك يا شجر، تسعين بقدميك إلى الأطياف. تعودين بهم إلى البيت. تنصتين. لم تتفرغي لشيخوختك بعد ياشجر. هل

صرت جدتك القديمة، تُبقين حديثهم فى صدرك أو تحكين بعضه القليل للصغار المجتمعين على العشاء؟ تنزل على الدرج. تذهب إلى بيتها. تنصت. حملان، لا حول لها ولا قوة إزاء سكين الجزّار؟ كذب:

شكّلنا لجنة طوارئ لتنظيم الدفاع عن القرية. أقمنا استحكامات. نظّمنا الحراسة الليلية: تناوبنا على الحراسة من السادسة مساء إلى الثانية عشرة ليلا، ومن الثانية عشرة ليلا إلى السادسة صباحا. حفرنا خنادق فى مدخل القرية جهة الشرق، من ناحية جيفعات شاؤول. نقلنا أحجارا كبيرة من الكسارات: قطعنا الطريق من ناحية المدرسة. أوكلنا إلى على قاسم وهو من المحاربين القدامى فى ثورة ١٩٣٦ وصلاح عَبد الذى عمل فى قوة الحدود البريطانية مهمة تدريب شبابنا. أرسلنا مجموعة منهم إلى مصر لشراء الأسلحة. سافروا وعادوا بخمسة وعشرين بندقية ومدفعى رشاش، طراز ستين.

خليل سمّور:

بلغ سعر البندقية ٥٥ جنيها وهو المرتب الشهرى لكبار موظفى حكومة الانتداب العرب. بلغ سعر المخزن الواحد للبندقية (٥ طلقات) ٥٠ قرشا وهى أجرة يوم كامل للعامل العربى العادى. نساء القرية تبرعن بحليّهن لشراء الأسلحة.

حسين عطية:

حملت معى إلى مصر ١٠٠٠ جنيه فلسطينى. اتصلت بالسماسرة. أخذونى إلى المنصورة. اشتريت خمس بنادق مع ذخيرتها. اعتقلتنى المخابرات المصرية. صادرت السلاح والذخيرة. أفرجت عنى بعد اتصالات مع قيادة الجيش المصرى. تولّى الجيش نقل السلاح. سلّمه لى فى رفح. وضعته فى صناديق فى سيارة شحن تحمل خضارا إلى القدس، ومنها إلى عين كارم، ومن عين كارم على الدواب إلى دير ياسين. وصلتها يوم الأحد ١٩٤٨/٤/٤.

عادوا من مصر. المعارك مشتعلة فى القسطل. بمقدور الصغار متابعة تفاصيلها من فوق أسطح الدور. سقطت القسطل. استعدناها. وصلت تعزيزات من الهاغاناه إلى المهاجمين اليهود. حاصرونا. يوم الثلاثاء ٤/٦ أرسلت القسطل تطلب النجدة من القرى المجاورة. توجه ١٢ شاب من دير ياسين للمشاركة فى الدفاع عنها.

الضابط الإسرائيلىعوزى نركيس:

وصلت القسطل يوم الخميس ٨ إبريل لإمداد القوات بالمؤن والذخيرة. سألت إذا كانت الأمور تسير على ما يرام. قالوا

أمورنا ممتازة والمعنويات عالية. جعلنا العرب ينسحبون ولا خسائر من جانبنا، ولكن توجد جثة واحدة هناك. ذهبت إليها. ما زلت أتذكر هذه الجثة: ممددة على بطنها في الحقل في رداء بني فاتح. لم نكن نعلم من هو صاحبها ولكنه كان يحمل معه مصحفا. أخذت المصحف وغادرت.

زينب عطية (أم صلاح):

لما شباب بلدنا ذهبوا إلى القسطل غنينا للمجاهدين وفرحنا بأخبار انتصار عبد القادر الحسيني. لم نعلم أنه استشهد وأن القسطل سقطت إلا من واحد من بلدنا إسمه يوسف أحمد عليا، قال لنا: "مثل ما غنيتن، راح تبكين بدل الدموع دم".

الحاج محمد محمود أسعد:

فوجئنا بنبأ استشهاد عبد القادر الحسيني... كبار رجال القرية جمعوا الشباب والرجال الذين يحملون السلاح... تم توزيعهم على المواقع الرئيسية في القرية وعلى وجه الخصوص البوابة الشرقية والتي تحدّ مستعمرات جفعات شاؤول/ منتفيوري/ بيت هكيريم/ بيت فجان.

أم عيد:

يوم الخميس ليلا سمع زوجي محمد عيد نعي عبد القادر

الحسيني من جهاز راديو بالبطّارية. تحمم ونام. قمت بإخراج البابور بعد تنظيفه. شعرت بحركة في العتمة. خفت. اندفعت إلى داخل البيت. طرقت الباب بشدة أيقظت زوجي. هدّاني. رضّعت الولد. نمت.

عزيزة اسماعيل عطية:

لم أنم. من سطح دارنا رأيت تجمعا في جيفعات شاؤول. لم يكن زوجي بالبيت، كان يقف مع أخيه أحمد في نقطة حراسة عند الكسارات في المداخل الشرقية للقرية وكان الصغار نائمين. لم أتمكن من النوم. حملت صينية العجين وأغلقت الباب على الصغار واتجهت إلى فرن القرية. كانت الساعة حوالي الثانية صباحا.

أم عزيز:

لم ينم أحد في تلك الليلة...ذهبت مع عدة نساء من الحي كعادتنا نحمل العجين لنعد الخبز في الطابون. خبزت الطرحة الأولى سبعة أرغفة. وضعت الطرحة الثانية سبعة أرغفة أخرى. بقيت في الطابون. لم أخرجها.

إسماعيل محمد عطية:

في الثانية والنصف فجرا شاهدت أضواء كاشفة لسيارات

تغادر المستعمرات وتعود إليها أمام دارنا المطلة على الوادى والساحة فى جنوب شرقى القرية. ذهبنا إلى الطريق الرئيسية لاستطلاع الأمر. توقفت الحركة. بدا كل شيء ساكنا والظلام مطبقا. عدنا إلى مركز حراستنا قدّام الدار.

حسين عطية:

سمعنا وقع أقدام قادمة من الجهة الشمالية الشرقية. كنا نقف على تلة مشرفة على الطريق الرئيسى، فى مواجهة جيفعات شاؤول. توقفت الحركة وساد السكون. ثم سمعنا إطلاق النار خلفنا وسط البلد، عند مركز ابن العم اسماعيل عطية وابنه محمود.

الحاج محمد محمود أسعد:

فى الساعة الثالثة والنصف سمعنا طلقات نارية وصوت محمود إسماعيل عطية يصيح: "يا أهل البلد هاجمونا اليهود، هاجمونا اليهود".

حسين عطية:

بعدها مباشرة طلعت علينا مجموعة ثانية يهودية من الشمال، من عند المدرسة. بدأت المعركة بيننا وبينهم، وفى حارات وسط البلد. انتقلنا إلى دار الحاج أحمد رضوان المشرف على المدخل الشرقى للقرية. تمركزنا على سطح الدار. رأينا مصفحة إسرائيلية تقترب ووراءها عشرة مقاتلين ثم مجموعة أخرى مهاجمة تلحق بهم.

عزرا ياخين، الضابط الاسرائيلى المسئول عن مرافقة العربة المصفّحة:

اصطدمت العربة بالحفرة. كان علينا أن نردمها حتى نتمكن من الاستمرار. ثم وجدنا حفرة أخرى. وفى مدخل القرية حفرة ثالثة. قررنا أنه لا فائدة من الاستمرار.

أبو توفيق ياسينى:

عبروا حتى وصلوا المدرسة وكنا وضعنا بعض الأحجار ولم يستطيعوا التقدم أكثر. ترك أحدهم العربة وبدأ يرفع الأحجار. صوّب عليه واحد من شبابنا وأصابه. جذبه زملاؤه تحت العربة وأدخلوه فيها.

أبو محمود:

شغّلوا مكبر الصوت من المصفحة المحشورة فى الخندق. حاولوا إرهابنا حتى نغادر القرية ونهرب. أخذ مكبر الصوت يكرر: "أوقفوا القتال، إنسحبوا. إنجوا بحياتكم، إلقوا أسلحتكم".

حسين عطية:

استمر تبادل إطلاق النار. أصيب رضوان أسعد رضوان. بدأت ذخيرتنا تنفذ. إنسحبنا إلى الأعالى الغربية للقرية بعد أن نجحنا فى وقف المجموعة المهاجمة من المداخل الشرقية للقرية.

جمعة زهران:

خرجت من الدار لصلاة الفجر حوالى الرابعة. سمعت قرقعة. لم أعرف مصدرها بسبب الظلام. كان الجو غائما وبدأ رذاذ المطر. وحين بدأت المعركة فى حوالى الخامسة لم يكن معى سلاح لأن السلاح كان مع والدى الحاج محمد، ومع أخى على، وابن أخى محمد موسى. بعد الطلقات الأولى قُتل والدى. أخذت منه البندقية الإيطالية. فوجئت باليهود أمام بيوتنا. استحكمت خلف جدار وأخذت أطلق النار. انقض على أحد المهاجمين يريد سحب بندقيتى. تعاركنا بالأيدى. تغلّبت عليه. أطلقت عليه النار. أصبته. انصب على وابل من الرصاص. انسحبت إلىالأعالى الغربية للقرية. كان المقاتلون من شباب القرية تمركزوا هناك. بعدها لم أرى أيا من أفراد أسرتى وعائلتى ولا بيتنا.

أبو محمود:

ألقوا قنبلة يدوية داخل دار زهران فاحترقت الدار بمن فيها: ٢٨ فردا من أفراد الأسرة قتلوا فى الحال.

فقد جمعة زهران زوجته بسمة أسعد رضوان وأطفاله الخمسة: فاطمة وصفية وشفيقة وفتحى ورسمية، أكبرهم فى الثامنة من عمرها والأصغر لم تتم عامها الأول.

فقد جمعة أباه الحاج محمد زهران وأمه فاطمة وزوجة أبيه حَمْدَه.

فقد جمعة زوجة أخيه الأكبر موسى وأولادهما الأربعة.

فقد جمعة أخاه الأصغر على محمد زهران وابنه محمد على.

فقد جمعة زوجة عمه أحمد زهران وصغارهما الأربعة: الأكبر فى العاشرة والأصغر عمره عامان.

فقد جمعة ابن عمه محمود، شاب فى الثامنة عشرة من عمره.

أبو ياسين:

بقى عمرى تلاتعشر سنة وبقينا نايمين أنا واخوتى وأخواتى وأمى. أبوى بقى متوفى. صحينا فى نص الليل على صوت الرصاص والمدافع من جميع الجهات. طلع أخوى يشوف شو

صار وبعدين رجع بسرعة وأخذنا أنا واخوتي عشان يهرّبنا. أختي الزغيرة على ظهري والرصاص كان فوق روسنا مثل المطر. وصلّونا لعند طريق عين كارم ورجعت أمي وأخوي وكان معنا وقتها المعلمة حياة البلبيسي. وقفت وقالت: والله أنا مستحي من حالي واجبي بيحتم علي اني أرجع وأسعف الجرحى على الأقل. ورجعت وما كملتش الطريق معانا.

بدأت المقاومة عند المداخل الشمالية الشرقية للقرية وفي دارالحاج إسماعيل عطية المشرفة على الوادي في جنوبها الشرقي. تمكن أولاد الحاج وأحفاده من صد المجموعة المهاجمة وهي تحاول اقتحام البوابة المقابلة للوادي. أرغموها على التراجع. ثم انخرطوا في مواجهة المجموعة القادمة من الشرق.

تركّزت المقاومة في الأعالي الغربية المشرفة على القرية كلها. النيران تنصبّ على المهاجمين من أربعة مواقع: من بيت علي قاسم في أقصى غرب القرية. ومن بيت محمود رضوان وبيت أخيه حسن رضوان في شمالها الغربي. ومن بيت أبي علي صلاح آخر بيوت القرية في طرفها الشمالي الغربي (لم تتوقف المقاومة من هذا البيت الأخير إلا عندما وصلت وحدة من الهاغاناه بمدفعين اثنين بوصة قصفت بهما البيت).

الحاج محمد محمود أسعد:

استطاع علي قاسم أن يدحر المجموعة المهاجمة من جهة الغرب قبل أن يصاب إصابة خطرة وينقل إلى عين كارم.

حسن رضوان:

استيقظت على صوت الرصاص والصراخ، خرجت لاستطلاع الأمر. أخذت بندقية من ابن جاري. استحكمت أمام الدار، خلف جدار يُشرف على القرية كلها وعلى الطريق الرئيسية من جفعات شاؤول. كانت بندقيتي إنجليزية من مصر يحتوي مخزنها على خمس طلقات. وكان في منزلي حوالي ثلاثين مخزنا اشتريت ذخيرتها من هنا وهناك ومن بعض أهالي القرية. عند طلوع الشمس رأيت اليهود يأتون من الشرق، من عند بيوت زهران. كانت الساعة حوالي الخامسة. أخذت أطلق عليهم النار وهم يردون علي... في حوالي السابعة انضم إلى جمعة زهران وخليل سمّور وأخواه عبد المجيد وعبد الحميد.

في السابعة صباحا أرسل المهاجمون في طلب النجدة. جاءتهم من جفعات شاؤول. أسلحة. ذخيرة. قنابل يدوية. متفجرات. وحدتين من قوات الهاغناه ومدفعا هاون.

روفن غرينبرغ، من رجال الإتسيل (الإرغون)

كان العرب يقاتلون كالأسود. تفوقوا علينا فى دقة القنص. كانت النساء العربيات يركضن من بيوتهن تحت قصف النيران ويجمعن الأسلحة من المصابين من مقاتليهم ويحملنها إلى البيوت

يهوشع غولد سميث، ضابط عمليات إتسيل:

فكّرنا فى الإنسحاب. كانت المقاومة شديدة ولا نستطيع إخلاء جرحانا بسبب كثافة النيران. اقترحت تجميع القوة لمهاجمة كل منزل على حدة. نطلق عليه النيران بكثافة وتحت ساتر النيران يتقدم حملة المتفجرات لنسفه.

بتحيا زليفانكس، قائد قوة ليحى (شتيرن)

تقدمت كل مجموعة إلى الهدف. نسفنا الأبواب بأصابع غلغانيت. قذفنا قنابل يدوية إلى داخل الدور ورشقناها بالنيران.

موردخاى رعنان، قائد الإتسيل فى القدس- شارك فى الهجوم:

فى الساعة الحادية عشرة نسفنا المنزل الأول. بعدها بربع ساعة المنزل الثانى. هكذا كل ربع ساعة منزل. اعتبرنا كل منزل حصنا قائما بذاته.

كالمان روزنبلانت (من رجال الهاغاناه الذين جاءوا لاحقا لنجدة المهاجمين):

ألقينا القنابل اليدوية فى البيوت قبل أن ندخلها.

ديفيد غوتليب (من رجال ليحى):

حقق رجال الهاغاناه فى ساعة ما لم نستطع تحقيقه فى عدة ساعات. كان معهم أسلحة جيدة ولديهم خبرة قتالية.

الحاج محمد محمود أسعد:

فى عين رواس، تحت شجر الزيتون كان يتواجد العديد من جنود جيش الإنقاذ العربى الذى انسحب من القسطل. طلب منهم أهالى القرية الفارين من الموت نجدة القرية. كانوا يسمعون دوى المدافع. كان ردهم: "لا توجد لدينا أوامر بالتدخل".

زينب محمد اسماعيل عطية (أم صلاح):

والدى وعمى تمركزا فوق سطح المنزل... تنبها إلى أن الجنود يقتربون من أبو العبد صلاح. كان يتوضأ فى حوش داره المقابل لدارنا. حذراه فهرب إلى بيت ابنته المجاور. ولكن الجنود داهموه وقتلوا كل من فيه. كان عددهم ٢٧ شخصا. ابنة أبو العبد صلاح وزوجها وحماتها وحماها وإخوة زوجها

وعائلاتهم... أطلق والدي وجدي الرصاص في اتجاه الجنود فقتلا قائد الكتيبة وبعض الجنود، قصفوا الدار بمدافع الهاون، قتل والدي وجدي على السطح. اقتحموا بوابة الدار وطرقوا الباب. كنت مختبئة أنا وأطفالي وأخي الأصغر موسى. قالوا: "افتح الباب" لم أفتح. رموا قنبلة فأصيبت ابنتي مريم في قدميها. دخلوا البيت. أخوي موسى كان عمره تلاتعشر سنة، سحبوه من شعره إلى الحوش وركلوه بأرجلهم. أخرجت ٢٥٠ ليرة من عبّي وقدمتها إلى أحدهم مستجدية أن لايطلق عليه الرصاص. تناول الفلوس بيد وأطلق الرصاص بالأخرى. ثم صرخوا في وجهنا ياولاد الكلب اطلعوا... هربت طفلتي مريم، كان عمرها تلات سنين، عندما رأت اليهود يقتلون خالها موسى إلى زوجة أبي في الطابق الثاني. وجدتها مذبوحة فهربت إلى الطابق الثالث. وجدت خالها محمود ينزف، طلب منها ماء ... روت لي والدتي رحمها الله أن محمود ووالدي بقيا على قيد الحياة مدة ثلاثة أيام.

نزيهة أحمد أسعد رضوان:

دخلوا البيت. رجلان وامرأة مسلحين. قتلوا عمي رضوان. وضعونا أنا وجدتي وأخي عمر في قن الدجاج. ساروا نحو القرية. كان عمر عمره سنتين وأنا ثمانية. حملت ستي عمر على ظهرها وأخذتنا عبر بساتين الزيتون لنذهب إلى عمتي

بسمة في دار زهران. قابلنا يهودي. أطلق النار على ستي. سقطت على الأرض. سقط أخي عمر عن ظهرها. ركضت إلى دار عمتي بسمة. كان الحوش على وسعه كله جثث وباب الدار محروق والدخان طالع وعمتي على مدخل البيت مرمية ومن حولها جثث بناتها وابن عمتي فتحي، عمره ثلاث سنين. تحت رأس عمتي بركة دم وراسها مكشوف وشالتها مرْمية جنب راسها. سمعت أنينا من الداخل وبكا من الناحية الثانية. ناديت فأجابني صوت يقول: "أنا فاطمة" فعرفتها لأنها بنفس عمري وكنا نلعب سوى. سألتني: "أنت مين؟" قلت لها: "أنا نزيهة" قالت: "تعالي، أدخلي عندي". قلت لها: "مااقدرش. بيتكم محروق. تعالى انت بره" قالت: "مااقدرش. راسي متصاوب. فيه دم. مش قادرة امشي". رجعت إلى عمتي وضعت يدي على جبينها وراسها. حسست عليها. لقيت إيدي وشعري عليهم دم. اتفزعت وركضت على ستي وتمددت جنبها وجنب عمر. ونمت.

نعمة زهران (أم محمد):

حطوا المدفع الساعة اثنين ونص. أول قنبلة، ثاني قنبلة وثالث قنبلة... الرابعة بعيد منك كيف النار، الدخنة، لا احنا نشوفهم ولا هم يشوفونا. قال: افتح يا خنزيره. قلت مابفتحش. ضرب الخامسة صارت الدار علينا مثل الطابون، بطّلنا نشوف بعضنا.

قال افتح يا خنزيره، قلت بافتح بتقتل الأولاد. قال: ما باقتل جدا... هات على القلب اللى يقدم على الباب. صرنا زى الشايبين. رفعت الزند وقلت هى موته والا موتتين. إلا ما استرجى يفوت ... قال يا خنزيره هيك وهيك محمدك ودينك ...

أخذونا على دار خالى مصطفى وحطونا هناك. لقيت مرة أحمد أسعد جابر: يامرة عمى وريني دار أبوى. قالت: شو تشوفى قتلوهم ٢٧ نسمة كوم.

شفنا فى الطريق أبو جبر وابنه خليل رشيده فى طريق دار أبوى مكوّمين الثلاثة هلى وجوههم... قلت يا بنت عمى خذينى دار أبوى، قالت وين تروحى إذا رحتى بتموتى، ٢٧ نسمة كوم. بنت صغيرة فى السرير قتلوها.

حطونا فى دار خالى مصطفى الساعة ثلاثة بعد الظهر. جابوا العلم الأبيض وبدو طخ وحرقوا البلد حرق. حطوا أعلام بيضا إنهم استحلّوا البلد. جابولنا تركات ديزل من البلد، من الكبار.

جميلة على (أم محمد):

إحنا لما طلعنا قعدنا ثلاث أيام فى نفس البلد أسرى عندهم، بعد الثلاثة أيام فتحوا الباب علينا وأطلعونا... وصلّونا عند الباص. لما وصلنا عند مفرق الباص فيه كوم من أهل البلد

الباص. لما وصلنا عند مفرق الباص فيه كوم من أهل البلد
مقتولين بيجوز ١٠٠ أو ١٠٤ أو ١٠٥ مكومين فوق بعضهم.

اليهودية أخذت سلفى وقتلته وحطته هناك عند الكوم.

وكان ٥٠٠ مسلح فى عين كارم وما طلعش على بلدنا واحد يساعدنا.

وطلعنا فى التركات وجابولنا برتقال وقالوا يا خنازير إحنا بنشفق عليكم ولو انتوا بتذبحونا ذبح. ركبونا التركات.

...أخذونا على محنا يهودا، كانوا يفتحوا الأباجور بيقولوا على المسلخ، ناس بيقولوا على الحريقة وناس بيقولوا على أبو جبة. إحنا عارفين مين أبو جبة؟! سلمونا للجنة القومية هناك، اللجنة القومية حطونا فيها. قعدنا شهر فى القدس.

أبو توفيق الياسينى:

أخذوا أربعة عشر شخصا إلى النساجر وأطلقوا عليهم الرصاص. رأيت ذلك بأم عينى.

ألقوا بهم فى البئر، بئر الجوزة. رفعوا علمهم على بيت محمود صلاح فى الأعالى الغربية للقرية ظنا منهم أنه بيت المختار. فتشوا البيوت بدقة أملا فى العثور على مال أو حلى ذهبية. نقلوا المؤن. لاحقوا الدجاج والماعز والأغنام السائبة فى أزقة القرية ونقلوها إلى الأحياء اليهودية فى القدس. لم

يتبقى سوى شــيء واحــد: دفــن الجثــث.

موشيه برزيلى (من نحى):

الأحد عصــرا: صبينــا ثلاثــة أوعيــة نفــط علــى ثلاثيــن جثــة فــى الشــارع الرئيســى فــى القريــة. بعــد نصــف ســاعة أدركنــا أن هــذ مســتحيل.

شمعون مونيتا (من الهاغاناه):

اعتقدنــا أن الجثــث ستشــتعل. ولكــن لا يمكــن إحــراق جثــث فــى الــهواء الطلــق. ولقــد بنــى النــازيون مــن أجــل ذلــك موقــدا خاصــا يشتعل بدرجة حــرارة عاليــة جــدا.

يهوشع أريانيلى قائد لواء الجدناع:

الثلاثاء صباحــا: دفنّــا حوالــى ٧٠ جثــة فــى قــبر جمــاعى. نســفنا مجموعتين من البيوت فــى كــل منــها حوالــى ٢٠ جثــة.

أحضــروا لــهم قفــازات. معـــاطف واقيــة. كمامـــات لتغطيــة الوجــه.

دفنوا أربعيـــن رجــلا وامــرأة وطفــلا وطفلــة مــن حمولــة عقــل: عائلات رضـــوان وعطيــة وزهــران.

دفنوا واحدا وثلاثين رجـــلا وامــرأة وطفــلا وطفلــة مــن

حمولــة شــحادة: مــن عــائلات ســمور وزيــدان وحمــدان وعبــد الله.

دفنـــوا أحــد عشــر رجــلا وامــرأة وطفــلا وطفلــة مــن حمولــــة جــابر.

دفنوا تسعة رجال ونســـاء وأطفــال مــن حمولــة حميــدة.

ثمانية مـــن دار عيــد.

ستة مـــن دار حســين.

دفنوا عبد الغران وابنـــه وكانــا مــن الخليــل.

دفنـــوا المعلمـــة حيــاة البلبيســى التــى وصلــت إلــى طريــق عيــن كــارم ثــم وقفــت وقــالت: والله أنــا مســتحى مــن حـــالى واجبــى بيحتــم علــى انــى أرجــع وأســعف الجرحى علــى الأقـــل. ورجعــت وما كملتــش الطريــق.

الدليل؟ لا دليل سوى الحدس. ولكن هل يأتي الرد سريعا وفوريا إلى هذا الحد؟ ومن الذي قرر: مسئولون في جهاز ما يعملون من مكاتبهم على بعد آلاف الأميال أم شخص جن جنونه فاتخذ هذا القرار بشكل منفرد ونفذه أو أوكل إلى غيره مهمة تنفيذه؟

تقطع خيط أفكارها. تمشي في الاتجاه المعاكس. حادثة، مجرد حادثة من آلاف الحوادث العابرة، يتعرض لها إنسان ما في مكان ما، تصيبه مصادفة وقد تصيب غيره. كيف تفسر النظرة إذن؟ رجل عادي تماما تضيع ملامحه في زحام المحطة والسلالم الكهربائية وأرصفة القطارات. هل تتبعها حين ركبت القطار؟

جلست على طرف المقعد تعد نفسها للقيام في أية لحظة، تنقل عينيها بين الخريطة المرسومة فوق الباب إلى يسارها والنافذة إلى يمينها. يتوقف القطار، تقرأ إسم المحطة على اللافتة. يمشي القطار. تنتظر المحطة التالية. هل كان ينظر

إليها من حين لآخر؟ ربما. التقت عيونهما فجأة. ارتبك. لاحظت واستغربت. لم تطل التفكير في الأمر. واصلت تتبع المحطات. محطة أخيرة ثم تحرك القطار. قامت وانتظرت بالقرب من الباب. توقف. نزلت.

بدا اشتراكها في الندوة أمرا غريبا. قال لها زميل من زملائها:

– كأنك تضعين رأسك في عش الدبابير. ندوة عن مارتن بوبر بمناسبة مرور ربع قرن على رحيله، سيكون الحضور صهاينة يدعون أنهم يساريون وتقدميون. باختصار حرقة دم بلا داعي. ما الداعي؟!"

– لن يكلفني الأمر سوى ركوب القطار ساعة للذهاب إلى كامبريدج مساء الجمعة وساعة للعودة منها، مساء الأحد.

– وجهد البحث؟

– لدى ما أقوله في الموضوع. أرسلت لهم العنوان وملخصا من مائتي كلمة وأرسلوا لي بالموافقة على المشاركة.

– ربنا يستر!

ما الذي يخشاه؟ ندوة علمية. أوراق ومناقشات ثم يذهب كل إلى حال سبيله.

الجمعة مساء: العشب الأخضر. مائدة مستطيلة. غطاء أبيض. الكئوس والمشروبات. أكاديميون. مجموعات صغيرة تتجدد بهدوء حتى تتبدل. هذا يتحدث مع ذاك فيلحق بهم ثالث.

دقائق. يلتفت الأول لشخص ما، يذهب إليه، يسيران معا في اتجاه مجموعة أخرى. ينسلت واحد منها، يتجه إلى مائدة المشروبات، في الطريق يتوقف ليتبادل الحديث مع زميل له تعرّف عليه سابقا أو آخر يتعرف عليه الآن. "من مصر؟! حلمت دائما بزيارة مصر".

السبت: ثلاث جلسات. ثلاثة محاور. أوراق عن بوبر في ألمانيا: تكوينه الثقافي. دوره في مواجهة النازية. فكره الاشتراكي.

الأحد: ثلاثة محاور: بوبر: الدين والسياسة. البعد الأخلاقي لصهيونية بوبر. بوبر وعرب فلسطين.

قرأت شجر ورقتها. جاءت التعقيبات على ما توقعت: فشلت في فهم المشكلة اليهودية. فشلت في فهم بوبر المفكرالصهيوني العظيم الذي ناضل من أجل إعطاء حقوق متساوية للعرب في إسرائيل. اتهامات بمعاداة السامية، بافتقاد الموضوعية، بالرؤية القومية المتعصبة. "بروفيسورة عبد الغفار، كتبت كتابا عن دير ياسين، هل تعلمين أن بوبر أدان المذبحة؟! لقد أدان المذبحة!" "أعرف ياسيدي. كان كريما معنا في ذلك!" تدخل رئيس الجلسة: "أرجو عدم المقاطعة. سنمنحك فرصة للتعقيب يا بروفسورة عبد الغفار!"

أعطاها رئيس الجلسة الكلمة. قال خمس دقائق فقط. "شكرا، لا أحتاج سوى دقيقة واحدة: تتوفر في خطاب بوبر كل

عناصر الخطاب الكولونيالي: المهمة المقدسة لشعب مختار ينشر ضوء الحضارة في صحراء البداوة، يتكرم على أهلها بالسماح لهم بأخذ وجودهم في الاعتبار. وعلى أي حال يسعدني ويشرفني أن أرتبط بغاندي حتى لو كان في رؤيتنا الفاشلة للقضية الفلسطينية. شكرا"

ما الذي دعاها للاشتراك في الندوة؟ ليس الغل مبررا مقبولا لعمل أكاديمي. نشر الورقة في وقائع الندوة؟ كان نشرها متاحا في دورية متخصصة دون أن تكلف نفسها عناء الحضور. لم تجد إجابة مقنعة. أغلقت التلفزيون. أعدت كوبا من القهوة. جلست إلى مكتبها. ترجمت رسالة غاندي. في اليوم التالي واصلت العمل: ترجمت رد بوبر. بعد أسبوع انتهت من ترجمة النصين وإعادة صياغة بحثها باللغة العربية. وضعت المخطوطة في مظروف وأرسلتها إلى يوسف في القاهرة وفوّضته في نشرها في كتيّب. لم تجد إجابة على سؤالها إلا وهي عائدة من مكتب البريد. غريب، تمتمت شجر، يبدو المرأ تلقائيا وهو يفعل هذا الأمر أو ذاك ثم يكتشف أن ما يفعله محكوم بمنطق متماسك وإن لم يعه. مشروع الكتابة عن بوبر وغاندي، المشروع المؤجل منذ سنوات، فرض نفسه فجأة. بسبب الندوة؟ لم تكن الندوة سوى تكئة. كانت ترد ضمنيا- وبشكل مباشر أيضا- على النغمة الصاعدة حول ثقافة للسلام ودولة ثنائية القومية كحل للمشكلة الفلسطينية. لا جديد. أفكار

طرحها بوبر قبل ستين عاما. لم تنطل على الهندي النحيل ذي الصدر العاري والرأس الحليق. نظارته الطبية جيدة الصنع. مكّنته أن يرى من هناك، من الهند البعيدة، ما لا يستطيع رؤيته بعض المثقفين العرب الواقفين على بعد أمتار من خط النار.

في نوفمبر ١٩٣٨ كتب غاندي:

"فلسطين للعرب كما أن انجلترا للإنجليز وفرنسا للفرنسيين... إن التضييق على العرب المعروفين بالكبرياء لإعطاء فلسطين لليهود جزئيا أوكليا لتكون وطنا قوميا لهم جريمة ضد الإنسانية.

إن السبيل الأكثر نبلا هو الإصرار على معاملة اليهود معاملة عادلة حيثما ولدوا وتربوا. إن يهود فرنسا فرنسيون كما أن مسيحييها فرنسيون. وإن لم يكن لليهود وطن فهل يقبلون أن يُرغموا على ترك بلدان العالم الأخرى التي استقروا فيها؟ أم أنهم يريدون وطنا مزدوجا، فيقررون العيش هنا أو هناك حسب هواهم؟".

قفزت إلى بيرم:

السلام ليك والسلامة — من هنا ليوم القيامة
ياللي أظهرت الكرامة — بعد عهد المرسلين
ياللي من لعبك بمغزل — تطلع البورصات وتنزل
فوق دماغ لندن، وتغزل — لانكشاير الغزاليين!
فيلسوف ما يخبش قولك — كل فلسفتك في نولك

والتلاميذ اللى حُولك بالمكاكيك شغالين
لنجليز عايشين فى لذة عندهم أسطول وعزة
وانت تضربهم بمعزة سودا بنت اربع سنين

سيدة إنجليزية عابرة تحدق فيها باستغراب. انتبهت شجر أنها كانت تلقى القصيدة بالصوت المسموع، هل كانت ترفع صوتها وتحرك يديها؟ ضحكت. اتجهت إلى مطعم أليف. أكلت. غادرت المطعم. السماء رائقة وكذلك مزاجها. تغنى أغنية قديمة لعبد الوهاب. تذكرت ست جُلسُن واحتجاجها المستمر كلما سمعتها تغنى. الله يرحمها. كانت على حق. أنشز واغنى بصوت عال. لم تردعها الفكرة. واصلت الغناء.

قطعت الطريق من المطعم إلى بيتها فى ساعة. الوقت متأخر والمارة قليلون. لم يحدث شيء.

بعد أيام، زيارة ومبلدون. لا تعرف المكان. القطار. الرجل. تحاول تذكر ملامحه، لاتذكر سوى ارتباكه لحظة التقت عيونهما. لا، ليس ارتباك رجل تلتقى عيناه فجأة بعينى امرأة يتطلع خلسة إليها. ارتباك آخر، لم تفهمه. غادرت القطار ثم المحطة. اتجهت يمينا فى الشارع العمومى كما أوصاها أصدقاؤها. مرّت بمفرق، مفرقين، عند المفرق الثالث وجدت لافتة صغيرة تحمل إسم الشارع. على وشك الوصول. انعطفت يمينا إلى الشارع. خطوات معدودة. بدا لها أن حجرا وقع عليها. سقطت على الأرض. هل يسقط عليها مزيد من الأحجار

لم أن أحدا يضربها. لماذا؟

لم تلتق شجر بناجى العلى. لم تكن تعرف وهى فى طريقها إلى أصدقائها فى ومبلدون أن بيت ناجى، الآن بيت وداد، أرملته، وأبنائه الأربعة خالد وليال وجودى وأسامة، فى نفس الشارع على بعد خطوات من المكان الذى تقصده. ولو كانت وداد فى تلك اللحظة فى طريقها إلى محطة القطارات أو البقالة فى الشارع العمومى لسمعت صرخة شجر. لو كان أسامة فى طريق عودته من المدرسة لرآها ممدة على الأسفلت وسيارة الإسعاف تقترب ولركض إلى أمه ودخل عليها لاهثا: "يامّه فيه واحدة فى أول الشارع ضربوها، حدا ضربها وشفتها يامّه مكوّمة على الأرض، والاسعاف وصل وحملوها على المستشفى". ستمتم وداد: "يا ولَدى!" لن يلحظ أسامه صوت أمه- غريب كأنه يأتى من بئر عميقة مظلمة. لن يرى وجهها الممتقع. يهرول صاعدا إلى الطابق الثانى. يتوقف فجأة ضائعا كأنه لا يعرف إن كانت حجرته جهة اليمين أو اليسار، إن كان يريد أن يدخل الحمام أو يدخل حجرته. يهبط الدرج ركضا، إلى أمه فى المطبخ :

- يامّه وين خالد؟
- فى الجامعة.

يدخل الصالون. يجلس. يقوم. يعود إلى أمه:

- هو خالد بده يتأخر؟

- تـاكل؟

- مش جوعـــان.

كل ذلـك لـم يحـدث ولكنـي الآن وأنـا أكتـب عـن شـجر أتخيلـه يحـدث لأننـي أعـرف وداد وأسـامة. أعـرف المطبـخ والـدرج وغرفـة أسـامة وغرفـة الصـالون ولوحـات نـاجي المعلقـة علـى جدرانـه. أعـرف بيتـهم والشـارع ومحطـة قطـارات ومبلـدون. لكن لماذا جعلت هذا المنطقـة مسـرحا للاعتـداء علـى شـجر؟

شـجر الآن ممـددة علـى الأرض. لا تسـمع الصفـير المتقطـع لسـيارة الإسـعاف. تقـترب. تتوقـف. يـنزل منـها شـخصان. أحدهمـا يفحصها. الآخـر يعـود إلـى مؤخـرة السـيارة ويـأتي بنقالـة يحملانـها عليـها. الرجرجـة. الصفـير المتقطـع. الضـوء يظـهر ويختفـي. سـخونة حارقـة فـي سـاقها اليمنـى. هـل أوقعـت إبريـق الشـاى المغلي على ساقها؟ هـل كـانت تصنـع لنفسـها الشـاى؟ متـى؟ أيـن؟ ألم في الـرأس. تحـاول أن تتذكـر. تغيـب.

فـي الطـائرة العـائدة بـها إلـى القـاهرة بعـد تسـعة شـهور مـن الإقامـة فـي انجلـترا قـالت شـجر لنفسـها: حسـاب المكسـب والخسـارة: مسـودة كتـاب عـن ١٩٥٦ اعتمـادا علـى الوثـائق البريطانيـة، بحـث "غـاندى ضـد بوبـر"، أصدقـاء جـدد، سـاق معطوبة وعكاز. لـم يكـن الحسـاب دقيقـا. عـادت لتجـد كريـم غـير كريم. هذا أيضا يدخـل فـي حسـاب الخسـارة.

الفصل السابع عشر

حيـن صـدرت روايـة غرناطـة ربـط أكـثر مـن نـاقد بينـها وبيـن فلسطين واعتـبر البعـض انني اتخـذت مـن سـقوط الأندلـس معـادلا لضياع فلسـطين. فاجـأني ذلـك الربـط الـذى لـم يـدر بذهنـى طـوال فترة كتـابتي للنـص. وأجبـت علـى سـؤال طرحـه علـى أحـد الصحفييـن: حيـن أسـتطيع الكتابـة عـن فلسـطين سـأكتب عنـها، ولا أظن أنني بحاجـة للرجـوع خمسـمائة عـام إلـى الـوراء لكتابتـها مـا دامت حية وحاضرة إلـى هـذا الحـد فـى داخلـى، وجـزءا أيضـا مـن حياتي اليومية. ثـم أننـى لـم أسـلم بضيـاع فلسـطين ولا أملـك نفسـيا أن أتحـدث عنـها عـبر غرناطـة. وفاجـأت الصحفـى بـأن غرناطـة كانت معادلا لخوفي أثنـاء حـرب الخليـج. وكنـت صادقـة.

ولكنني وأنـا أبحـث فـى ديـر ياسـين للكتابـة عـن شـجر وكتابـها "الأطياف" انتبهت أننـي أقـوم بنفـس مـا قمـت بـه وأنـا أكتـب عـن غرناطـة. فـي الحـالتين كـانت خريطـة المكـان ضروريـة للغايـة. مكنتنـي خريطـة قديمـة لمدينـة غرناطـة مـن معرفـة تفـاصيل المكان: موقـع نـهر حـدرو، موقـع نـهر شـانيل، تلـة البيـازين والتلـة

المقابلة حيث قصور الحمراء، سوق القيصرية، ميدان باب الرملة ...إلخ. ساعدتنى دراسة هذه الخريطة، وخرائط أخرى لاحقا، على تخيل الحيز الذى تشغله وتتحرك فيه شخصيات الرواية. زرت غرناطة مرتين بعد ذلك، مرة فى آخر صيف ١٩٩٣ بعد أن انتهيت من الجزء الأول من الثلاثية ومرة ثانية فى مطلع صيف عام ١٩٩٤ بعد شهرين من صدور الجزء الأول ولم أكن أنجزت سوى بضعة فصول من "مريمة" وهى الجزء الثانى من الرواية.

لم أزر دير ياسين، ولم يتح لى أبدا زيارة فلسطين ولكننى رجعت إلى خريطتى وليد الخالدى (نشرهما فى جريدة "الحياة" مع مقالاته السبع: "خمسون عاما على ملحمة دير ياسين: قرية أمام منظمات صهيون"). توضح الخريطة الأولى موقع القرية والمستوطنات اليهودية السبع المحيطة بها. وتشير بأسهم سوداء غليظة للأماكن الأربع الذى انطلق منها الهجوم على القرية. أما الخريطة الثانية فتعيد بناء مواقع بيوت القرية وتميزها بأرقام ترد فى الدراسة بحيث يمكن للقارئ أن يعود للخريطة فيعرف بيوت هذه العائلة أو تلك ومواقع المقاومين وتحركاتهم. وبقراءة متكررة للشهادات التى أوردها الخالدى و الشهادات الأخرى التى حصلت عليها أضفت إلى الخريطة المرسومة بحبر المطابع الأسود أسهما بالأحمر وملحوظات بالأزرق يسرت لى تتبع، على سبيل المثال، حركة عزيزة

اسماعيل عطية من بيتها فى أعالى غرب القرية إلى الفرن: سهم أحمر، وبالأزرق ملحوظة: "عزيزة فى الثانية فجرا". أو حركة حسين عطية فى موقع الحراسة الأول (قبل طلوع الفجر) ثم متمترسا مع زملائه فوق سطح منزل أحمد أسعد رضوان، ثم انتقاله مع رفاقه، بعد نفاذ الذخيرة، إلى بيت محمود رضوان (بيت عزيزة) والبيت المجاور له، بيت أخيه حسن رضوان حيث واصلوا المقاومة.

كنت أقوم بذلك دون أن أعرف تحديدا حاجتى المباشرة أو كيفية توظيف هذه المعرفة فى كتابتى عن شجر وفى كتابة شجر عن دير ياسين. ولكنى انتبهت أننى أفعل أمرا مطابقا لما سبق أن قمت به وأنا أعد لكتابة غرناطة (رغم أن شخصيات غرناطة من محض خيالى وشخصيات دير ياسين حقيقيون وبعضهم - أدلى بشهادته- فهو ما زال حى يرزق). تذكرت ما كتبه البعض بعد صدور "غرناطة" وسؤال الصحفى ونفيى. ارتبكت وقد بدت لى الأمور أكثر تشابكا وتساءلت فجأة إن كان بمقدور أى منا أن يتتبع الخيوط المكونة لنسيج عمره: خذ مثلا تلك المرأة وهى تنتحب فى المطار فى ذلك اليوم من أوائل شهر فبراير ١٩٩١:

قبل أسبوعين من ذلك التاريخ وتحديدا فى الثانية من فجر يوم ١٧ يناير دق جرس التليفون فى شقتها فى بودابست. شقيق زوجها يتحدث من فرنسا. يقول: "بدأ ضرب العراق، إنهم

يقصفون بغداد!" توقظ زوجها. يشاهدان معا ما شاهدته البشرية المالكة لأجهزة التليفزيون. تغطية السى. إن. إن. خطاب جورج بوش. تعليقات المذيعين: الأشقر بيتر أرنيت، والأسمر برنى شو. يسمعان تشبيه بغداد تحت القذائف المتساقطة عليها بشجرة هائلة من أشجار عيد الميلاد. قال المذيع، أيهما،لا تذكر، إن المشهد ساحر وأخاذ!!

لن تتمكن المرأة من العودة إلى القاهرة مباشرة لأن معظم شركات الطيران ألغت رحلاتها إلى منطقة الشرق الأوسط- هكذا يسموننا. حملتها الطائرة مع ابنها شمالا إلى سويسرا ثم بعد عشر ساعات من الانتظار فى مطار زيورخ جنوبا إلى مصر. المرأة لا تبكى فى المطارات. يثقل الفراق. تبتلعه. يستقر فى معدتها كرة من الحديد يحجبها جدار المعدة وملابسها. تبتسم، تلوح. تقول: مع السلامة.

يقف زوجها على جانب من السور وتقف مع ابنها على الجانب الآخر. نادوا على ركاب الطائرة. مد زوجها يده للسلام فتشبثت بيده وبدأت تبكى. انفلت البكاء وصار نشيجا. ألح زوجها فى أن تخرج: "تؤجل السفر". هزت رأسها. مسحت دموعها. مضت برفقة ابنها إلى الطائرة.

المرأة فى الرابعة والأربعين، تبدو أصغر بسبب وجهها وصغر حجمها رغم الشيب الواضح فى شعرها. عادة تبدو متماسكة قوية، لعل السبب وظيفتها فهى معلمة تقف فى المدرج

الكبير لتدرس مئات الطلاب والطالبات دفعة واحدة أو تشرف على طالب يدرس للدكتوراه وتقف بعد المناقشة لتعلن على الحاضرين حصوله على الدرجة، وقد يكون الطالب على مشارف الأربعين أتى معه بزوجته وربما بأطفاله. كبرتها الوظيفة أو قيدتها أو علمتها. دربتها على التنكر للهشاشة وإن كانت فطرتها ونصيبها الموروث. المرأة خائفة. لا تعى أنها، وهى تودع زوجها، تعرف بالحدس ومنطق الأشياء أنهما حين يلتقيان مرة أخرى سوف تكون هذه الحرب المشتعلة الآن انتهت لحساب أمريكا وترتبت مقدرات المنطقة لعشرات السنين القادمة فى غير صالحها.

هل أبسط؟ كما أسلفت، من يملك فصل الخيوط المتشابكة، لن يملك فصل الخوف من الهزيمة القادمة من وعى الهزائم السابقة؟ المرأة تبكى، يعلو بكاؤها، يصير نشيجا. تبتلع نشيجها. تمسك بيد ابنها. يسيران معا فى الممر المؤدى إلى الطائرة. يجلسان. يربط كل حزامه. يفك كل حزامه . يقومان. يغادران الطائرة. ينتظران فى مطار زيوريخ. يتناولان الغداء. يشتريان شيكولاتة!

فى القاهرة تذهب المرأة إلى الجامعة. تعود من الجامعة. تفتح التلفزيون والمذياع فى نفس الوقت. تتنقل بين المحطات بحثا عن الأخبار. تسمع الجديد منها، وما سمعته من قبل تسمعه ثانية.

كانت تجلس أمام التلفزيون، هل كان يعرض خبرا مصورا عن قصف بغداد أما كانت الصور للأسرى العراقيين أم كانت مقابلات مع الجنود الأمريكيين؟ ربما كانت لقطات من طريق الكويت البصرة، السيارات المدمرة والجثث. لم تنتبه أن هذه المشاهد تفتح أبوابا في الذاكرة تندفع منها صور تتحل إلى أصولها: الطائرات تقصف: الجنود المصريين في سيناء، مطار بيروت، المخيمات الفلسطينية، بيروت المحاصرة، صيدا وصور والنبطية وإقليم التفاح. تطفو صورة امرأة عارية تمشي ذاهلة في صباح غائم بارد، تخوض قدماها الحافيتان في وحل الطريق. هل هو الموت الوشيك؟ موتها؟

لم تنتبه أنها مقبلة على كتابة نص جديد. واصلت العام الدراسي وأسهمت الضغوط اليومية لعملها كرئيسة للقسم عليها القيام بكم من المسئوليات الإدارية لا تحبها ولا تتقنها في محاصرة اضطرابها وحشره داخلها وإحكام تربيطه حتى بدا أنها على ما يرام. في الصيف اشتد المرض بأبيها ثم مات. في بداية الخريف، عندما بدأت المفاوضات في مدريد بين العرب والإسرائيليين، كانت الأربطة تحللت تماما: لم تتمكن من متابعة الجلسة الأولى التي نقلها التلفزيون. لم تتصور أن تطلع العينين ومتابعة مشهد ما يكلف جهدا إلا في ذلك اليوم عندما شعرت، بعد خمس دقائق من الجلوس أمام التليفزيون، بأن لاطاقة لها على بذل الجهد المطلوب لذلك. كانت مصابة

بالتهاب شديد في الكبد. رعتها أمها طوال ثلاثة أشهر لزمت فيها الفراش.

كتابة "غرناطة" ثم "مريمة والرحيل" في الأعوام الثلاثة التالية أعادت للمرأة توازنها، ربما لأن الكتابة استنقذت إرادة منفية ومعطلة أمام عواصف الصحراء التي اجتاحتها بآلاتها العسكرية والإعلامية. ستكتب عن بشر مثلها يعيشون قبضة تاريخ قاتل لا فكاك لهم منه . ستكتب النهايات. ولكن الخوض في التاريخ (التعرف عليه ثم معرفته) وفعل الكتابة (أن تبدأ هنا وتنتهي هناك، أن تبدع شخوصا وأزمنة ومسارات، تسرع أو تبطئ، تنشئ أسلوبا ثم تستبدل به آخر) أعادا لها سيادتها على مقدرات حياتها، وإن كان في كون من بدع الخيال.

كتبت عن غرناطة وبالينسية والبشرات. لم تكتب عن قرطبة. قرطبة لا تدخل حيز الرواية. زارتها. المدن العربية متشابهة إلى حد التطابق أحيانا: المسجد الجامع مستقر في رحب ساحته والأزقة والأسواق من حولها: الأزهر في القاهرة، المسجد الأموي في دمشق، جامع الزيتونة في تونس، جامع الفنا في مراكش ومسجد قرطبة. سارت في أزقة المدينة القديمة، يفضي الزقاق إلى زقاق. فجأة رحب من الفضاء، حجارة عتيقة. جدار عال، أسراب حمام: المسجد الأعظم. دخلته مع الداخلين من باب النخيل إلى الصحن المكشوف، صحن البرتقال. وقفت مهذبة هادئة في الصف. جاء دورها. اشترت

تذكرة الدخول. السائحون من حولها تتدلى على أكتافهم آلات التصوير. دخلت من باب جانبي صغير إلى الصحن المسقوف. انتبهت للرائحة. تطلعت: غابة من الأعمدة، أقواس على أقواس، ضوء خافت والرائحة. تنتبه: البوابات ذات الأقواس المفتوحة قديما سدت بالحجارة فتحولت إلى جدار فاصل بين الصحن الداخلي للمسجد والصحن الخارجي -الفناء المزروع بأشجار البرتقال. للمكان معمار المساجد ورائحة الكنائس وظلالها. تعود إلى الأعمدة ولونها المراوغ، وردي؟ ليس تماما. لون يراوغ الأسماء. قضبان حديدية بامتداد الجدران. تقترب: كنوز الكاتدرائية المشيدة داخل المسجد محفوظة وراء حديد القضبان. اتجهت المرأة إلى أقرب مقعد. جلست. بكت.

تركت المسجد لتقدم موعد السفر إلى مدريد. وفي مدريد انتظرت موعد إقلاع الطائرة متقلة بوطأة الساعات. تريد العودة إلى القاهرة. إلى مصر. أية مفارقة! لكن الإنسان يراوغ ليواصل: مئات التفاصيل اليومية في البيت، في الوظيفة، بين الأصحاب والأهل تغيم الصورة قليلا، تغبشها، تصرف العين، تتوهها عن حقيقتها العارية، حقيقتها القاتلة التي طالعتها ذلك اليوم هناك في قرطبة. عادت للكتابة، ولكن ليس عن قرطبة. من يملك الكتابة عن قرطبة؟!

أتوقف.

هذه كتابة ناقصة، أقول، كان إميل حبيبي بارعا يعرف كيف

يضحك قارئه ويضحك هو نفسه حتى وهو ينقل أكثر التجارب وطأة. خذ مثلا ذلك المقطع الفذ من روايته "الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل" حيث ينقل تجربة استلاب عرب ١٩٤٨ واضطرارهم إلى تمويه هويتهم إبقاء على وجودهم في أرضهم بعد قيام دولة إسرائيل. تحت عنوان "كيف تحول سعيد إلى هرة تموء" يكتب إميل أن سعيد كلما أراد أن يفصح عن سره ما خرج من تحت شاربه سوى قطة تموء. "تصور روحك، بعد موتك، حلت في هرة. فبعثت هذه الهرة لتسيب في فناء بيتك. فخرج ابنك حبيبك، يتلهى بما يتلهى به الصبيان من اللعب. فناديته فموؤت. فزجرك فناديته طويلا، فموؤت طويلا. فرماك بحجر. فذهبت في حال سبيلك وحالك كحال الفتى العربي في شعب بوان: "غريب الوجه واليد واللسان".

"هكذا حالي من عشرين عاما أهر وأموء حتى أصبح هذا الحلول يقينا في خاطري. فإذا رأيت هرة توسوست: لعلها والدتي، رحمها الله! فأهش لها وأبش وكنا نتماوأ أحيانا".

يضفر إميل حبيبي المضحكات بالمبكيات، يغلف المأساة بالهزل، تلتقط عينه عناصر المفارقة مهما كان الموقف مفجعا. لست كاتبة ساخرة مثله، ما العمل؟! لكن الدقة شرط من شروط الكتابة واختزال الحياة إلى مأساة خالصة منزلق إلى الكذب. مثلا، لماذا لم أقتبس الجزء الأول من شهادة نعمة زهران؟ فيها

استعلاء طريف على ذلك الرجل الذي جاء يختبئ في دارها، كان خائفا ولم تكن. غيظها من الرجل يتصدر أحيانا حتى على رواية المذبحة. بعد ربع ساعة من بداية الضرب، تحكي نعمة زهران" شفت ها الزلمة بدلهب على (رأت رجلا يدخل متسحبا إلى بيتها) عبر وقال راحت البلد ... سكر الباب وعبر. أجوا اليهود وطقوا علينا ضرب... قال هلقيت بيعبروا علينا وبيذبحونا. أنا الأمانة ما خفت بس هو شعر إديه قشعر". وعندما دخل اليهودي سأل: "شو بيقربلك، قال زوجك؟ قلت لأ. من عيلتك؟ قلت لأ. قال زوجي. قلت يا خواجا لا هو زوجي ولا من قرابتي... ولا من الفاميليا!"

لم تكن نعمة زهران تضحك وهي تحكي ولكن سلوى تضحك وتضحك السامعين وهي تحكي عن رحلتها إلى أراضي ال ٤٨ بعد احتلال ٦٧ وفتح الأراضي المحتلة على بعضها. اتفقت نساء القرية مع سائق يحملهن في أتوبيسه ويأخذهن في جولة في فلسطين التي صار اسمها إسرائيل والتي حرم عليهن زيارتها من ذلك التاريخ. ركبن وتحرك الأتوبيس غربا. إم فخري إم عطا جلستا متجاورتين. تتعازمان بين حين وآخر على النشوق. تخرج عزيزة العلبة من جيب ثوبها الفلاحي وتقدمه إلى أختها، وتكون أختها أيضا مدت يدها وأخرجت علبتها. "والله زعوطي أحسن يا عزيزة ياختي!" "بس جربي ها الزعوطات يا ظريفة ياختي، ما فيه أحسن منهن!" تمد كل

منهما إبهامها وسبابتها في العلبة وتحمل قدرا من المسحوق وتدفسه في أنفها. تعطس عزيزة وتعطس ظريفة. تقوم وصال فجأة كأنما نبهتها العطسة، تلتفت خلفها لترى أولادها الثلاثة المستقرين في آخر مقعد في الأتوبيس، لا تكتفي برؤيتهم، تنادي عليهم: مصطفى، سمير، نبيل، أنتوا هان يامّه؟" لا تنتظر جوابا على سؤالها. تجلس وتنظر أمامها وتقول للسائق" سوق يا خويا سوق!". ولم يكن السائق توقف عن السير ولا انتقل الباب الوحيد للباص (عن يمينها مباشرة) إلى حيث يجلس الأولاد. من يدري هذا زمن اليهود، وكل شيء ممكن!

يضل السائق طريقه في الجبال، يجد نفسه بالقرب من مستوطنة. لا يملك الاقتراب. يتوقف للاستعلام. القط، وليس أولاد وصال، يختفي من السيارة . يعود السائق، يستعد للتحرك. كيف تتحرك بدون أبو عمّار؟ الكل يبحث عنه، تحت المقاعد، تحت الأتوبيس، أمامه وخلفه. تمشي صاحبة القط وتنادي بأعلى الصوت: "يا بو عمّار... يا بو عمّار". يزداد السائق توترا ويلح: "خلّي الرحلة تمر بسلام، هلقيت يطلعولنا مستوطنين ويطخّونا" وأخيرا يظهر القط كما اختفى ويستقر الجميع في أماكنهم وتعود إم عطا وإم فخري تتعازمان على النشوق ووصال إلى هبّاتها المفاجئة والجملة اللازمة للرحلة: "مصطفى، نبيل، سمير، انتوا هان يامه؟" تراهم بأم عينها فتلتفت إلى السائق وتقول: سوق يا خويا سوق!

لم تكن زيارة بحيرة طبريا فى البرنامج ولكن النساء الأكبر سنا حكمن رأيهن. قلن إن المشوار لا يتم إلا بالسباحة فى "بحر طبريا". تقهقه سلوى وهى تحكى عن كلسون الختيارة الذى قرر أن يواصل السباحة منفردا "كلسون يملى العين، طويل وله دكة" حاولت صاحبته اللحاق به وعندما فشلت اكتفت بمتابعة حركته الطافية على سطح الماء. لعله كان يسبح فى طريقه إلى الشلم!

لم تحك سلوى لأن زمن الحكى لم يدخل حيز السبعينيات فما بالك بالثمانينيات، أواخرها. الفتية فى الشوارع يواجهون جيش الاحتلال بالحجارة والمقاليع والإطارات القديمة. ووصال تركض بين البيت والسجن ومقر الحاكم العسكرى. اليوم لأن واحدا من أولادها فى السجن تذهب لزيارته، وغدا لأن الثانى اعتقل، وفى يوم ثالث لأن ولدا من رماة الحجارة دخل عندها فأعطته قميصا غير الذى شاهده فيه الجنود. "هو اللى رمى علينا حجارة، كان لابس قميص أحمر". "يا خواجه ربنا عرفوه بالعقل ولد لابس أحمر رمى عليكم حجر. وولد لابس قميص أبيض جاى يزور صاحبه تتهموه بأمارة ايش؟!" ومرة رابعة لأنهم داهموا شقتها فتخلصت من أوراق أولادها برميها من النافذة: "وقع الورق على راس العسكرى يم، وانا ايش درانى انهم واقفين تحت الشباك؟!" هذه المرة لم تركض وصال إلى السجن لزيارة ولد من أولادها. ولكنها وهى فى طريقها إلى

السجن لم تعدم وسيلة تكايد بها الجندى الاسرائيلى: "باقول يا خواجه لو تقول للسجان يجيبلى كام من بسكوته. الصبح وانا بشرب الشاى بالحليب باحب أتشتشهن!" تستعيد سحنته وتضحك.

لطيفة أيضا وثريا كن يضحكن وهن يستعدن حكايات السجن. هل يضحك الإنسان بعد أن تمر وطأة اللحظة، أم يضحك وهو فيها لأن الضحك سلاح غريب، سحرى، لا يريق دماء ولكنه يحمى وأيضا يقلب معادلة الغالب والمغلوب؟

أردت دائما أن أكتب حكاية ثريا حبشى، ثريا شاكر التى اعتدنا الإشارة إليها باسم ثريا حبشى نسبة إلى زوجها فوزى حبشى. استمعت إليها ذات ليلة هناك فى المجر. جاءت مع زوجها للعلاج. جلست معها فى غرفتها بالفندق واستمعت للحكاية تفصيلا. بعد سنوات سجلت ثريا جزءا من الحكاية كتابة. اعتقلت فجر ٢٨/٣/١٩٥٩. فى الثالثة صباحا دقوا بابها. قاموا بتفتيش البيت تفتيشا دقيقا استغرقهم ساعتين ثم:

– تفضلى معانا يا ست ثريا.

– هل هو اعتقال أم ماذا؟!

– لا هى كلها نصف ساعة وتعودين للمنزل...

"خرجت ولم أعد للمنزل إلا بعد أربع سنوات وأربعة أشهر بالتمام والكمال... تركت ثلاثة أطفال: الكبير ممدوح ٨ سنوات، وحسام ٦ سنوات، ونجوى سنة واحدة وكانت بترضع

لسه".

تحكى ثريا:

"كانت زميلتنا ايفون حبشى مسجونة وأولادى برضه اسمهم حبشي... أخبرت السجانة بذلك حتى تساعدنى ووافقت. فوجئت وقت الزيارة أن السجن قفل كله. وانا هربت وقتها لدورة المياه وقفلت على روحى علشان أقدر أشوف الأولاد لما ييجوا يدخلوا غرفة إيفون لأنها كانت بمستشفى السجن. .. بصيت لقيت الدنيا كلها كربست فى دقائق. ضباط من المباحث دخلوا واحتلوا الغرفة اللى فيها إيفون ومنتظرين الزيارة... الأولاد حضروا ولاعلى بالهم...وانا داخل دورة المياه أرتعش من الخوف على الأولاد. جاءنى الضابط فى الدوره وأخذ يخبط على الباب ويقول إطلعى من جوه يا ثريا، أنا عارف إنك جوه وبقولك تعالى شوفى أولادك ياستى فخرجت وانا فى حالة يرثى لها وانا أصرخ واقول ماحدش له دعوة بيهم واللى هايمسهم أنا هشرب من دمه وكلام كتير مش عارفه كان بيطلع منين.. ونزلت فيهم شتيمة وقلت يسخطوك يا قرد..ها يعملوك إيه، غزال؟!

... انقضيت على الأولاد واحتضنتهم بشدة. والذى ضايقنى جدا أن الأولاد كانوا متأثرين من رؤيتى فى هذه الحالة الشاذة وانا اصرخ واشتم واحتضن وأبوس كله فى آن واحد...

بعد مرور حوالى أسبوع فوجئت بحضور طاقم من الكابات الحمرا وعقدوا محكمة فى قلب السجن لمحاكمة ثريا.. ونودى

على وحضرت من العنبر لأفاجأ بعقد هذه المحاكمة. حاجة تخوف، بالفعل كانت السجانة نفسها وهى تحضرنى معها ترتعش وتقول انتى عملتى ايه؟ دى الدنيا مقلوبة عليك. ووقفت أمامهم وانا قلبى يكاد ينخلع من جنبى وتكاد دقاته تسمع من بعيد. وتمالكت أعصابى وطلبت كرسى أجلس عليه أولا. ثم بدأوا يوجهوا التهمة لى وهى باختصار إننى شفت أولادى. فبدون أن أدرى صرخت فى وجوههم ألا تستحوا من أنفسكم، كل هذا الهيلمان لماذا؟! لتحاكموا أما شافت أولادها، بدلا من أن تحاكمونى حاكموا القرارات الخطأ التى تضع أما فى السجن بدون أى ذنب. دون أن يسمح لها بزيارة أولادها للإطمئنان عليهم على الأقل. إن الأم الزانية والأم القاتلة وتاجرة المخدرات يسمح لها بالزيارة أما نحن فلا، وتأتون لتحاكمونى. وأنا هنا أقول أنى سأحاول وأحاول ولن أسكت وأنا أبلغكم بذلك من الآن. وما كنتش دريانه أنا باقول ايه ولا من فين كل الكلام ده جه على لسانى وكل ما واحد يكلمنى كلمة أرد عليها بعشرين حتى صرخ رئيسهم فى: "أسكتى".. قلت له ولماذا أسكت ماذا تريدون أن تفعلوا بى أكثر من السجن، أعتقد مافيش؟!"

تضحك ثريا وهى تستعيد الحكاية، لماذا؟ لأنها الآن وهى مستقرة بين أولادها وأحفادها تجاوزت كل ما حدث؟ هل يملك أى منا تجاوز ما حدث؟ تضحك لأنها امرأة ضحوكة؟ لأنها

ملكت آلة الضحك وعرفت بالفطرة والخبرة نفعها وقيمتها؟

تحكي ثريا عن يوم أكلت انتصار خطاب الورق ويوم السحل الشهير . كانت انتصار مسؤولة عن حفظ الورق، ورق حزبي، خطابات شخصية مهربة. كله مكتوب على ورق البفرة، ورق لف الدخان. انتصار وضعت الورق في علبة صفيح، علبة دواء. فجأة دخل المأمور ومعه ملاحظة السجن وبدأوا التفتيش. علبة الدواء، انتصار كانت خبأتها في صدرها. أثناء التفتيش وقعت العلبة. خطفتها انتصار وطارت. من باب العنبر إلى حوش السجن. تجري والسجانة وراها . انتصار فتحت العلبة واللي تقدر تبلعه تبلعه واللي ما تقدرش عليه تمضغه، المأمور يصيح والسجانة تصيح ظنا منهما أن انتصار تبتلع الدواء، تقصد الانتحار".

لم تنم من شدة الضحك.

ويوم السحل؟

"لم يكن مر على اعتقالنا سوى شهور. سمعنا ان عبد الناصر صرح لصحفي أجنبي أنه ليس في مصر معتقلين. أنا قلت فرجت. كان فوزي سنة ٤٨ في المعتقل وأعلن مصطفى النحاس أنه لا توجد معتقلات في مصر، وفي نفس اليوم تم الإفراج عن المعتقلين وخرج فوزي. قلت رأيي للزميلات وناقشنا الموضوع واتفقنا أننا بعد انتهاء طابور الصباح لا نتوجه إلى باب العنبر بل إلى إدارة السجن، إلى المأمور. دخلنا

على المأمور قالت ثريا أدهم- تبتسم ثريا- أصلنا كنا عيناها متحدث رسمي. قالت ثريا أدهم إن جمال عبد الناصر أعلن أنه لا يوجد في مصر معتقلين، وإننا لن نرجع إلى العنبر حتى يأتي مندوب من رئاسة الجمهورية للتفاهم معه فإما يفرج عنا أو تحققوا لنا مطالبنا- كنا نطالب بتحسين أوضاعنا في السجن والسماح بالزيارات وكانت ممنوعة تماما. طلب منا المأمور أن نهدأ ونعود إلى العنبر وقال أنه سيبلغ مطالبنا إلى المسئولين. رفضنا. إتصل المأمور بمسئول ما ثم فوجئنا بمجيئ جنود مسلحين رفعوا علينا السلاح لتهديدنا بالعودة إلى الزنزانة. لم يتحرك أحد منا. أغلقوا باب السجن وسمعنا البروجي. ووجدنا أنفسنا محاصرين بين الجنود المسلحين وجيش آخر من السجانات والقاتلات وبائعات المخدرات... اجتمع كل ثلاث أو أربع منهن على واحدة منا، يجذبنها من شعرها، يوقعنها على الأرض ويشبعنها ضربا وركلا، بأقدامهن، بالعصي وسيور الجلد والخيزرانات. وفي وسط هذا الهول- تضحك ثريا، تقهقه- بدأت أهتف: "تسقط سياسة المعتقلات. تسقط سياسة الكذب والنفاق. تسقط سياسة الظلم والإرهاب." أهتف ونحن نسحل على الأرض ويقذف بنا واحدة وراء الأخرى إلى داخل العنبر. وقبل أن تغلق السجانة علينا باب العنبر تماسكت ليلى شعيب- كانت ليلى حجمها صغير والسجانة طويلة وعريضة وزي الحيط-شدت ليلى طولها وشبت على طراطيف صوابعها

ورفعت إيدها و"طراخ" على وجه السجانة.. وبعدها لما جاءت بعثة تفتيش على السجن وكانت من بين أعضائها سيزا نبراوى وضعونا فى غرف وراء السجن . أغلقوا علينا الأبواب والنوافذ ومسمروها. وبحت أصواتنا ونحن نصيح. ولكن لم يسمعنا أحد."

لم تعتقل لطيفة الزيات فى حملة ١٩٥٩ إذ كانت تركت العمل السياسى المنظم قبل ذلك بعدة سنوات. أعتقلت عام ١٩٤٨ ثم اعتقلت مرة أخرى ضمن حملة السادات عام ١٩٨١. كان الزمان يتغير وكنا نتقدم: لم يدم الاعتقال أربع سنوات ونصف بل بضعة شهور، ولم تتعرض المسجونات لسحل وضرب أو نوبات تكدير وأيضا كان مسموحا لهن بتلقى مأكولات من الخارج وبعض المجلات والجرائد. ويقتضى الإنصاف القول إن الحكومة توخت العدل هذه المرة فلم تقتصر فى اعتقالاتها على الشيوعيين والإسلاميين وحدهم بل وزعت الاعتقالات بالقسطاس على كافة القوى السياسية، وعلى الأقباط والمسلمين، وعلى الرجال والنساء ومنحت الجميع خدمة إعلامية مجانية فى الإذاعة والتلفزيون وفى الصفحات الأولى من الجرائد القومية.

فى لقاءاتى الأولى بلطيفة الزيات استوقفتنى ضحكتها. كانت المرأة بضحكاتها المتلاحقة المفاجئة أحيانا والعالية دائما تدهشنى ثم عادت لا تدهشنى، ألفتها وأحببتها، أقصد لطيفة

وضحكاتها معا. كانت دائما تضحك، ولكنها وهى تحكى لى عن تجربتها فى السجن، بعد خروجها وعودتى من المجر، كانت تضحك أكثر. فى سيرتها الذاتية "حملة تفتيش: أوراق شخصية" انشغلت لطيفة بالتعبير عن جدلية السجن والحرية فى وجدانها الخاص وتاريخها الشخصى. ولم يكن هذا الموضوع مجرد فكرة تستكشفها لأنها تخصها وتهمها بل خيطا، هكذا قالت، يجمع شوارد العمر ويربط السابق باللاحق. بدا لها ذلك مسألة حياة أو موت. انهمكت. نسيت الضحك. نسيته فى الكتابة ولكنه لم يسقط من روايتها الشفهية. ستضحك لطيفة الزيات من نفسها ومن زميلاتها فى الزنزانة وهى تحكى فيبدو الأمر كله مسرحية هزلية، لا ليس كوميديا سوداء، رغم قتامة التجربة، بل كوميديا مدهشة تعيد حكى الوقائع بتصفيتها من شوائب الخوف والمرارة والضغائن الصغيرة. تبقى خفة الحكاية وشفافيتها وقدرة الإنسان على الانتصار بالضحك.

لطيفة، على مشارف الستين، ممتلئة، ليس بالمعنى المجازى وحده لكن بالمعنى الفعلى لجسد على قدر من البدانة، تحكى عن السجن. يعلو صوتها فى ضحكات متقطعة متصلة متصاعدة. يهتز جسدها، وتدمع عيناها وهى تضحك وتضحكنا من نفسها من سين وصاد من صديقاتنا اللائى قد يكن معنا جالسات يستمعن إلىّ ما تحكيه. تسخر من سلوكها، الهستريا المفاجئة التى أصابتها لأنها لم تجد ثوبها، الثوب الذى حفظته بعناية

وصانته بكل الحرص، الثوب الذى يليق بها وبمثولها...أمام النيابة... للتحقيق!! "تقولش تاج الملك ضاع منى؟ أزعق وأتخانق وأقول الفستان راح فين، فين الفستان، الفستان اتسرق!" وتنتقل حالة الهستيريا إلى الزنزانة ويسود الهرج والمرج ليس لأن مصر ضاعت والا فلسطين، لأن فستانى إتسرق!! ماتسرقش، لاقيته مكانه. كنت نسيت حطيته فين!"

"وعواطف دخلت علينا الزنزانة بعد ما قبضوا عليها فى المطار. لابسة جزمة بكعب عالى ومعطف مطر لونه بنى، آخر أناقة! فتحت الشنطة وطلعت علبة شيكولاتة سويسرى وفتحتها: اتفضلى يا دكتورة، اتفضلى يا أمينة..." كأننا رايحين نبارك لها بجواز ابنها وبتضيفنا... فى السجن! ولما طلبوها فى التحقيق لبست وتطقمت وراحت وجت. خير يا عواطف؟ قالت:

- ولا حاجة مافيش حاجة خالص!

- ولا أى حاجة؟

كان وشها مرتاح ومطمئنة آخر اطمئنان. قلت لها:

- طيب تعالى اقعدى واحكى بالتفصيل، احكى من الأول وبالتفصيل.

فى وسط الكلام قالت:

- سألنى المحقق إن كنت حضرت حفلة سفارة كذا يوم كذا. قلت حضرت هم بيعزمونى كل سنة وبيبقى فيه أساتذة جامعة من أمثالى وصحفيين ودبلوماسيين وكتاب. شفت يا دكتورة

لطيفة مفيش حاجة.

- ماسألش غير كده؟

- لأ!

- متأكدة؟ .

- سأل: كان فيه عسكريين من أهل البلد؟ قلت كان فيه الملحق العسكرى وغيره.

تقول لطيفة وهى تضحك: "لطمت"

- ايه يا دكتورة فيه ايه؟

قلت لها:

- إزاى مفيش حاجة . حيلفقولنا تهمة تخابر مع دولة أجنبية.

استبعدت عواطف الفكرة وربما بدا لها إنى خرفت. وطبعا طلع كلامى مظبوط. اتهمونا بالتخابر. إنما اشمعنى يعنى سمونا "قضية التفاحة"؟! ياللا تفاحة تفاحة، يعنى لو كانت قضية البطيخة كان فرق؟!"

وكريم؟ لم يكن يملك آلة الضحك في ذلك المساء ولا في الأيام التالية. جلس على المقعد المجاور: القميص مزرر حتى أعلى الياقة. تبرز منها رقبة نحيلة تحمل الرأس في استقامة مكلفة. الساقان مضمومتان وكذلك الذراعان ملاصقان للجذع حتى المرفقين ثم ينثنيان كضلعي مثلث ينتهيان بكفين متشابكتين مرتكزتين على الساقين. بدا الولد في جلسته متطاول الجذع نحيلا، يشق الفراغ فيؤكده وهو يقتطع منه حيزا لوجوده. تطلعت شجر. تحاول قراءة جلسته، هل صغر كتفاه أم يبدوان أصغر لأنهما مشدودان لأعلى؟ والمسافة بين عينيه، كيف تقرأها؟ خطوط الوجه دوائر مغلقة. العينان مفتوحتان كالهاوية، كيف تقرأها؟

لم يضحك كريم. لم يحك. لأن الواقعة قريبة، سخونتها الحارقة ما تزال في جسمه؟ مهينة يوجعه استرجاعها؟ الضرب الدوري، تكسير العظام، الكلاب، التعذيب بالكهرباء، من اختل توازنه وفقد عقله ومن ينتظر الإفراج عنه بعد خمس سنوات

من حكم المحكمة ببراءته. لم يحك لها كريم شيئا عن ذلك. كان يجلس صامتا، وحين يتحدث ففى غير ذلك من الأمور. ربما أراد حمايتها فترك لها فسحة من وهم يسمح لها بأن تقول: "كان كريم محظوظا لم يتعرض لما يتعرض له الآخرون!" قال أنه سيحكى لها يوما ما. بعد ستة أشهر من الإفراج عنه قبض عليه مرة أخرى.

تمتمت شجر: يا إلهى، أى بديلين؟ فى مجلس القسم دافعت باستماتة عن تعيين خليل. أحبته لذكائه وتفوقه؟ وشيء آخر أيضا، شيء كالانتباه، انتباه الروح. يزورها فى مكتبها، يستعير منها بعض الكتب وأحيانا يستأذن فى الجلوس لمناقشة موضوع أو آخر معها. فى السنة الثالثة استبدل خليل بثيابه المعتادة جلبابا أبيض قصيرا وطاقية. أطلق لحيته فاكتملت الإشارة. لم تعلق. تركته وشأنه. فى نهاية العام، وفى العام التالى أيضا حصل الولد على أعلى الدرجات، الأول على الدفعة.

قبل مجلس القسم قالت لها زميلة محجبة: "هل رأيت خليل؟ تحدثت معه فى أمر الجلباب. أفهمته أنه من المستحيل أن تعينه الجامعة وهو يطلق لحيته ويرتدى جلبابا وطاقية. كلمته باستفاضة، والحمد لله ربنا هداه وسمع نصيحتى." كانت الآن تبتسم مزهوة بإنجازها: "رأيته اليوم فى الكلية وكان يرتدى قميصا وبنطلون. احتفظ باللحية. بسيطة!"

جلسة عاصفة. انقسم الأساتذة بين ترشيح خليل لتعيينه فى

وظيفة معيد ورفض ترشيحه. دافعت الزميلة المحجبة عنه قائلة أنه سيهدأ ويعود إلى عقله. نرسله فى بعثة دراسية إلى أمريكا أو انجلترا فيتجاوز كل هذه الأمور الصبيانية. تحدث زميل آخر عن خطورة وجود العناصر الإسلامية بين أعضاء هيئة التدريس. قال رئيس القسم: طبعا الدكتورة شجر ضد تعيينه. هل استفزتها كلمة "طبعا" أم أنها كانت مستفزة من الحوار برمته؟ ليس من عادتها أن تبدأ الكلام، أى كلام، بكلمة طبعا. بدأت بها: "طبعا أنا مع تعيينه. هذا من حقه. علميا هو أفضل الخريجين هذا العام. ثقافيا: قارئ من الطراز الأول. إنسانيا: ولد دمث وعلى خلق." قاطعها رئيس القسم: "وميوله؟" قال زميل وهو يحدق فيها باندهاش: "تصورتك علمانية يادكتورة شجر؟!" لم تجب عليه ولكنها قدمت دفاعا عن حق الولد فى التعيين. عين. حلق لحيته. بدا وسيما وأنيقا كفتى أول فى فيلم سينمائى.

سبع سنوات. لم يسافر فى بعثة، لم يذهب إلى لندن أو باريس أو نيويورك فتبدد ملاهيها اضطرامه. دربته القاهرة خير تدريب. حصل خليل على الماجستير ثم الدكتوراه. أصبح "أشطر" المدرسين فى القسم، فى الكلية وربما فى الجامعة. لا يصطدم بأحد. يحسن تدبير أموره. تتأمله شجر عن بعد. تريد أن تعرف هل كانت الجرثومة مستقرة منذ البداية أم أنه التقطها من شوارع المدينة فأصابه ما أصابه؟ ماذا تريدين ياشجر، أن

يبقى بلحيته والطاقية والجلباب؟ أن يحمل سلاحا ليصوبه فى المكان الصحيح مرة والمكان الخطأ مرات؟ ملاحقا أو سجينا ككريم؟ أليس هناك سوى هذه البدائل؟! تصيح شجر فجأة وهى تقود سيارتها كأن هناك من يجلس فى المقعد المجاور يبادلها الكلام: أريده مستقيما متزنا، لا يمالئ أحدا ولا يقول نعم حين تتوجب قولة لا. هل أطلب المستحيل ؟!

-خليل أريد أن أتحدث معك.

جلس فىمواجهتها، يفصل بينهما المكتب. قالت:

- أنا غاضبة منك.

لم يفاجأ. تطلع إليها. قال:

- أعرف.

- تعرف السبب؟

- أعرف.

- لماذا إذن؟

- أنت اخترت أن تكونى جميلة ومهزومة. أنا فكرت طويلا ثم قررت أننى لا أريد أن أكون مهزوما أوملاحقا.

- الطريق الأسهل، والأقبح!

- تبسطين الأمور يا دكتورة. يختار المرء أحيانا أن يعمل على تغيير الواقع، يبدو له ذلك ممكنا. يتحمل أعباء اختياره ولا مشكلة فى ذلك. اكتشفت أننى لا أملك تغيير ما نحن فيه ولا أرى القوة التى يمكننى العمل معها من أجل تغييره. باختصار

وجدت المطروح أن يكون المرء ذئبا أو حملا. قلت آكلا أفضل من مأكول.

- هذا خارج الموضوع. أتحدث عن الاستقامة الشخصية، لست مستقيما فى ممارساتك يا خليل، هل أنت مستقيم؟!

تطلع إليها وابتسم، طيف ابتسامة:

- ما قلته ليس خارج الموضوع. أنت شاركت فى مناقشة رسالتى، فى الماجستير والدكتوراه. وحكمت فى الحالتين بقيمة عملى.

- لا أتحدث عن أدائك العلمى.

- أنا دائم التفكير فى أدائى العلمى. هذا ما أصونه بأى ثمن. أصونه وأصعد، وأصعد لأصونه. لا أريد أن أكون كجمال حمدان، يعيش منعزلا ومكتئبا ويموت قبل الأوان. استدرك- يموت قبل أن يموت. سأنجز علميا وأحمى هذا الانجاز بالمكانة والقوة. أيهما أفضل يا دكتورة شجر أن يكون جمال حمدان رئيسا للجامعة أم تكتشف جثته بعد أيام فلا نعرف إن كان موته انتحارا أم عزلة قاتلة تمكنت منه فى النهاية؟

- عليك أن تختار أن تكون رئيسا للجامعة أو تكون جمال حمدان. لا توهم نفسك بإمكانية الجمع بين الأمرين.

لم يجب. قال إنه تأخر على محاضرته. اقترح أن يكملا الحديث فى وقت آخر.

تركته يذهب. غادرت. ركبت سيارتها. "لماذا تركته؟" هتفت

بصوت مسموع. نزلت من السيارة ودخلت الكلية. صعدت إلى القسم. تطلعت فى الجدول. ستدق الباب وتستدعيه من المحاضرة. ستمسك به وتربيه بالعصا إن اقتضى الأمر. دور المربى القديم؟ لما لا. الضرورة تقتضى. دقت الباب. دخلت. 'خير يا دكتورة شجر؟!' تطلعت فيه، تطلعت إلى الأولاد الجالسين أمامه. همهمت. غادرت المكان. بدا لها وهى تقصد باب الكلية أنها تحتاج لأكثر من عصا تستعين بها على السير. تشعر بإرهاق هائل ورغبة فى الجلوس لالتقاط أنفاسها.

لماذا لم تمسك بالعصى وتنزل بها عليه وتشبعه ضربا حتى توقظه من وهمه. لماذا سكتت؟ هل هزمها أم أنها مهزومة سلفا فلا تملك إلا أن تراقب أجمل أولادها يسرقون منها؟ من يسرقهم، وكيف؟ هل هم أطفال لا يعرفون المحافظة على أنفسهم؟ نعم أطفال، صغار! خليل تجاوز الثلاثين، لا تملكينه، لا أحد يملك سوى نفسه. 'أنا أستاذته!' صاحت شجر ثم داست بشكل مفاجئ على فرامل السيارة. تأخرت. كان عليها الآن أن تترك السيارة وتنزل لمواجهة المشكلة. توقف الطريق. علت أبواق السيارات قبل أن يقبل السائق باعتذارها ويأخذ ثمن الفانوس الذى تسببت فى تحطيمه حين اصطدمت بمؤخرة سيارته.

مجلس الكلية. ما الذى جد؟ المجلس هو المجلس. ثلاثون استاذا حول المائدة يناقشون جدول الأعمال فى اليوم المقرر فى

الأسبوع الثالث من كل شهر. اعتادت أن تنصت. اعتادت أن تقول رأيها بهدوء. اعتادت أن تكتم غيظها وتقيده فلا يبدو حين تطلب الكلام إلا أنها تعبر عن رأى مخالف بما يليق بمجلس موقر لأساتذة اجلاء. تغادر المجلس كأن شيئا لم يحدث، تركب سيارتها وتمضى. تتوقف فى إشارة مرور فترى سائقا فى سيارة محاذية يحدق فيها أو يضحك. تنتبه أنها كانت تحدث نفسها. علق أحدهم مرة: 'المجانين ممنوع يسوقوا عربيات، خطر!' أجابت: 'يلعن ابوك'.

طفح الكيل. تقف، تصيح بأعلى صوتها. يقول العميد: 'اهدأى يا دكتورة شجر'. تزيدها عباراته اشتعالا، يعلو الصوت أكثر:

- القضية واضحة زى الشمس ياسيادة العميد. تشكلت اللجنة لمناقشة الرسالة. وصلت الرسالة إلى الممتحنين الخارجيين، كلاهما وليس واحد منهما، قالا للمشرف أن الرسالة لا تصلح. قالا له ذلك شفهيا، ومنعا للإحراج، وتقديرا للزمالة. بدلا من أن يعيد المشرف الرسالة للطالب ويطلب منه تعديلها، يأتى إلى مجلس القسم ويقول ان الأستاذين اعتذرا لانشغالهما ويشكل لجنة جديدة تقبل الرسالة وتناقشها وتمنحها مرتبة الشرف الأولى. هل يعقل هذا، إلى أين نذهب يا دكتور، إلى أين؟!

تدخل رئيس القسم المعنى:

- لا أقبل ما تقوله الدكتورة شجر فى حق زميل غائب. لا أقبل

هذا الطعن فى المصداقية العلمية لقسمنا. ليس لديك أى إثبات على ما تقولين يا دكتورة شجر!

- هذا ما قاله الأستاذان. سمعت بالأمر فاتصلت بهما تليفونيا: أكدا أنهما بعد قراءة الرسالة أعاداها لأنها لا تصلح.

- لم يكتبا تقريرا بذلك!

تدخل الدكتور يوسف:

- لنفترض أنهما أخطآ لأنهما لم يكتبا تقريرا برفض الرسالة، هل يعنى ذلك أن يعتمد المجلس الآن منح الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى لرسالة رفض مناقشتها أستاذان هما الأكثر تخصصا فى موضوع البحث؟!

- المسألة وجهة نظر!

صاح الكتور يوسف:

- ليست وجهة نظر، إننا نهدم الجامعة بأيدينا!

قام واقفا، صرخ:

- أنتم تهدمونها!

تداخلت الأصوات، بعضها مستنكرا ما قاله يوسف والبعض الآخر يتفق معه وإن لم يحبذ حدته فى التعبير عن رأيه. زميل يقول: "إهدأ يايوسف، ستصيبك جلطة. أنت لا ترى وجهك".

قام وأخذ يوسف من يده وغادرا.

العميد يدق بقلمه على حافة كوب الماء الموضوع أمامه مطالبا المجلس بالهدوء. واصل رئيس القسم المعنى كلامه:

- أقول إن المسألة وجهة نظر. لم تَرُق الرسالة لهذين الأستاذين، الله أعلم لماذا. قيّمها أستاذان آخران والمشرف تقييما مختلفا. لماذا تخلقين مشاكل من لا شىء يا دكتورة شجر؟!

- مشكل من لا شىء؟! نتحدث فى صلب عمل الجامعة. قيمة البحث ونزاهة الأستاذ! أكرر اعتماد هذه النتيجة سبة فى وجه الكلية، كارثة!

صوّتوا. سبعة من الثلاثين رفضوا اعتماد النتيجة. صدّق المجلس على حصول الطالب على درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى. حملت شجر أوراقها وغادرت.

تعرف شجر الآن أن حدتها ذلك اليوم وانفعال يوسف والصوت العالى لكل من اعترض على توصية القسم بمنح الطالب الدرجة بامتياز لم تكن متعلقة بهذا الموضوع وحده. لم يكن الموضوع سوى القشة التى -كما يقولون- كسرت ظهر البعير. كسرت ظهر يوسف فعلا وليس مجازا. كانت الكلية كلها تتابع على صفحات الجرائد ما ينشر عن أستاذ جامعى، ليس فى كليتهم - ولكنه فى الجامعة- سرق كتابا لزميل راحل ونشره باسمه. أولاد المسروق لم يكتبوا فى الصحف، لجأوا إلى القضاء. جاء حكم القضاء مؤكدا السرقة. قبل انعقاد المجلس عرفت شجر، وعرف يوسف، وعرف كل الناس أن الأستاذ لم ينتحر، ولم يهاجر إلى بلاد الواق واق حيث لا

يعرف أحد حكايته ولا كتابه، ولم يقف فى ميدان التحرير ويجرّس نفسه بنفسه كفّارة عن فعلته. جاء مبتسما مشرقا راضيا مرضيا يستقبل التهانى لأن الجامعة عيّنته رئيسا للقسم الذى يدرّس فيه. شهق يوسف. شهقت شجر. جلسا واجمين. لم ينبس أى منهما بحرف حتى قاما إلى مجلس الكلية.

للوهلة الأولى بدا لها أن كلمة والد أو والدة سقطت من الإعلان. ومع ذلك صعدت السلم على عجل وبقدر ما تسمح لها ساقها وعكازها. دخلت مكتب العميد. استفسرت. لم تسقط كلمة. الورقة المعلقة على لوحة الإعلانات فى المدخل تنقل الخبر بدقة: "توفى مساء الأمس الأستاذ الدكتور يوسف على فهمى، الأستاذ بالكلية. تشيع الجنازة ظهر اليوم من مسجد..." لم تركب سيارتها. أوقفت تاكسى. ركبت. نزلت أمام البيت. قال البواب أن المصعد معطل. صعدت الأدوار الخمسة على قدميها. لا صوت يأتى من الشقة. لا أحد يصرخ أو يندب. فى المستشفى؟ أى حماقة! لم تسأل عن إسم المستشفى. طرقت الباب. فتحت ابنته "تفضلى يا طنط شجر" لا أحد يبكى. ليس بعد. وجوه ممتقعة. وجوم. لم تستبدل زوجته ملابس الليلة الفائتة.

– ماذا حدث. كيف؟

– عاد من الكلية فى الرابعة بعد الظهر. اتغدينا ثم طلب منه سمير أن يساعده فى واجب الحساب فجلس معه حتى الساعة

السابعة. فى السابعة والنصف قال لى: أطلبى لى دكتور، أنا تعبان. طلبت الدكتور وهو دخل نام. تصورت انه نام. الدكتور جه الساعة عشرة. قال خلاص. مات!

بعد أسبوعين طلبها العميد.

– أعرف مدى حزنك على فقد الدكتور يوسف. كان موته صدمة لنا جميعا. لكن لا أفهم أن تكررى فى كل مكان أن مجلس الكلية قتل الدكتور يوسف. هذا كلام لا يليق بمجتمع الأكاديميين، لا يليق بأستاذة.

– لم يكن مريضا. أصيب بأزمة قلبية من جرّاء ما حدث فى المجلس.

– هل هو فيلم عربى يا دكتورة شجر؟! آخ قلبى ويموت. قضاء وقدر. عمره المكتوب أم لا تؤمنين بقضاء الله؟!

قامت. وصلت إلى الباب ثم استدارت وتطلّعت فيه:

–لا أفكر على من يأتى الدور بعد يوسف. أرى النعش والمشيّعين وأعرف أنها الجامعة التى فى النعش. كابوس أراه كل يوم، أراه فى الصحو وليس فى المنام ياسيادة العميد!

طرقت الباب بعنف. انصرفت مهرولة فتعثرت فى العصا. سقطت على وجهها. أعانها الساعى على القيام. "حصل خير يا دكتورة شجر".

ظنت أنها مصابة بالتهاب فى الكبد. ذهبت إلى الطبيب. أجرت الفحوصات المطلوبة. قال الطبيب: الكبد سليم، وكل

وظائفه ممتازة. كيف تفسر هذه المرارة فى الحلق؟!

لا حد لخسارتها فى رحيل يوسف. هناك زملاء آخرون، تحبهم وتحترمهم ولكن يوسف، من مثله؟!

جاء خصيصا إلى لندن لزيارتها. لم يكن قد مضى على خروجها من المستشفى سوى يومين. رن الجرس فتحت. "يوسف؟!" كان عاتبا. "تتعرضين لحادث وتدخلين المستشفى ولا أعلم؟! كيف وبأى منطق؟! كعادته كان على حق. حكت له تفاصيل ما حدث. استمع وهو يدخن ثم قال: غدا اسأل الطبيب إن كان هناك ما يمنعك من السفر. تطلعت إليه متسائلة. قال: تعودين إلى مصر. لا نريد هذا البلد، تقعدى فى بيتك فى جامعتك. ولا داعى للبهدلة! كان غاضبا. ابتسمت. "سأبقى حتى انتهى من عملى فى الأرشيف. "عنيدة يا شجر، ولا فائدة. ماذا لو تقصدوك، ماذا لو قتلوك؟ ماذا لو..." قاطعته بالضحك قالت: "لم أقل إن الحادث كان مدبرا، قلت : احتمال، مجرد احتمال!"

لم يقتلها أحد فى البلد البعيد. هو الذى ذهب. مات كمدا، فى بيته، جامعته. ستذهب إلى أمه فى الصعيد، تقول لها: لا تقبلى فيه عزاء. ابنك قُتل. الجامعة قتلته. أى هراء هذا ياشجر. ليس هراء هى الحقيقة!. يوسف كان سيموت فى كل مرة اقتحمت فيها قوات الأمن الحرم الجامعى وأمطرته بالقنابل المسيلة للدموع. كان سيموت يوم هاجم الجنود المدينة الجامعية وقتلوا

خالد عبد العزيز الوقّاد. يقول يا شجر الولد عنده سبعتاشر سنة. مستجد فى سنة أولى ياشجر. أهله فقرا فلاحين، حطوا القرش على القرش وبعتوه الجامعة يتعلم. خمسة أشهر، ياشجر، وقالوا لهم تعالوا خدوا ابنكم من المشرحة". ابتلع يوسف الموت مرة ، مرتين، ثلاثا. ثم جرعة أخيرة، أقل ربما، لم يحتملها. قتلته.

سافرت شجر إلى الصعيد. جلست أمام المرأة الكبيرة. قبلّت رأسها. لم تقل شيئا. ركبت القطار. عادت إلى القاهرة.

•••

لم تكن جنازة. قرع الطبول والموسيقى العسكرية تفرض إيقاعها على الحرم الجامعى، تدفع بالطلاب إلى التجمع على جانبى الموكب للمشاهدة. "إيقاع؟" توقفت شجر فجأة أمام عبارتها، لم يكن هناك إيقاع بل نشاذ أصوات زاعقة متداخلة.

- ما الذى يجرى؟

- السنوى

- السنوى، يعنى إيه؟

- المهرجان السنوى، حضرتك أول مرة تدخلى الجامعة؟!

لم تشهده أبدا. لم تسمع به. أمر مستجد، على الأرجح. فى المقدمة أولاد وبنات يحملون أعلاما شتى ملونة، مجرد أعلام

كبيرة ملونة لا تمثل شيئا، بعدها أعلام الكليات واللافتات: اسم الكلية مكتوب بخط عشوائى على ورقة مقواة يحملها طالب يتقدم مجموعة من طلاب الكلية وطالباتها. ملابس فرعونية، عمائم تركية، ثياب عصرية دارجة. ضباط يسوقون فلاحين بسلاسل، بنات فى ملابس السهرة، فى ثياب الفلاحات، أخريات فى الملايات اللف. فرقة من عازفى المزمار فى الملابس البلدية. حفل تنكرى؟ تساءلت شجر. كيف سمعتها البنت الواقفة بجوارها؟!

- إنهم يمثلون تاريخ مصر.
- تاريخ مصر؟!
- من أين أتوا بهذه الملابس؟
- من المخازن.

أية مخازن؟ لم تسأل شجر وإن وجدت تفسيرا لقدم الملابس ورثاثتها. لم يفكر أحد فى غسلها وكيّها. المخازن. ربما للجامعة صندوق يفى باحتياجات فرق الهواة التمثيلية. من يولول؟ طالب. لابد أن أحد الطلاب يسخر بطريقة فجة من الموكب. يتعالى الصوت. ليس طالبا ولا طالبة. جماعة مولولة! لافتة كلية الطب . لافتة أخرى تتبعها مرفوعة على صندوق خشبى ملفوف بالأسود. مكتوب على اللافتة: "من إنجازات كلية الطب" حاملو النعش من الطلاب يولولون وهم يضحكون. يشاركهم بعض المتفرجين. يختلط العويل بالضحك

التعليقات الساخرة. ياإلهى كيف ستعطى محاضرتها وسط هذا الصخب. طالب يرتدى ملابس نابليون، يخشى ألا يتعرف عليه الطلاب. يرفع لافتة مكتوب عليها: "نابليون وزوجته الملكة مارى أنطوانيت"!! لا داعى للشعر المستعار، الحجاب يفى بالغرض! "لافتة كلية الآداب" من خلفها عربة حنطور عليها ثلاث طالبات يغطين وجوههن بغلالات ملونة حمراء وصفراء وخضراء، لون لكل بنت ومن خلفهن بنات يرتدين قبعات وملابس عصرية. "كلية فاطمة" هتف أحد الطلاب فبدأ الصفير والتعليقات. وجدت شجر نفسها تنقض على الطالب الذى يحمل علم كلية الآداب وتنتزعه منه. دفعها بقوة. حالت أجساد الطلاب المتراصة من سقوطها على الأرض. استرد الولد العلم فغادرت المشهد. قصدت رئيس الجامعة. لم تجده. تركت مبنى الإدارة إلى مبنى كلية الآداب. مكتب العميد.

- سيادة العميد موجود؟
- عنده اجتماع.

فتحت الباب ودخلت.

- خير يا دكتوره شجر؟

لم تقل شيئا. مدت يدها وأمسكت يده وأقامته عن مقعده، جذبته ليتبعها. تبعها. نزلت السلم وهى تمسك بيده. خرجا من باب الكلية. أشارت بإصبعها إلى الموكب:

- أنظر؟

تطلع إليها. ابتسم. ضحك.

- ما المشكلة يا دكتوره: المهرجان السنوى للجامعة؟!
- كارنفال؟
- ليس كرنفال

قاطعته:

- مولد؟
- موكب إحتفالى. لعب وتمثيل لمشاهد من تاريخ مصر، ألست أستاذة تاريخ يا دكتورة؟

ابتسم وتركها واقفة كصنم. لا لم تقف كالصنم. صاحت فى الطلاب، صرخت. لا تذكر ماذا قالت. تذكر أن صوتها ضاع بين قرع الطبول و نفخ المزامير والتعليقات. اتجهت إلى قاعة المحاضرات. لم يتغلب الميكروفون على صخب المهرجان. توقفت.

لم تعد إلى الجامعة طوال الأسبوع. وعندما ذهبت وصلها كلام العميد عنها: "الدكتورة شجر فقدت عقلها. دخلت على وأنا فى اجتماع وجذبتنى من يدى. تصورت أن حريقا شبّ فى الكلية أو كارثة ما على وشك الحدوث، لم أجد سوى موكب الكليات. فقدت عقلها".

لم تنتظر. أتت بورقة بيضاء كتبت:

"الأستاذ الدكتور عميد الكلية،

تحية طيبة وبعد،

أرجو إعفائى من كافة مسئولياتى فى قسم التاريخ بالكلية فقد اقتحمت غرفتك بلا ضرورة وكنت على وشك أن أشعل النار فى نفسى وفى الكلية. ولا يخفى عليك أن هذه كلها من علامات الجنون. ومن المؤكد أن المكان الطبيعى للمجانين ليس الجامعة بل المصحات النفسية.

أوضّح- إن فاتتك معانى الكلمات السابقة- أن هذا طلب استقالة.

أ.د. شجر محمد عبد الغفار

غادرت الكلية إلى البيت. أكدت على البواب: "لا أريد زيارات. من يسأل عنى قل سافرت". صعدت إلى شقتها. أتت بمقص وقصّت سلك التليفون.

"...تحرك ركب سعيد من التل الكبير في اتجاه منطقة القناة، فبلغ في مساء ٦ ديسمبر ١٨٦١ عتبة الجسر شمالي بحيرة التمساح، وزار ساحة الحفر رقم ٥ وهي إحدى الساحات الست المقسمة إليها تلك المنطقة. وقضى سعيد هناك اليوم التالي زار فيها أنحاء تلك الجهة، كما شاهد الموقع الذي اختير مصبا للقناة البحرية في بحيرة التمساح. وأعجب سعيد بهذا الموقع وطلب أن يشيّد له سكن خاص على الهضبة يشرف على مصب القناة البحرية في البحيرة حتى 'يرى ويسمع هدير انسياب مياه البحر المتوسط في بحيرة التمساح'.

وغادر سعيد عتبة الجسر في الساعة التاسعة من صباح ٨ ديسمبر ١٨٦١ ومعه ديلسبس والحاشية وقاموا بجولة عند الجهة التي وقع عليها الاختيار لتكون موقعا لمدينة التمساح (الاسماعيلية فيما بعد)... ومن هناك قام بجولة أخرى حول آبار نفيشة ثم تابع طوافه إلى مزرعة بير 'أبو بلاح' وهي من منشآت الشركة... وأخيرا واصل رحلته فبلغ حوالي الظهر

مركز طوسُن جنوبى بحيرة التمساح، وقد أطلقت الشركة على هذا المركز اسم طوسُن وهو ابن سعيد باشا...

وفى طوسُن أعد للوالى استقبال حافل فدخل المدينة ممتطيا صهوة جواده وبجواره ديلسبس راكبا هو الآخر حصانه، وسارا بين صفوف متراصة من العمال المصريين هتفوا بحياته، وعزفت موسيقى الحرس. وكان ركب سعيد باشا يتألف، عدا هذين الجوادين، من ستة جمال عليها فاخر السروج ركب عليها كبار أفراد الحاشية، تتبعها عربة سعيد الخاصة تجرها ستة بغال ثم قوة من الجيش المصرى. وعلى أثر هذا الاستقبال وطوافه بالمنشآت التى أقيمت فى طوسُن انتهت الزيارة وقفل سعيد عائدا إلى عاصمة ولايته."

لم تكن المرة الأولى التى تقرأ فيها شَجَر كتاب عبد العزيز الشناوى "السُخرة فى حفر قناة السويس". انهمكت فى قراءته كأنها المرة الأولى. فى هذه الزيارة سيتفق سعيد مع ديلسبس على حل مشكلة الشركة بفرض السُخرة ونقل العمال إلى ساحات الحفر "بالزور" (وهو ما ورد على لسان بعض الفلاحين حين سألهم سائح إنجليزى وسجل العبارة بنصها بالحروف اللاتينية). كل شهر عشرون ألفا يعملون فى ساحات الحفر، وعشرون ألفا فى الطريق إليها وعشرون ألفا عائدين إلى قراهم، موزعين بين المراكب السابحة فى النيل والقطارات المتجهة من القاهرة إلى بنها والزقازيق أو منها إلى القاهرة،

والقوافل عبر التل الكبير متجهة شرقا فى طريق الذهاب أو غربا فى طريق العودة.

وضعت علامة فارقة عند صفحة ١٣٠ التى ترد فيها عبارة "بالزور". أغلقت الكتاب. وضعته على الطاولة الصغيرة الملاصقة للسرير. أطفأت النور. اللقاء الأهم بين سعيد ودلسبس. سيتفقان فيه على توريد عشرين ألف عامل سُخرة شهريا إلى مناطق الحفر. وسيقرر سعيد- أو يقرر دلسبس ويوافقه سعيد على تخفيض عدد الجيش المصرى وتسريح الجنود وتحويلهم إلى العمل فى ساحات الحفر. لماذا تعود لقراءة هذا الكتاب الذى قرأته عدة مرات وتعرف كل ما ورد فيه؟ هزت كتفيها. هناك سبب، دائما هناك سبب.

•••

أتساءل: هذه الكتابة المعلّقة بين حياتين، أين تأخذنى؟ أحدق فى الشاشة البيضاء. ببطء تتحرك أصابعى تدق على أزرار الآلة تؤلف بين حكايتى وحكايتها. أتوقف وكأننى على مفترق طريق. أتأمل. أعرف أن شجر الآن فى هذه اللحظة التى أجلس فيها للكتابة تمشى وحيدة فى الطرقات. تركت الجامعة ولم تعد قادرة على الكتابة: ثلاثة ملفات تقبع على مكتبها يحمل كل منها مشروع كتاب، ينتظر أن تفتحه وتبدأ فى استكمال مادته وتدوين فصوله. ترى الملفات الثلاثة، تمسكها، تفتحها. تغلقها.

تعيدها حيث كانت. تغادر البيت. تركب سيارتها، تسير باتجاه كوبرى عباس. تقطعه إلى جزيرة منيل الروضة. تعبر كوبرى الملك الصالح. تنحرف يمينا. تصفّ السيارة وتمشى. البنايات المتراصة عن يسارها. النهر عن يمينها، محجوب. نقيق الضفادع. ثغرة بين جدارين: الماء ومن ورائه النخيل. قارب صيد حولته أسرة ما إلى مقر إقامتها الدائم. امراة تفترش الأرض ترضع طفلها، تحتضنه بيمناها، وبيسراها تحرك مروحتها على كيزان الذرة الموضوعة على جمرات مشتعلة. فى الجهة الأخرى المبانى المتهالكة، وراءها كنوز مصر القديمة: الحصن والكنائس وجامع عمرو لا يظهر منها شيئا للعابر فى طريق السيارات السريع.

تغادر البيت. تركب سيارتها. تسير بمحاذة النيل فى اتجاه كوبرى الجامعة، تتجاوزه إلى كوبرى الجلاء. تعبر إلى الجزيرة. جانب من الطريق: الأوبرا. الجانب المقابل: متحف مختار. تمثال سعد زغلول فى الوسط. الأسود البرونزية على مطلع قصر النيل ومنزله. النخلات الثلاث فميدان التحرير. بنت صغيرة- فى الخامسة من عمرها، على الأرجح- تركض بين السيارات، تبيع مناديل ورقية. الأولاد يلعبون الكرة تحت الكوبرى. سيارات الأمن. الجنود.

تغادر البيت. نفس الطريق. منزل كوبرى قصر النيل. النخلات الثلاث. الفنادق الغالية. السفارة البريطانية. السفارة

الأمريكية محصنة بكتل من الإسمنت تحتل جزءا من الشارع. تمثال سيمون بوليفار. الكراسى المصفوفة لاستقبال العزاء فى مدخل مسجد عمر مكرم. نعش ومشيعون وصوت يتلو آيات من الذكر. تواصل إلى ميدان رمسيس. تصفّ السيارة فى موقف محطة القطارات. تنزل. تعبر الشارع. تدور حول تمثال الفرعون القديم. تعود إلى سيارتها. التحرير مرة أخرى. شارع القصر العينى. المستشفى. قصر الأمير. كوبرى الجامعة. ثم تنحرف يسارا . لا تتطلع إلى فلاحة مختار والقبة وبينهما النصب التذكارى لشهداء الجامعة. لا تملك أن تتطلع.

تعود إلى البيت. تفتح الباب. تغلقه. تلقى بالعصا. تجلس. جُنّت أم ضاقت بها الجدران؟ هل تفكر؟ يبدو وكأنها لا تفكر فى شىء بعينه. نتف وشذرات تضيئ وتختفى كتلك الحشرات الليلية الطيارة.

***

"أين ذهبت النجوم؟" هتفت شجر فجأة وهى تقف فى شرفة بيتها.

فى الصباح ركبت سيارتها وشرّقت. تجاوزت المقابر وقلعة الجبل ثم شرّقت أكثر إلى الطريق الصحراوى. لا شىء سوى الرمال والحصى والتلال الجرداء. واصلت إلى أن رأت الكتلة

الجبلية الوعرة تمتد عن يمينها محدبة هلالية الشكل. تمتمت:
"عتاقة: البوابة الغربية للبرزخ". لم تقصد البرزخ، تجاوزته إلى
الطريق الواصلة بين المدن الثلاث. أوقفت سيارتها ونزلت.
قطعت الحيّز الرملى الفاصل بين طريق السيارات والمجرى
المائى. "خاصرة مصر"، "آخر خط دفاع عن مصر النيلية"،
"دفاع قوى ضد هجوم ضعيف... دفاع ضعيف ضد هجوم
قوى." ما الذى أتى بجمال حمدان الآن؟ تابعت الأزرق
الصريح. بدا بريئا لا يشى بالحكاية. سطح وديع، نحيل
ورهيف كجسد المسيح. تنتبه إلى ثلاثة جنود واقفين على أعلى
التلة الرملية. ربما يتساءلون لماذا تقف فى هذا المكان. يهبطون
فى اتجاهها، يقتربون. أولاد يحملون بنادق قديمة. يتطلعون.
يمضون مبتعدين. هل يعرفون حكاية الأطياف؟ هل يعونها؟
هل تستوقفهم الآن لتحكى لهم؟ من أين تبدأ؟ الولد، كان هناك،
واقفا مثلهم، مشرفا، يحمل بندقية عتيقة. هناك على البوابة
الرملية فيما وراء الماء. أطلق الولد النار فجأة. هل كان خائفا؟
قال الولد "هل نترك الحدود بلا دفاع؟" أطلق النار. قتلوه. هل
كان يعرف الحكاية؟ غريب، غريب، لا شىء يضيع، لا شىء.
بإمكانها الآن أن تأخذ الأولاد، تمسك يد واحد منهم بيسارها
ويدىّ الثانى والثالث بيمينها كأنها تعبر بهم الشارع إلى
المدرسة. خطوات. مجرد خطوات. ينبشون الرمل، نبشا طفيفا.
بإمكانها الآن أن تناديهم ليقفوا معها على حافة المّاء، هنا أيضا

بإمكانهم أن يروا كل شىء. تمر من أمامها حاملة بضائع
تسرى على الماء ببطء وئيد. لايظهر أحد من مرشديها ولا
طاقمها الآتى من أين؟ من بلاد الشمال البعيدة؟ من الجنوب؟ لا
ينتبهون، هل ينتبهون؟

قامت شجر. ركبت سيارتها. سارت بمحاذاة المجرى
المائى. الشلوفة، جنيفة، كبريت، فايد: قصور الأثرياء.
المنتجعات الصيفية. أشجار الموز. الدفرسوار. مشارف
الإسماعيلية: "الممر الطبيعى بين سهول سيناء وسهول
فلسطين"، جمال حمدان مرة أخرى. غربا إلى قلب الدلتا. شرقا
إلى قلب فلسطين. دخلت المدينة. سارت بمحاذاة ترعة الماء
العذب. انحرفت يمينا إلى موقع مشرف على البحيرة. جلست
لتتناول غداءها. القوات البريطانية مرت من هنا إلى فلسطين.
القوات الإسرائيلية أتت من فلسطين وصوبت مدافعها هنا.
الفلاحون أتوا من صعيد مصر ووجهها البحرى. عادوا. أو
ماتو هنا. لماذا بقى الصوت حاضرا إلى هذا الحد؟ لماذا تصون
الذاكرة أشياء دون أشياء. المذياع خشبى صغير موصول
بالكهرباء. من هذه البنت المنصتة؟ ينبعث الصوت معلنا: "قرار
من رئيس الجمهورية بتأميم الشركة العالمية لقناة السويس
البخرية شركة مساهمة مصرية" "محلاك يا مصرى وانت ع
الدفة/ والفرحة عاملة فى الكنال زفة/ ريّسنا قال مفيش محال/
راح الدخيل وابن البلد كفّى". "انسحبت قواتنا إلى خط الدفاع

الثانى. "أين يقع خط الدفاع الثانى؟". "أتنحّى بشكل كامل ونهائيا" المذيع ينتحب. "لا". النار من جديد على جانبى المجرى المائى بطول الخط بين المدن الثلاث. نعش من المحمول على الأكتاف؟ "بالروح بالدم نفديك يا رياض". "بالروح بالدم نفديك يا جمال". يعبرون إلى الضفة الأخرى. الله أكبر والجنود وأسراب الحمام. نعش من المحمول على الأكتاف؟ نعش العميد؟ نعش سيدة الغناء؟ نعش الولد؟

"عدّى النهار". "الدرس انتهى، لمّوا الكراريس".

ركبت شجر سيارتها، واصلت الطريق: الفردان. البلاح. القنطرة. الكاب. التينة. رأس العش. وأخيرا المدينة الحرة: بور سعيد. غريب أمر الأباطرة يمنحون المدن أسماءهم. يتصورونها بغالا أو أحصنة. يركبونها. يأبدون صورتهم على صهواتها فى تماثيل الحديد. للمدن دهاؤها، تبقى الإسم لنفسها، تسقط عنه صاحبه وتمضى فى أمان الله، لا تلوى على شىء. قضت الليلة فى بور سعيد.

فى اليوم التالى عادت أدراجها. توقفت فى رأس العش. فى القنطرة. توقفت فى البلاح وفى الفردان. توقفت فى الدفرسوار. واصلت طريقها إلى السويس. كانت الشمس عن يمينها ذاهبة فى اتجاه التلال. غابت وراءها.

أوقفت سيارتها. نزلت. سارت حتى وصلت شاطئ القنال. افترشت الأرض. سماء القاهرة لا تظهر النجوم. حدّقت فى

السماء. رأت المرأة تعرّش بجسدها على الأفق. تلامس الأرض بأطراف أصابع قدميها من ناحية الخليج، وبأطراف أصابع يديها من ناحية جبل عتاقة، وبينها مجرى الساقين يسلم نفسه صاعدا إلى البطن المرقّط بالنجوم ثم يميل القوس هابطا بذراعيها الممدودين. امرأة غريبة تبتلع صغارها فى الصباح وكل مساء تلدهم من جديد. نجوم متلألئة ترقّط نهر جسدها وأطرافها. رُضّع تحيط أفواههم الصغيرة بحلماتها الكُثر. امرأة -بقرة. رأت شجر البقرة. الذراعان والساقان قوائم تعلو وترتفع. من هذا الطاعن فى السن الراكب على البقرة؟ عظامه فضة وشعره لازورد وتاجه فيروز. قوس السماء ضرع، من هذا الصغير الراكع تحت ضرعها؟ امرأة- بقرة تتوارى فى أوراق الجميز، تطل برأسها من وراء الشجرة، من هذا الذى تعطيه طعاما وتصب له الماء؟ امرأة -عين، على بوابة الأفق، تفتح ذراعيها لتستقبل القادمين إلى التلال الغربية. أين ذهبت البقرة؟ من أين أتت اللبؤة؟ تعوى. تطلب دما. تركض موتورة فى اتجاه غروب أو شروق. دم من ذلك الذى يسيل؟ من الذى وُلد فى هذه الساعة؟ المرأة السماوية تبتلع صغارها من جديد. ماذا دهاك يا شجر، توغّل بك الليل وأنت جالسة بلا حراك مأخوذة بصور لم تعد سوى نقش فى القبور؟ تهز رأسها. عيناها تكذّبان. المرأة أمام عينيها معرّشة على الأرض فى الفضاء، على رأسها إناء، فى بطنها إناء. قاتلة قابلة. ظلام.

أطياف. الأطياف تفتح عيونها. توقد مصابيحها. تسرى فى المجرى المستتر. من هذ الذى يحكون له حكايتهم، يملأونه عزما فيملأ أنوفهم بنسيم الحياة؟ من هذا الذى ينتحب صباح مساء ولا يفارق حبيبته ولا يطولها؟

صوت من هذا المتردّد فى الأعالى؟ أين دفاتره وأين الميزان؟ هل دوّنتَ كل شىء؟ ما الذى سجّلتَه يا وجه الطائر ذى المنقار الطويل؟ هل دقّقتَ الحساب وفصّلتَه فى دفاترك؟ هل صنتَ مجلداتك فى الديماس؟ هل تفكّ الأربطة، متى تفكّ الأربطة؟ هل تفتحَ الفم وتُطلق منه الكلمات؟ افتحه واطلقها فتنطلق أسطع من الضوء، أسرع من كلاب الصيد، أخف من الظلال.

لم تكن نائمة، لم يكن عقلها شاردا فى الزمان. كانت شجر ترتّب بيتها وتطمئن.

ركبت سيارتها وقفلت عائدة إلى القاهرة.

تمت

القاهرة

أكتوبر ١٩٩٨

إشارات

• الأبيات فى الفصل الأول من قصيدة للشاعر سيزار فاييهو من بيرو، قمت بترجمتها مع استبدال "كل أحبابه" بعبارة "كل أهل الأرض" الواردة فى الأصل.

• محمد عزت البيومى: أول شهداء الطلبة فى ثورة ١٩١٩، وكان استشهاده فى ١٩١٩/٣/١١

• محمد عبد المجيد مرسى: طالب فى كلية الزراعة، استشهد برصاص الشرطة فى انتفاضة الطلاب عام ١٩٣٥

• عبد الحكم الجرّاحى: أصيب برصاص الشرطة فى نفس الانتفاضة ونقل إلى المستشفى واستشهد بعد أيام. وكان استشهاده فى ١٩٣٥/١١/١٩

• خالد عبد العزيز الوقّاد: استشهد فى مظاهرات الطلاب احتجاجا على قصف العراق فى فبراير ١٩٩١

• مصادر شهادات أهل دير ياسين:

- شهادات عزيزة إسماعيل عطية ونزيهة أحمد أسعد رضوان وأم عيد وحسين عطية واسماعيل محمد عطية وخليل سمّور وحسن رضوان من مقالات الدكتور وليد الخالدى السبع، "خمسون عاما على ملحمة دير ياسين: قرية أمام منظمات صهيون" جريدة الحياة، ٤/٩ إلى ١٩٩٨/٤/١٥

- شهادات نعمة زهران وجميلة على وفّرتها لى السيدة خيرية أبو شوشة من جامعة القدس والسيدة عادلة العيدى من مركز خليل سكاكينى برام الله.

- شهادة زينب محمد عطية (أم صلاح) من مقابلة أجرتها شفيقة عيّاد، جريدة البلاد، ١٩٩٧/٥/٦، ومقابلة أجرتها ريم عبيدو وردت فى مقال "خمسون عاما على النكبة"، جريدة النهار، ١٩٩٨/٥/١٦

- شهادة أم عزيز من مقابلة أجرتها شفيقة عيّاد، جريدة البلاد، ١٩٩٧/٦/٥

- شهادة محمد محمود أسعد منسوخة بخط يده أرسلتها لى السيدة خيرية أبو شوشة من جامعة القدس.

- شهادات أبى توفيق الياسينى وأبى محمود من فيلم البى بى سى عن الصراع العربى الإسرائيلى

- شهادة أبى ياسين من كتاب شريف كناعنة ونهاد زيتاوى، دير ياسين، سلسلة القرى الفلسطينية المدمّرة، مركز الوثائق والأبحاث، جامعة بير زيت، ١٩٨٧

- شهادات الضباط الإسرائليين من:

The Fifty Years War: Israel and the Arabs, Based on the BBC TV Series, ed. Aharon Bergman and Jihan el-Tahri, Penguin Books and BBC Books, London. 1998

ودراسة المنظمة الصهيونية لأمريكا:

"Deir Yassin: History of a Lie", March 1998,

www.zoa.org./archives

ومقالات وليد الخالدى، "خمسون عاما على ملحمة دير ياسين".

-الجزء الأول من شهادة ثريا حبشى من شهادات وروى، لجنة توثيق تاريخ الحركة الشيوعية المصرية ومركز البحوث العربية، القاهرة، ١٩٩٨

وأود هنا أن أتوجه بخالص الشكر للسيدة خيرية أبو شوشة من جامعة القدس، والسيدة عادلة العيدى من مركز خليل سكاكينى برام الله، والسيد حسام البرغوثى من رام الله، والدكتورة إصلاح جاد من جامعة بير زيت على تفضلهم بإرسال ما طلبته منهم من مطبوعات وشهادات.

روايات الهلال تقدم

أربع وعشرون ساعة فقط

بقلم

يوسف القعيد

تصدر: ١٥ مارس ١٩٩٩

رقم الإيداع: ١٦٣٠٣ / ١٩٩
I.S.B.N
977 - 07 - 0625 - 6



رضوى عاشور

● مولودة في مدينة القاهرة عام ١٩٤٦

● تشغل وظيفة أستاذ الأدب الانجليزي بكلية الآداب – جامعة عين شمس .

● تنشر الرواية، والقصة القصيرة، وتكتب الدراسة الأدبية ، ولها ثلاثة كتب نقدية، والعديد من الدراسات في الأدب العربي الحديث، والأدب الانجليزي، والأدب الافريقي، والأفرو – أمريكي.

● من رواياتها «خديجة وسوسن» وسراج».

● حققت ثلاثية غرناطة (غرناطة، ومريمة، والرحيل) نجاحا ملحوظا، حين نشرت في روايات الهلال، وفازت بجائزة أحسن كتاب..

هــذه الروايــة

«ولكن، لماذا جاءتني شجر وأنا اشرع في الكتابة عن نفسي؟ »

من هي شجر؟..

هذا نص روائي جديد للكاتبة المبدعة رضوى عاشور، التي عرفها القارئ روائية متميزة، وفي هذا العمل الجديد تؤلف بين حياتها وحياة شخصية متخيلة، تمزج بين عناصر السيرة الذاتية والإبداع الروائي تتحرك بين الأسطورة المصرية القديمة، ووقائع التاريخ العربي الحديث بوثائقه الشفهية والمكتوبة.

«أطياف»

تجربة جديدة على مستوى الشكل، ومؤثرة فيما تسرده من تفاصيل.